

الخلافة المفتسبة

أزمه تاريف أم أزمه مورخ؟

الكاتب و الصحافي إدريس الحسيني

الخلافة المغتصبة

أزمة تاريخ أم أزمة مورخ ؟

دار الخليج للطباعة و النشر

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

مزيدة و منقحة

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

الاهداء

إلى ريحانتي سعيدة - أم حيدر - على ما وفرته لي في أجواء مشجعة كل البحث والدراسة.. ولما هي حقيقة به من جزيل الشكر وعظيم الفخار.. أهدي هذا الكتاب، خدمة للحسين (ع).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في كتابي السابق - *الإنقال الصعب* - كنت قد تجاوزت الكثير من الموضوعات المهمة بسبب السرعة من جهة، وبسبب تجنبي الدخول في مطارحات معقدة من جهة أخرى. ذلك أن كتاب - *الإنقال* - لم يكن سوى مجلد لتجربة استمرت رازحة بين أسوار الباطن القاتل والممل، ميدانا لفورة عاطفية أفقدتني كما سبق القول مني "تقنياتي المعرفية" - لذا كان الخطاب فيها ذو نبرة حادة تعبّر في ذات الوقت، عن حجم القلق الذي ظل يكتنفي ويتسلط على قريحتي. وهو القلق الذي يعاني من تسلطه كل باحث عن الحقيقة في أغوارها المظلمة، وكل متنقل في ملوكوت الاعتقاد، في رحابه الواسعة. ومن جهة أخرى، لأن العنصر الشخصي كان له حضور مكثف في كل زوايا الكتاب، فكان أقرب ما يكون إلى قصة منه إلى كتاب بحث وتحليل!

أود قبل ولوج أبواب البحث، أن أتحدث عما آثاره كتاب "الإنقال" من ردود الفعل في بعض الأوساط، وما أثاره من الاعجاب والأرياحية في نفوس البعض الآخر. علما أن الكتاب كما سبقت الإشارة إليه، لم يكن يهدف إلى الانتصار لطائفة على أخرى، ولا إزالة فئة مقابل أخرى. كانت الحقيقة هي مدار الكتاب، الحقيقة وحدها!

كان مما آخذوني عليه، تلك الطريقة العنيفة والطبيعة الخشنّة التي تناولت بها الموضوع، ومن جهة ثانية، وجدوا علي فيما ذهبت إليه من مرويات مسقطة

ومزدرئة بأشخاص مقدسين، كما فيه تعرض للصحابة والخلفاء الراشدين!.

وثالثاً، عن تجاوزي مصلحة الوحدة، وسعي وراء الفتن التاريخية.

ولست واجداً على هؤلاء فيما ادعوه من الأمر، خصوصاً بعد أن أثلي صدري

انطباع زمرة من العلماء والمشايخ من أثق في أهلية ونبوغهم.

أرد على من رأى في أسلوبنا عنفاً زائداً وجرأةً مفرطةً. بأنني لم أكتب كتاباً

إلا بداع الاحتجاج. فالقضية في تقديري متصلة بمصير الإنسان أمام خالقه وبدينه

الذي يشكل ينبع ممارسته العبادية اليومية عندما ترى نفسك وقد دنوت قاب

قوسين أو أدنى من لهيب النار، وفجأة تكتشف حبل النجاة. أفلأ يدعوك ذلك إلى

الجحون، إلى قول أي شيء في حق من قادك إلى هذه الهاوة السحيقة، للهوى

ولعبه. ماذا كنت أتمنى قوله لربِّي، لو سأله عن من هو إمام زمان؟!.

أفكت مجيباً: يا ربِّي إني لا أدرِّي! ماذا لو قضيت كل حياتي في معرفة كل

الرجال، وذهبت إلى ربِّي وأنا لا أعرف عن أئمة أهل البيت شرٌّ ونقيِّر؟!.

أفكت مجيباً: يا ربِّي إني قد عرفت مالك وبن حنبل والشافعي، وأبا حنيفة.

وعرفت يا ربِّي، فولتير ومونتسكيو وفيرلين.. ولم أعرف الإمام زين

العابدين، أو الإمام الصادق، أو حتى إمام الزمان؟!.

كيف كان يتھيأ لي إنَّ الرسول، بعدها سيحضنني في جنات الخلود والتمس

القرب منه وبرفقة ابنه الحسين (ع) أأقول له - بِاللهِ عَلَيْكَ، هَأْنَذَا جَئْتَكَ

يا رسول الله بعد أن قربني منك تعبدي واتباعي لرجال ذبحوا وخذلوا ابنك هذا

الذي بين جنبيك؟!.

إن القضية إذا نظرنا إليها بمنظار الإيمان، والحق. سوف لا أكون إلا كذلك،

عنيفاً وجريئاً. أما الذين وجدوا في تلك المرويات التي أثرتها في كتابي، تحريضاً

بالصحابة والراشدين. فإني لا أجد طريقة يقوى، ولا دليلاً تنهض في وجه من

يرفض الروايات، لا لضعف سندها ولا لبرطانة متنها، وإنما فقط لأجل تعرضها

للمقدسين!.

ما ذنب الرواية إذا جاءت بما يخالف المقدس، وبما لا يستجيب لهوى

المقدسين؟! وهل هذا المقدس يستمد حججته من النص أم أنه يستمدها من الذهنية التاريخية - السياسية -؟!

متى رأى الذين يقدسون أشخاصهم بالعيان؟! حتى يقطعوا بأنهم كانوا على حالة أسطورية من التقوى والورع؟! إننا لم نتعرّف عليهم إلا من خلال الروايات، فلماذا نقف في وجه الروايات المناقضة علماً بأنّ الرواية هي مصدرنا الوحيد لمعرفة رجال التراث! إنّها رواية برواية، واللبيب من يفهم بالعقل والإشارة!.

ثم من هم هؤلاء الذين أسقطتهم؟ أليسوا هم الذين أسقطوا أنفسهم. أولم يسقطوا رسول الله (ص) عندما خالقوه في حياته واستنكفوا عن تنفيذ وصاياه في مماته. وقتلوا أبناءه وضيقوا على نسله الطاهر. لقد قال عنه عمر: إنه يهجر. ورفض هو وأبو بكر تجهيز جيش أسامة بن زيد. وتصرف أبو بكر في ماله (ص) بلا حق.

لقد أسقطوه في عين عامة المسلمين، أسقطه عمر وهو ينزله منزلاً أبي بكر في الهدى، عندما قال:

لأن لم أستخلف فإنّ الرسول لم يستخلف، وإن أستخلف فقد استخلف أبو بكر.

لقد أسقطوه - بأمي وأبي - فكيف أجد حرجاً في التعرّض لهم بحق. إنني لم أرم تسقيطهم، ولكنني حاولت فقط إرجاعهم إلى أحجامهم الطبيعية، أزلت فقط ورقة التوت عنهم لتنكشف عوراتهم أمام أجيال المسلمين. أهذا يعتبر تسقيطاً؟! ثم بالله عليك، متى كانوا كباراً حتى نسقطهم؟! وهل وجودهم كباراً وعماقة في الأذهان المسحورة بكذب المؤرخين كاف لجعلهم كباراً وعماقة في واقعهم التاريخي. كيف أكبر من قال عن نفسه:

إن لي شيطاناً يعتريني. أو "كل الناس أفقه منك يا عمر".

نعم.. لقد تعرضت مثلاً لنسبة عمر بن الخطاب، وذكرت ما علق به من رواسب جاهلية بسبب ما سبق من تكريمه للخمر. وإنني لم أقل شيئاً لم يثبت في

وأع الأمر، فنسب عمر كما ذكرته كان مما جاء في مثالب النسابة الكلبي وهو من الممدوحين عند العامة وقد مدحه ووثقه بن خلدون، كما اعتمد روایاته بن خلدون، وكثير من حفاظ ومؤرخي العامة. وإن وجد من يؤاخذني على تعرضي لما ولده الادمان على الخمر في شخصية عمر. فإن ذلك ليس إسرافا مني لم يسبقني أحد إليه. قلت في الإنقال:

” وعلى الرغم من أن الخمر كانت من عادة العرب، إلا أن التوارييخ والسير، تثبت إن من بين العرب من كان يتورع عنها ” وهذا إسراف بدا مني لما بات أحاسب عمر على فعل قام به في الجاهلية. ولكن كان أجدر بمن اعترض على ذلك أن يفهم سياق حديثي، الذي كان يهدف تحليل شخصية عمر النفسية والاجتماعية. ولعل قوله سبقت من ابن خلدون تعزز ما ادعيناه، إذ قال: ” وقد كانت حالة الأشراف في العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة، ولم يكن الكرم شجرتهم، وكان شربها مذمة عند الكثير منهم ” ^١.

وهذا يدل على أن عمر الذي كرעה في جاهليته لم يكن من أشراف العرب، حسب هذا الرعم.

أما الذين اعتبروا كتابي واقعا ضد الوحدة، وباعثا على الفتنة التاريخية. فماذا أقول لهم؟.

إن عقلي لم يعد يفهم هذه الفلسفة الوحدوية المجنحة، ولا ذاتقتي والتي تستسيغ هذه النغمة السياسية. أي وحدة هذه التي تقوم على مذبحة الحق؟! وأي فتنة بدأت وانتهت؟! كيف أسكت وأنا أرى مجتمعهم تعقد الجلسات وتؤلف البحوث الطوال في تكفير أهل الولاية ومحاصرة المد العلوي. لنعد فيما نعود إليه إلى طاولة المفاوضات التاريخية وبعقلية نيرة ومنهجية موضوعية.

وعلى كل حال فأنا لا أروم الفتنة ولا إعاقة الوحدة. وإذا كانت الفتنة هي أن أكشف عن وجه الحقيقة والوحدة هي أن أساهم في تعزيز الباطل، فنعم الفتنة هي

^١ تاريخ ابن خلدون، ص ١٨ ج ١.

ونعم الفرقة كانت!

هناك دائماً دواعي تدفع الإنسان إلى مثل هذه المشاريع. هو هذا الجهل العريض والأمية المنتشرة في أرجاء الوطن الإسلامي، هذا الجهل وتلك الأمية لهما رابطة بمجمل المبني المذهبية عند المسلمين، فأصول الفقه وقواعديه يتغذى بمنهجية الفقهاء كما تحددها ملكتهم ومبانيهم، وهذه الملوكات وتلك المبني تقوم على علم الحديث، وهذا الأخير يقوم على السندي في اتصاله وعدالة رجاله، وهنا تكمن الشغرة الخطيرة أي في عدالة الرواية التي تقوم على المزاج السياسي والإيديولوجي، المزاج الذي لا يمكن فهم حقيقته إلا بإرجاعه إلى سياقه التاريخي، لماذا يتحول أبو هريرة الدوسي الذي رفض عمر بن الخطاب نفسه رواياته، ونعته الإمام علي (ع) بالكذب على رسول الله (ص) إلى رجل صادق الرواية موثق عند أهل السنة والجماعة. أليس هو ذات المزاج السياسي والإيديولوجي لأن أبو هريرة كذب على الرسول (ص) لدعم بني أمية لقاء حطام الدنيا، وماذا كان سيعطيه علي (ع) فيما لو ظل عمره كله يمدحه. وهل إن أبو هريرة الدوسي هذا الذي جمع في ذاكرته مالذ وطاب من مرويات، كيف لا يدعوه ما حفظه من رسول الله (ص) إلى نصرة الحق الذي قاتل من أجله علي (ع) أولاً أقل أن لا يرث معسكته معاوية لينصره بأكاذيبه المفضوحة، وإن الذي بشهادته ذاته إنه صاحب الرسول (ص) لإشباع بطنه، كيف لا يصاحب معاوية بعد أن ضمن له وفرة الدنيا بعد أن لم يحلم بها في حياته، علماً أن صحبة معاوية لا تقتضي منه سوى مزيداً من الكذب والتجديف. إن الجهل المطبق، والأمية المنتشرة تجعل من الضروري أن تنهض الأصوات المسئولة بالدعوة إلى ما يلم شعث الإسلام الحق ويرأب صدوعه ويعيد حبك نسيجه المنفوش.

في مناقشاتي الكثيرة مع العامة، كنت أضع هدفاً من احتجاجاتي. أن تعالوا جميعاً للباحث الموضوعي الهدف إلى تصحيح ما ينوه به الصرح الإسلامي من متعلقات الماضي، لنجعل من مواد دراساتنا، مادة تعنى بالفقه المقارن تكون أساساً للتعریف بمختلف المذاهب الإسلامية، والأسس التي تقوم عليها وتاريخية نشوءها وتطورها، يتولى توضيحيها علماء نزيهون يمثلون مختلف المدارس والمذاهب

الإسلامية، غير أن الواقع ظل دائماً يجري بعكس الاتجاه المطلوب، الإمام الصادق (ع) مثلاً، هو ذلك العملاق الكبير الذي على يده تخرج كبار الفقه الإسلامي، نراه يقبر في ذاكرة النسيان، في حين هناك بعض الأصوات المختنقة بتعسفيها، تحاول عبثاً إنقاذ بعض المذاهب من تحت الرميم، وتعيد بناء الطلل المنسي.

فمتى مالم يتنازل الطرف الآخر عن موقفه الصارم الذي لا يتسع لرأي الآخر، فإن المشكلة ستبقى عالقة إلى الأبد. حتى ولو طال المزمار بطلب الوحدة، إن الرافضي ظلت ولا زالت هي عنوان كل معتصم بولاية الأئمة الطاهرين من أهل البيت، وكان التشيع ولا يزال تهمة مسقطة للسمعة. ففي الماضي المتختلف كانت تهمة التشيع تعني الجريمة التي لا حد فيها غير الإعدام في دولة خلفاءبني أمية والعباس. وعلى تهمة تخلف عدالة الراوي عند المحدثين، ومن هنا كان بينهم والتعريض للإمام النسائي أن ينسبوا له التشيع عندما كتب في خصائص الإمام علي (ع) فنال بها ما شاء له الخلفاء من الشتم والضرب كما أن الشافعي الذي يعد أحد أئمة المذاهب الأربعة كان ممن أتهم بالتشيع لأهل البيت (ع) وكان البخاري يرفض الرواية عنه، ولم يخرج أحاديثه كما ذكر الرازى في مناقبه، وكذلك الطبرى المؤرخ الكبير وصاحب أول تفسير جامع عند العامة، لم ينبع من هذه التهمة التي رجم من أجلها، في حين لا يجد المحدثين حرجاً في أن يخرجوا أحاديث لمن عرف بالنصب لأهل البيت. فقد أخرج البخاري لعمر ابن حطان، وهو خارجي، كما أخرج النسائي لعمر بن سعد قاتل الحسين. إن هذه التهمة أصبحت معنية في حد ذاتها. أن يكون المرء شيئاً كافياً لإخراجه من الملة أو الأدمية في عصور الظلام.

وساعد في ذلك بلاغات العرب في تشويه صورة أعدائهم أو أقلياتهم، ولعل الكثير من يجهل مغزى هذه التهمة كان ينخرط بسهولة في هذه الجوقة الناصبية، وذلك من باب حشر مع الناس عيد. فكثير من أهل الشام ظلوا يلعنون علياً (ع) في المنابر، ولم يعرفوه عن قرب، حتى إذا جاء الشامي إلى الكوفة ويسأله عن علي (ع) فيقال له إنه بالمسجد، يأخذه العجب، ويدهشه الأمر، معرباً عن حاليه بقوله. أو علي يصلبي؟!

وهو حال من انخرط بغياء في هذه الجوقة الناصبية في عصرنا، لقد قال ابن

الأثير في كامله:

” قال علي بن عيسى: لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه ”.

ويؤسفني جداً أن تستمر الحقيقة في الغياب عن هذه الأمة النائمة، والتي زادها نوماً كسلها في التماس عقيدتها الصحيحة، مكتفية بما حملته أقلام التحريف على أديم التاريخ.

وهناك أيضاً بعض من صغار القوم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، ممن راموا تهدينا بعد سماعهم الكتاب، ويا ليتهم قرأوا ما جاء فيه وتمعنوه، إذن لاستناروا منه ما يرشد أبابهم في الفجاج المختلفة، وقضوا به على عتمة أذهانهم وجهالاتهم. وبعضهم وجد علينا في اتهامنا جمهورهم بالجهل والأمية. وكأنهم ممن أخذتهم العزة بالجهل.

فترفينا عن الالتفات إلى. استفزازاتهم الصغيرة، وأحجمنا عن التنغم بأقاويلهم إحجام الساري عن نقيق الضفادع. إنهم حاولوا تسلق مقامات العلماء بجهلهم وصغرهم. هؤلاء رحمة بهم سوف لا نعطي أهمية لما قالوه.

وفي النهاية أود أن أقول إن كتابنا هذا محاولة في استدراك ما فاتنا هناك. عاملين الوعظ في مناقشة القضايا الكبرى في الفكر الإسلامي وعقائده وتاريخه. التي لا زالت عالقة في أذهان المسلمين لا يتوفّر لديهم فيها حل شاف ولا جواب منطقي. ولأن الإمامة وما يتصل بها من موضوعات هي مفتاح كل الصراعات التي شهدتها التاريخ الإسلامي، وحيث كانت هي الأساس الذي تكاثرت عليه جميع الاتجاهات والمذاهب الكلامية والفقهية، كان لا بد من التطرق إليها بمزيد من البحث والإيضاح. ولأن اختيارنا المنهجي - أيضاً - ظل هو التاريخ، لما يمثله هذا الأخير من أهمية قصوى في تسهيل البحث وتيسير الإيضاح، تقرر عندي أن يكون هو ميدان الدراسة من دون أن يقودنا ذلك إلى رفض الميادين الأخرى التي تساهم أيضاً في تيسير البحوث.

فإذا كان التاريخ كذلك، ساحة يتحرك فيها وعيها بكل ما له علاقة بالفكر الإسلامي، وإنه ساحة ضرورية لفهم نشوء وتطور وتكامل الظاهرة الفكرية والسياسية والمذهبية كان من الواجب علينا تبني قواعد الممارسة التاريخية والمنهج التاريخي الذي يعطي للسياق دوراً أساسياً في الحدود التي تتجلّى فيها سلطة السياق التاريخي على الواقع والأحداث وعلى عملية تفكير هذه الواقع والأحداث. وما دام إن المنهج الذي تبنياه يدعونا إلى إعادة المبني المذهبية إلى طبيعتها البسيطة من جهة تعقدّها بفعل الصيرونة التاريخية، وإلى وحدتها من جهة تداخلها بالعناصر الأخرى المتعددة، التي تؤسس المبني المذهبي. كان لا بد من الرجوع إلى النص النبوي الذي يقع في خط النص القرآني من الناحية البيانية.

وذلك في ضوء السياق التاريخي الذي وقعت فيه محنّة النص النبوي وانطلقت سلطة الرأي، لتحول محله. وأن السقيفة لم تكن سوى المنعطف الأول، أو بؤرة لانعكاس المخبوء والمستتر من واقع المجتمع الإسلامي، بدأنا حديثنا عن ملابساتها محاولين التعرض لمجريات أمرها. لتعيّدنا مرة ثانية إلى السقيفة. إذ أن هذه الأخيرة هي بمثابة محطة ضرورية لفهم السيرة النبوية فهماً حقيقياً. وكذلك محطة ضرورية في إيضاح تاريخ الخلافة والخلفاء. وحيث أن أول واقع فعلي للخلافة تتجسد فيما أسموه بالخلفاء الراشدين، كان اهتمامي أيضاً منصباً على هذا الموضوع للوقوف عند حقيقته، والنهوض بدليل تاريخي، لإعادة المصداقية والاعتبار إلى النص ذي المعنى المغيب، من أجل إعادة تأسيس الفهم والوعي بتاريخنا الإسلامي. وأن هذه التركيبة "الراشدة" لها علاقة بالصحة وقضية الصحابة. كان لا بد من التطرق إلى هذا الموضوع الشائك لتوضيح جوانبه.

وبعد ذلك هناك بعض القضايا التي أطلقت عليها اسم "الأصنام" والتي أرى من الضروري هدمها، لأنها تحجب الحقيقة على الإنسان. وهي عبارة عن مسائل كثيرة مثار جدل ونقاش بين المذهبين. وحيث أن الأمور في جريانها لم تكن سوى امتداد لمنعطف السقيفة كنت أود لو أشير إلى أن السقيفة لم تشكل أول منعطف إلا فيما يتعلق بالمرحلة التي توفي فيها الرسول (ص) بينما هناك منعطفات أخرى جرت قبل ذلك، مثل واقعة الفتح. فالفتح كان يشكل منعطفاً مهماً في التاريخ الإسلامي، حيث دخل الجميع إلى الإسلام، وهذا منعطف رسم مرحلة القوة في

الدولة الإسلامية يومذاك.

غير أن دخول الجموع الغفيرة من مؤلفة قلوبهم وطلقاء. جعل المجتمع الإسلامي يدخل مرحلة جديدة من التحدي، هي مرحلة المنافقين في المجتمع الإسلامي. وأردت هذه المرة أن أجعله منطلقا في تفهم باقي المجريات.

وبعد ذلك حاولت أن أردد بحثي هذا، بطرح قضية الإمامة كما حللها ابن خلدون في تاريخه. مع الرد عليه فيما ذهب إليه من مزاعم، وكان ذلك هو الشق الثاني من البحث.

أسلوب الكتاب واضح جدا. لا محل فيه للتعقيد اللغوي. يعتمد طريقة النظار في الرد على المبطلين، كما يعتمد التحليل في فهم جانب من الظاهرة المدروسة. ميسر للقراءة والفهم والاستيعاب.

ربى يسر لي أمري.

واحلل عقدة من لساني.

يفقهوا قولي.

٢٨ / ٤ / ١٩٩٤ م

الدار البيضاء - المغرب

Casabanca MAROC

مدخل

حركة النفاق في المجتمع الإسلامي

هناك مرحلتان مرت بهما تجربة الرسالة في مقاومة الشرك العربي.

الأولى: تجسدت في مسلسل المعارك والحروب التي قادها الرسول الأعظم (ص) ضد مشركي مكة من أجل الإطاحة بهم.

الثانية: كانت بعد الفتح الإسلامي ودخول أخلاقه كثيرة من العرب إلى الإسلام.

لقد كان أصل الصراع الذي جرى في بداية الدعوة، هو ما أسماه القرآن الكريم مراء الشرك والإيمان.

وكان هدف الإسلام ابتداء هو إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام. فالجاهلية تمثل كل ما له علاقة بقيم الشرك، مقابل الإسلام الذي يمثل قيم التوحيد. وكان لكل معسكر رموزه وفعالياته. فالجاهلية عرفت رموزها وقيادتها في بني أمية بن حرب بقيادة أبي سفيان. الذي كان وراء أخطر الحروب وأضرها على المسلمين، ولكم كاد الإسلام أن ينتهي ويهلك أهله بتلك الحروب، ولعل أهم تلك المغازي التي كادت تذهب ريح المسلمين، هي غزوة الأحزاب التي وصفها القرآن، قائلاً:

﴿وإذ زاغت الأ بصار وبلغت القلوب الحناجر﴾^٢.

^٢ سورة الأحزاب (آية ١٠).

وكان مما قاله الرسول (ص) داعيا به ربه في تلك المعارك:
"اللهم إن تهلك هذه العصابة، لن تعبد في الأرض".^٣

فهذه الحروب التي قادها المشركون بقيادةبني أمية. لم تكن حروبا سهلة. بل إنها كلفت المسلمين خسائر كثيرة في الأموال والأرواح. وكان الوحي يعيش هذه المحنّة عن كثب. وكثيرا ما لعن وواعد بالنار مشركي قريش. ونزلت آيات كثيرة تبشرهم بعذاب أليم.

وكما كان لمعسكر الشرك رموزه وقياداته، فإن المعسكر الإسلامي تمثلت رموزه وقياداته في بنى هاشم وعلى رأسهم الرسول (ص) وعلى (ع). تكرست تلك العداوة بين الفريقين بين أبي سفيان ووزراءه من دهاقنة الشرك، ونبي الله محمد (ص) ووزيره علي (ع) عداوة أشد ما تكون العداوة.

وكان الفتح بمثابة منعطف مهم في حياة الجماعة المسلمة. فالإسلام سوف يتحول من مستوى العصابة والجماعة الثائرة، إلى مستوى الدولة. والشرك سوف يتحول إلى عكس ذلك، من تجمع مركزي إلى حالة ضعيفة وفاشلة. وهذا التحول الكبير في تجربة المسلمين كان له أثران: أحدهما إيجابي تجلّى في قوة الإسلام وشمول حاكميته. والثاني نتج عن دخول تلك الالتحالط في الإسلام بمن فيهم الطلقاء الذين عفا عنهم الرسول (ص) بعد أن أمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة.

إن الهزيمة العسكرية للشرك ليست كافية لتحسين إيمانهم، لقد انهزموا بعد أن نفذت كل حيلهم ومحايدتهم لتحطيم الإسلام. وبعد أن نصبووا كل ما يملكون من حواجز، وأفرغوا كل ما في كنائتهم حتى الأهزع.

لقد دخل المشركون مرحلة جديدة من العمل وسلكوا استراتيجية الهدم من الداخل وبأسلوب سري للغاية. فتحولوا إلى شريحة منافقة في المجتمع تترصد الفرصة للانقضاض عليه.

ولم يكن النفاق في حقيقة الأمر سوى امتداد طبيعي ومنطقى للشرك. فهو

^٣ سيرة ابن هشام. ٢٦٩ ج ٢

حلقة من حلقاته التاريخية. ظل بنو أمية على امتداد أحفادهم يمثلونه. في حين استمر التوحيد مع محمد وعلي وبنيه (ع).

إن الطبيعة الامتدادية للشرك، نلمحها في عودته بعد أن استتب الأمر لبني أمية عندما لحقت أهل البيت (ع) أعنف ضربة بقتل الإمام الحسين (ع) تمثلها يزيد وهو يومها مالك لزمام الأمور:

جزع الخزرج من وقع الأسل	ليت أشياخي بدر شهدوا
ثم قالوا: يا يزيد لا تشن	لأهلوا واستهلو فرحا
وعدلنا ميل بدر فاعتدل	قد قتلت القرم من ساداتهم
منبني أحمد ما كان فعل	لست من عقبة إن لم أنتقم
خبر جاء ولا وحي نزل ^٤	لعبت هاشم بالملك فلا

وأوضح الرسول الأعظم (ص) فيما أوضح للمسلمين. من أن سمة النفاق تجلّى في بغض هذا البيت الهاشمي وفي بغض علي (ع) لذلك شاع قوله عليه الصلاة والسلام: (يا علي، لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق) ^٥.

وعندما جعل القرآن سمة المنافقين في لحن القول، أدرك المسلمون إن ذلك يتم من خلال موقفهم من علي (ع) لقد روى الجمهور، عن أبي سعيد الخدري أنه قال في قوله تعالى:

﴿ولترفنهم في لحن القول﴾ ^٦ قال: (بغضهم عليا عليه السلام) ^٧.

وفي قوله تعالى:

﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ ^٨

^٤ تاريخ ابن كثير ٢٠٤ / ٨.

^٥ كنز العمال (٥٩٨/١١) وكتاب السنة (٥٨٤) والمصنف (١٩٧) و (٣٩٤ و ٥٠٣) وكفاية الطالب (٧٢٦) و مصابيح السنة (١٧١/٤) و مناقب الخوارزمي (٣٩) و فرائد السمعطين (١٣١/١) والتزمذى (٦٣٥/٥) و (٦٤٣) و مناقب ابن المغازلى (١٩٥/١٩٠) و منسد أحمد (٢٩٢٦).

^٦ سورة محمد (آية ٣)

^٧ الدار المنشور (ج ٦ ص ٦٦)

^٨ الأحزاب / ٥٨.

ذكر جمع من المفسرين إنها نزلت في علي (ع) لأن نفراً من المنافقين كانوا يؤذونه ويذكرون عليه^٩.

وكان أولى إرهاصات النفاق في مجتمع الرسول (ص) هي تلك المحاولة المشؤومة التي استهدفت حياة الرسول الأعظم (ص) وهي محاولة اغتيال قامت بها جماعة من الملثمين المنافقين. فعندما رجع رسول الله (ص) قافلاً من تبوك إلى المدينة، وكان بعض الطريق، مكربه ناس من أصحابه فتآمراً روا أن يطرحوه من عقبة في الطريق. وأرادوا أن يسلكوها معه. فأخبر رسول الله (ص) خبرهم فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنه أوسع لكم فأخذ النبي (ص) العقبة وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر أرادوا المكر به استعدوا وتلثموا. وأمر رسول الله (ص) حذيفة بسوقها بينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه فغضب رسول الله (ص) وأمر حذيفة أن يرافق فرجع ومعه محجن فاستقبل وجه رواحهم وضربها ضرباً بالمحجن وأبصر القوم وهو متلثمين فأربعبهم الله حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر فأسرعوا حتى خالطوا الناس وأقبل حذيفة، حتى أدرك رسول الله (ص) فقال أضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار. فأسرعوا وخرجوا من العقبة ينتظرون الناس فقال النبي (ص) يا حذيفة هل عرفت من هؤلاء الرهط أحداً. فقال حذيفة عرفت راحلة فلان وفلان، وكانت ظلمة الليل غشيتهم وهو متلثمين. فقال عليه السلام: هل علمتم شأن الركب وما أرادوا قالوا:

لا يا رسول الله قال: فإنهم مكرروا ليسيروا معى حتى إذا اظلمت لي العقبة طرحوني منها.

قالوا: أفلأ تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناس تضرب أعناقهم، قال: أكره أن تتحدث الناس وتقول أن محمداً قد وضع يده في أصحابه فسماه لهم ثم قال اكتماهم^{١٠}.

لقد بلغت خطورة النفاق في المجتمع الإسلامي حداً بات من الضروري معه

^٩ تفسير الرازبي (٢٧٣/٣) و إسباب التزول للواحدي ٢٧٣

^{١٠} دلائل النبوة (٢٥٧/٥)

أن يعمل الرسول (ص) على تركيز المهام الكبرى في يد وزير له، انتخبته السماء لنصرته وخلافته، وهو علي بن أبي طالب (ع).

لقد كان من الطبيعي أن ينطلق أبو بكر ببراءة ليقرأها على الناس فيما لو كان الأمر في بدايته، ولكن الأمر يتعلق بقضية كبيرة في مرحلة حرجة. بدأت الرسالة تحدد مواقفها مع الداخل بشكل يشير إلى الاستفهام. فكان لا بد أن يؤدي سورة براءة علي (ع) ولو اقتضى الحال أخذها من أبي بكر.

وملخص الحادثة أن النبي (ص) كان قد أنفذ أبو بكر ببراءة إلى مكة.

فلما بلغ ذا الحليفة بعث إليه علي، فرده، فرجع أبو بكر إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله، أنزل في شيء؟ قال: لا، ولكن جبرائيل جاءني وقال: لا يؤدي عنك إلا أنت، أو رجل منك،^{١١}

وفي تلك الظروف، اقتفي الاحتياط وضبط المهام من الرسول (ص) أن يقي يوم تبوك عليا بالمدينة على أهله، وذلك بعد أن كان الرسول (ص) يبقي فيها في مغازيه الأولى بعض الضعاف من غير ذوي الأهلية، أمثال ابن أم مكتوم الضرير، غير أن الظروف قد تغيرت بعد الفتح، وأصبحت المدينة مكتظة بالعناصر المنافقة، وكان من الضروري البقاء على رجل ذي خبرة وبأس شديد. لهذا السبب أبقى الرسول (ص) عليا (ع) وخلفه في المدينة، وزهد في وجوده في المعركة مع أنه أسد الحروب الرسالية جميعها.

ولكم حاول المنافقون استفزازه كي يبرح المدينة ليخلوا لهم الميدان من مراقب متنمر ذي بأس شديد. ذكر ابن هشام إن المنافقين أرجفوا به وقالوا: "ما خلفه إلا استقلا له، وتحفظا منه" فأخذ علي (ع) سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) وهو نازل بالجرف فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلftني لأنك استقلتني وتحفظت مني. فقال: كذبوا. ولكن خلftك لما تركت

^{١١} مسند أحمد (٣/١ و ١٥١) والدر المتنور (٢٠٩/٣) و الرياض النصرة (١٣١/٢) و ذخائر العقبى (٦٩) و خصائص النسائي (٨٢) والمصنف (٥٠٦/٧) و كفاية الطالب (٢٥٤) و شواهد التنزيل (٢٣١/١) و مصابيح السنة (١٧٢/٤) و مناقب الخوارزمي (١٦٤) و الترمذى (٦٣٦/٥) و تفسير الطبرى (٦ ج ٦٥/١٠).

ورائي. فارجع فأخلفتني في أهلي وأهلك، أ فلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، فرجع علي (ع) إلى المدينة.

بقي النفاق إذن حديث الأيام، تناقله الألسن، وتحمله الأنبياء عبر الأصقاع المفتوحة.

ونزلت يومها سورة بكمالها من القرآن تحت هذا الاسم، وربط القرآن في أكثر من موقع، النفاق بجانب الشرك والكفر:

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جمِيعا﴾^{١٢}.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارًا جَهَنَّمَ﴾^{١٣}.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^{١٤}.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتْقُ الَّهَ وَلَا تَطْعُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^{١٥}.

﴿وَلَا تَطْعُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^{١٦}.

﴿يَعْذِبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾^{١٧}.

والآيات السابقات تدل على أن النفاق أصبح في مستوى خطورة الكفر. وأنه امتداد للشرك.

ولم تكن هذه الخطورة بيسيرة على الفتنة المؤمنة. ولا بالأمر الهين على من انطوى على حسن السريرة. لقد خاطب عمر بن الخطاب الناس بعد وفاة الرسول (ص) بنفس المنطق المنسجم مع ذلك الظرف التاريخي، وبنفس القضية التي يجدونها في أنفسهم وتستسيغها أذهانهم. إذ قال عمر للمغيرة حين قال له: "مات والله رسول الله (ص) فقال عمر كذبت ما مات رسول الله ولكنك رجل

^{١٢} ٤٠ سورة النساء.

^{١٣} ٦٨ سورة التوبة.

^{١٤} ٧٣ - التوبه.

^{١٥} ١ / الأحزاب.

^{١٦} ٢٤ / الأحزاب.

^{١٧} ١ / الفتح.

تحوسك فتنة ولن يموت رسول الله حتى يفني المنافقين "١٨".

ولم يكن هناك من هو أكثر نفاقاً وتبجيتاً للإسلام من أولئك الذين تمسكونا بشركهم حتى زمن الفتح. والذين لم يؤمّنوا إذ أسلمو وهم معرضون. إنما كانوا من الطلقاء الذين بدا للرسول (ص) أن يقيهم على قيد الحياة بعد أن كان أمر بقتلهم. هؤلاء كانوا في طليعة المنافقين الذين شاعت أخبارهم في أصقاع الجزيرة العربية. وقد سبق أن حذر الرسول (ص) المسلمين من خطر الأموية، عندما رأى الرؤيا الشهيرة. فلقد سمعوا منه عليه السلام قوله في الآية ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ هم بنو أمية، وذلك عندما رأى الحكم ابن أبي العاص يتزلّون على منبره فسأله ^{١٩} ذلك فنزل قوله تعالى:

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أریناك إلا فتنة للناس، والشجرة الملعونة في القرآن﴾ ^{٢٠}.

وازدادت خطورة النفاق بعد وفاة الرسول (ص) وبدأوا يتطلعون إلى مشاريع هدامة. فقد روى البخاري عن حذيفة بن اليمان قال:

”إن المنافقين اليوم أشرس على عهد رسول الله (ص) كانوا يومئذ يسرّون واليوم يجهرون“.

كل هذه القرائن تثبت أهمية الموقف، وخطورة الظرف الذي سبق وفاة الرسول الأعظم (ص).

لقد كان هناك أيضاً كثيراً من الأمور تقتضي حلاً شافياً قبل وفاة الرسول (ص). فالمسلمون قادمون على محاربة الروم وفارس. أما مهّم بلاد كثيرة لم تفتح... وفي الداخل هناك حركة النفاق المنتشرة والمتوّزعة على المناطق، وذات نفوذ كبير.. والدعوة إلى الله شأن بدأ يعرف هو الآخر نوعاً من الصعوبة

^{١٨} مسند أحمد (١١٨/٣) وشرح النهج (١٧٩/١) وطبقات ابن سعد (٢٦٦/٢) والبداية والنهاية (٢٤٢/٥)

^{١٩} تفسير الطبرى (١١٢/٩) وتفسير الألوسي (١٠٧/١٥) والدر المثور (١٩١/٤) وتفسير الرازى (٢٣٧/٢٠)

^{٢٠} سورة الأسراء (آية ٦٠)

والتعييد.. فال أيام التي يستقبلها المسلمون تتطلب منهم منهجاً جديداً ودقيقاً في الدعوة. إذ أنهم سوف ينفتحون على ديانات وفلسفات لم يكن للعرب سابق عهد بها. ولم يكن أحدهم متعرضاً على ضروب المحاججات الكلامية والفلسفية. لقد كان الرسول (ص) هو الوحيد الذي تزعم حركة الاحتجاج على أهل الديانات. فمن هو هذا الذي أوتي علم الأولين والآخرين ليتصدى لهذه التيارات الدينية وغير الدينية، بلغة العلم ومنطق الجدل وفكرة الوحي؟!.

وهل كان في نية الرسول (ص) أن يترك أمهاته لتقع على قراءة اساغوجي فورفوريوس، أو ميتافيزقاً أرسطو. حتى تتعلم منطق الدفاع عن دينها، وإفحام الخصم والانتصار للعقيدة. بما يعزز إيمان الناس ويزلزل قلوب المناوئين. فلا بد للعلم النبوى أن يجد طريقه إلى خلف معين، تقم ترسيته وإنشاءه لهذا الدور الخطير. ولهذا كانت فترة موت الرسول (ص) على جانب من الخطورة. وللحظة حرجة فيما لو أمعنا النظر فيها. إنها اللحظة التي ينتظر فيها الإنسان انفلاطات الروح من إنسان عزيز. وللحظة التي تضحي فيها الوصية أنفس من الدنيا عند المحيطين به.

لحظة وفاة الرسول وكانت جديرة بأن تشد أنظار القوم إلى الرسول (ص) وتنسيهم أنفسهم، بل التصارع على الخلافة. كانت تلك المصيبة الكبرى جديرة بأن تنسىهم الدنيا لبضعة أيام.

وكان جديراً - أيضاً - جمن هم حول الرسول (ص) أن يهتموا أياً اهتمام بما يلفظه هذا الرجل العظيم من قول في نهاية رحلته من بين أظهرهم. فهو رجل ليس كباقي الناس.

غير أن الواقع يختلف - تماماً - مما يفترض من طيبة هذه القلوب واستنارة تلك العقول.

لقد كانت نهاية صامتة ولعمري إنهم جعلوها كذلك حتى لا يشروا على أنفسهم لومة لائم على حق أضعاعه. وحقيقة سكتوا عنها. مات الرسول (ص) صاحب الأمة العريضة، وصاحب الهموم الكبرى التي كان يركز عليها حتى نهاية عهده كاهتمامه بتجهيز جيش أسامة. مات هذا النبي العظيم وترك أمهاته مضطربة من

دون أدنى وصية أو إشارة تشد ظهر مصيرها. إلى من يخلفه في الأمر وكيف يخلفه فيه. وإذا كانت قضية الخلافة هي منشأ الخلاف عند المسلمين، وبداية التصدع في صرح الأمة. فكيف لا يسمع فيها لرسول الله رأي؟!

إلا أن الحقيقة المرة ليست كما يحاول عرضها المزورون للأحداث التاريخية، جهلاً أو طمعاً. الحقيقة المرة هي أن رسول الله (ص) ما فتئ يوصي أمه في نهاية عهده. بمن يخلفه في أمه. غير أن تيار الاعتصاب وجه الأمر إلى وجهة معاكسة تقوم على الرأي الكسير والاعتصاب الجائر. كانت هناك حبكة جميلة، وطبخة لذيدة أعدها هذا التيار. لذلك سوف يتبيّن لنا كيف كان الرسول (ص) يدبر الأمر وكيف كان تيار الاعتصاب يتبع هذه التدابير بخطى حثيثة، ويعيق تنفيذها.

التدابير النبوية في تركيز الإمامة

كانت هناك طرق كثيرة و مختلفة. اعتمدتها الرسول (ص) في تركيز الإمامة

وترسيخها في وجدان المسلمين وهي كالتالي:

١ - العمل على إشاعة الإمامة لعلي بن أبي طالب (ع)

لم يكن الإمام علي (ع) رجلاً عادياً كباقي رجالات الرسول (ص) والذين عملوا على جعله كذلك هم من يتجاهل على التاريخ. ويتعسف على وقائعه ظلماً وعدواناً. فالإمام علي (ع) كان صنواؤ وأخاً وخليفة لرسول الله (ص) في كل أحواله. والذي فهمه المسلمون من اهتمام الرسول (ص) التواصل بهذا الرجل المتميز، هو أنه إمام المستقبل، وخليفة الرسول (ص) من بعده.

لقد اعتاد الأمويون ومن جاء بعدهم، أن يضخمو من شأن الخلفاء حتى لا يقى لعلي (ع) فضيلة تذكر. ونحن سوف لا نقع فريسة لتلك المرويات التي تكذبها القرائن التاريخية، وتسخر من ابتدالها الألباب الملمة والمحيطة بكل السياق التاريخي الذي نشأ وتحرك فيه هؤلاء الثلاثة. وسوف أفرد لذلك باباً أحاوّل استيفاء القول فيه عن قيمة هؤلاء الخلفاء إن شاء الله.

وأهم تلك المواقف التي كان يرمي من خلالها الرسول (ص) إلى إظهار

إمامية علي (ع) في المستقبل ما يلي:

أ - يوم الدار.

ب - أحاديث الوصية.

ج - يوم الغدير.

أ - يوم الدار:

وهو موقف جرى تحت سمع وبصر صناديد قريش وكرابئها، وعلي (ع) يومها لا يزال في طور الغرارة والصبا. إذ قرع الرسول (ص) مسامعهم، معلنا اختيار علي (ع) وزيرا له وخليفة من بعده. وملخص الحادثة كالتالي:

إنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ .^{٢١}

قام الرسول (ص) يدعو أقرباءه، وفيهم أبو لهب فقال (ص):

” يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شبابا في العرب جاء بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله عز وجل أن أدعوكم إليه. فأيكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفي فيكم ”؟

فسكت القوم ولم يجيبوا إلا علي (ع) قال: ” أنا يا رسول الله أكون وزيرا لك على ما بعثك الله. وبعد أن كررها ثلاثة، التفت إليهم وقال:

إن هذا أخي ووصي وخليفي فيكم (أو عليكم) فاسمعوا له، وأطيعوا. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب، قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع، وجعله عليك أميرا ”^{٢٢}.

كان هذا هو أول موقف رسالي في الدعوة إلى الإسلام. طرح فيه علي (ع) بقوة. وكان الأمر بإذار العشيرة، وهي أول خطوة للدعوة تزامنت مع طرح إمامية علي (ع)، لما في ذلك من تلازم وتكامل بين الدعوة والإمامية.

ب - أحاديث الوصية الأخرى

^{٢١} الحجر / ٩٤ - ٩٥

^{٢٢} تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢١ ط. دار المعرف - مصر.

وكان من دأبه صلوات الله عليه أن يعلن وصيته لعلي (ع) بشكل واضح،

لأصحابه كالذى رواه العامة عنه، قال الرسول (ص):

”لكل نبى وصي ووارث، وإن وصي ووارثى على بن أبي طالب“^{٢٣}.

وعندما نزل قوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ: وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾^{٢٤}.

روى الجمهور عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (ص) ”انتهت الدعوة إلى

وإلى علي لم يسجد أحدنا قط لصنم، فاتخذني نبى واتخذ عليا وصيما“^{٢٥}.

وفي قوله تعالى:

﴿وَقَفُوا هُمْ إِنْهُمْ مَسْؤُلُون﴾^{٢٦}.

روى الجمهور أيضا، عن ابن عباس وسعيد الخدرى، عن النبي (ص):

”عن ولایة علي بن أبي طالب“^{٢٧}.

ج - يوم الغدير:

عندما وصل النبي (ص) من حجة الوداع إلى مكان اسمه غدير خم يقع بين

قلة والمدينة قرب الجحفة بناحية رابغ. قام خطيبا في المسلمين بعد أن أخذ بيد

علي (ع) فقال:

”أليست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا بلى يا رسول الله! قال: فمن

كنت مولاه، فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه“.

ثم قال: ”أيها الناس إني تارككم وأنتم واردي علي الحوض، وإنى سائلكم

حين تردون علي، عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما. قالوا: وما الثقلان

^{٢٣} أسد الغابة ابن الأثير ١ / ١٧٥.

^{٢٤} البقرة / ١٢٣.

^{٢٥} المناقب / ابن المغازى.

^{٢٦} الصافات / ٤٢.

^{٢٧} الصواعق المحرقة.

يا رسول الله؟.

قال: الثقل الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله، وطرف بأيديكم،

فاستمسكوا به ولا تضلوها، ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي ^{٢٨}.

وهناك أمثلة كثيرة من تلك الفضائل التي كانت تعكس مدى اهتمام الرسول

الأعظم (ص) بولاية علي (ع) وسوف نذكر بعضها في مقام آخر.

وكان الرسول (ص) يعمل على تركيزها في أذهان المسلمين، حتى يستقرؤها

من خلالها أحقيّة الإمام علي (ع) في خلافة النبي (ص). وظل عليه الصلاة والسلام

يسلك طريقة هادئاً في ذلك حتى لا يشير بها حفيظة قوم وتر علي (ع) قلوبهم بقتله

أجدادهم على امتداد المعارك التي خاضها مع الرسول (ص) وحتى يتتجنب عليه

الصلاوة والسلام حقد الحاقدين الذين رأوا في تنصيب علي (ع) تفويتاً لمصالحهم

ومطامعهم الخسيسة.

ولما كان الوحي يرافق عن كتب محبة الرسول (ص) خفف ذلك القلق عنه

وأمره بأن يصدع بالحق، إكمالاً للدين وختماً لشريعته. فكان أن خطب فيهم خطبته

الشهيرة بغدير خم. وفيها اكتمل الدين بقوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمْتُ عَلَيْكُمْ نُعْمَى وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامُ﴾

٢٩ ديناً ﴿﴾

كان هذا هو التدبير الذي انتهى إليه الرسول (ص) هو أن يصدع

بالحق، ولا يخفى الأمر ول يكن ما يكون، فالأمر إلهي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بِلَغَ مَا أَنْزَلَ

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ لَمْ تَفْعُلْ فَمَا بَلَغَتِ رَسُالَتِهِ﴾ ^{٣٠}.

فلتذهب نفوس حسرة، وليسلك الرافضون مذاهبهم.

^{٢٨} مسلم (٢٥/٥) ومسند أحمد (١٧/٣) و٢٦ و٥٩ و٤٥ و٤ و١٦٧ و١٦٧/٤ و١٦٧ و١٧٣ و٢٦ و١٧٣ و٢٧ و٢٥/٥) والمستدرك (١٤٨ و١٠٩/٣) و مناقب الخوارزمي (١٥٤) وينابيع المودة (٣٢/١) و مجمع الزوائد (١٦٥/٩) و كفاية الطالب (٢٥٩) و مصابيح السنة (١٨٥/٤) و كتاب السنة (٣٣٧ و ٦١٣ و ٦٢٩) و مصابيح

^{٢٩} سورة المائدة (آية ٣)

^{٣٠} سورة المائدة (آية ٦٧)

فالأمر اليوم أجل من أن يسكت عنه.

لقد كان تلطف الرسول (ص) في الأمر من باب أن المجتمع أصبح غاصاً بالمنافقين، وبمن لا زالت في قلوبهم موجدة عليه وعلى علي (ع) وبني هاشم في كل ما جرى لهم. إنه يعلم أن الأغلبية منافق، ولذلك رفضت الإمامة لعلي (ع) واغتصبت حقه في ذلك انتقاماً لماضيها الشركي.

٢ - التدبير الثاني / إبعاد المسلمين إلى جهة الخارج:

ذكر ابن سعد في طبقاته، إنه لما كان يوم الأربعاء بدء برسول الله (ص) المرض، فحمد وصفع. فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ثم قال: أغز بسم الله في سبيل الله، فقاتل من كفر بالله فخرج وعسكر بالجرق فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار انتدب في تلك الغزوة فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وغيرهم، فتكلم قوم وقالوا يستهل هذا الغلام على المهاجرين الأولين، فغضب رسول الله (ص) غضباً شديداً فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال "أما بعد، أيها الناس، مما مقالة بلغتني عن بعضكم في إمارة أسامة، ولكن طعتم في إمارة أسامة لقد طعتم في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إنه كان للإمارة خليق وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة ثم نزل فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشرة خلون من ربيع الأول وثقل رسول الله (ص) فجعل يقول إنذروا بعث أسامة".

إن المدقق في نبرة الخطاب الأخير.. والملابسات التي لفته يدرك إلى أي مدى كان الرسول (ص) يراهن على ذهاب الجيش إلى مهمته وبذلك يتم إجلاءه من المدينة. فالإمعان في تجهيز جيش أسامة زيادة على البقاء على علي (ع) بجواره في اللحظة التي سيفارق فيها الحياة.. له دلالة قوية على أن الرسول (ص) كان يروم إلى إجلاء كل من من شأنه الطمع في خلافة الرسول (ص) والتطلع إليها.

فهو من جهة يبين لهم أن أمر الإمارة من اختصاص النص. وأنه عندما أمر عليهم أسامة إنما عمل ذلك من جهة اختياره الذي لا دخل لمشورة فيه. فالمشورة لا مدخلية لها في المسؤولية.. وهو من جهة أخرى يبين لهم إنهم وأسامة وغيره

سواء. وإنهم ليسوا ذووا ميزة تناقض تأمير أسامة عليهم.. وإن أسامة على صغر سنه يبقى جديراً بها ممن كانوا معه. وكأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن البعض سوف يرفض إمامته على (ع) لصغر سنه. فبادر إلى هذا النوع من الاختيار لجعله درساً لأمته إلى الأبد!.

لقد حاول الرسول (ص) وبكل إمعان إجلاءهم بعيداً عنه ولو أن وجودهم يومها كان أفضل من غيابهم، إذن، لأبقى عليهم رسول الله (ص) في المدينة وهو يعلم أن وفاته لا شك واقعة!. لكتن ما الذي وقع؟.

كان تيار الاغتصاب من جهة واعياً بمقاصد الرسول (ص) مطلاً على تدابيره فأبو بكر وعمر بن الخطاب يدركان تمام الادراك، أن شيوخ إمامه على (ع) سوف يخلق لهما متاعب كثيرة.. وأن إجلاءهما خارج المدينة قد يفوت الفرصة عليهما، فإن كان أبو بكر وعمر بن الخطاب قد استشكلا تأمير أسامة عليهم فإن ذلك كان محاولة منهم لافشال خطة الرسول (ص). هم مصممون على طلب الخلافة، فإذا أنزلهم الرسول (ص) تلك المنزلة، فكيف يتسلّى لهم الصعود مجدداً، بعد أن يرسيخ في وجدان المسلمين إن أبو بكر وعمر بن الخطاب، هما كباقي المسلمين، وإنهما وإياهم سواء تحت إمرة أسامة. ومن هنا عملاً على إفشال ذينك التدابيرين من خلال رفضهم امتنال الأمر.

إنهم لم يجهزوا جيشاً، وبقوا هناك على مقربة من الرسول (ص) يتبعون مجريات الأمور. كان عمر يسترق السمع عن طريق عائشة في حين هرب أبو بكر إلى منزله بالسنج^{٣١} بل إن عمر بن الخطاب ظل رافضاً لإمارة أسامة، على الرغم من تشكيت الرسول (ص) بها عندما قال: "لعن الله من تخلف عن جيش أسامة" ^{٣٢}.

وذكر بن جرير الطبرى في تاريخه، إن عمر بن الخطاب طلب من أبي بكر أيام خلافة هذا الأخير، عزل أسامة بن زيد. بل إنه أحياناً يواجه بها أسامة وكأنه يجتر

^{٣١} الكامل ج ٢ ٣٢٣

^{٣٢} الملل والنحل ج ١ ص ٢٣ ط مصرية.

شيئاً ما وجده في نفسه من ذلك الاختيار عندما كان يلقى أسمة بن زيد فيقول له:

(السلام عليك ايها الامير) ، ويقول :

"مات رسول الله وأنت على أمير" ^{٣٣}.

لقد كان - إذن - وجودهما في المدينة خطراً على الرسول (ص) وعلى (ع) لذلك بادر الرسول (ص) إلى محاصرتهم بأسلوب آخر أوضح للعيان بأن يعهد بشكل جلي ونهائي يكشف فيه عن الخليفة الشرعي من بعد.. غير أن عمر بن الخطاب الذي كان يتتجسس على كل ما يصدر عن الرسول (ص) بادر إلى منع الناس من إحضار الكتاب والدواة للرسول (ص) لكتابه العهد ولم يكن لمنع عمر للناس عن إحضار الدواة دلالة غير أنه خاف من أن يكون واضحاً للجميع ليسهل عليهم بعد ذلك مزاولة التلبيس.

وقد عرف ذلك برببيه يوم الخميس كما يقول ابن عباس، لقد قال لهم الرسول (ص):

"إئتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لن تصلوا بعده أبداً. فقال عمر بن الخطاب: إن الرسول يهجر" ، وقال (حسبنا كتاب الله) ^{٣٤}.

لقد أفشل عمر بن الخطاب ذلك التدبير، وسكت الرسول (ص) بعد أن تبين له عدم جدواً كتابة العهد الأخير.

ولنبقي الآن في إطار حديثنا عن السياق الذي تحرك فيه تيار الاغتصاب، وكيف أن النفاق كان على ضربين، أحدهما مثله تيار الاغتصاب والآخر مثله التيار الأموي.

^{٣٣} السيرة الحلبية (٢٣١/٣) و مختصر تاريخ دمشق (٢٥٢/٤) و كنز العمال (٢٧١/١٣)

^{٣٤} البداية والنهاية (٢٢٧/٥) وطبقات أبن سعد (٢٤٢/٢) و تذكرة السبط (٩٦٥) و مسند أحمد (٢٢٢/١ و ٣٢٥ و ٣٥٥) و صحيح البخاري (١٤٤٥/٤٥٤ و ٤٥٥/٣) و مسلم (١٦٣٤-١٦٣٢) و شرح النهج (٥٥ و ٥٤/٢) و تاريخ الطبرى (١٩٣ و ١٩٢/٣) و الملل والنحل (٦) و الكامل (٣٢٠/٢).

وعندما انتقلت روحه الشريفة، وعلي (ع) منهمك في تغسيله.. لم يكن آئن أبو بكر في المقام.

لقد ذهب إلى السنج، في حين قام عمر بن الخطاب على عادته ببلبة الناس. وأظهر نوعا من الجنون ليدخل الناس في موضوع جانبي، ويثير الغوغاء حتى لا يعطي للناس فرصة في الالتفات إلى من يخلف رسول الله.. ولكم قيل له إن الرسول (ص) قد مات، ولكم قرأت عليه الآية التي قرأها عليه أبو بكر، فما زاده ذلك إلا إصرارا على تظاهره بالجنون وعدم الوعي حتى إذا جاء أبو بكر وذكره بما سبق أن ذكره به الآخرون، استكان بشكل يثير الشك في أمرهما.

أخذ عمر يهدد بالقتل كل من قال إن محمدا قد مات. ويقول: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي. وأن رسول الله ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل مات، والله ليرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجل من يزعمون أن رسول الله مات.

وعندما قرأ عليه عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم في المسجد: ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم. ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين ﴾.

ولم يكن ذلك ليرد بن الخطاب عن تشويشه للمسلمين. وقد خرج العباس فيما يرويه بن سعد في طبقاته وكذا أنساب البلاذري، خاطبا في الناس معلنا موتة.

وكان عمر بن الخطاب كما ذكروا في حالة من الهوس والهذيان: "فما زال عمر يتكلم حتى أزبد شدقاه".

فلما أقبل أبو بكر جلس عمر بن الخطاب وسكت عندما كان أبو بكر يتلو الآية التي تليت عليه فما ردته عن تهديده للناس. فقال عندها:

”أيقت بوفاته الآن، وكأني لم أسمع هذه الآية“ ^{٣٥}.

ولا يغيب على حاذق مثل هذه الفبركات. إذ لو أن شديه أزبد الجنة أصابته لفراق النبي (ص) أو مس لحقه حسرة على رحيل الرسول (ص) لما سكت عند قドوم صاحبه أبي بكر. ولما هرع إلى السقيفه لكي لا تفوته الخلافة ولكن أجدر بمن أصابته تلك الجنة ولحقه ذلك المس، أن يحضر جنازة الرسول (ص) وذكر صاحب كنز العمال ” وأن أبا بكر وعمر لم يشهدا دفن النبي (ص) ”.

وفي حديث عائشة كما نقله بن هشام وابن كثير وأحمد بن حنبل: ” ما علمنا بdeath الرسول حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل ليلة الأربعاء ”.

لقد احتفظ كل من أبي بكر وعمر بوجودهما في المدينة. ولم يعطوا اهتماما لوفاة الرسول (ص) كما تقدم. بل كان همهمما أن يجادلا الأنصار على الخلافة ويطرحا نفسيهما أوصياء على الأمة في غيبة أهل الرأي ورغمما عن رغبة كبار الصحابة.

^{٣٥} الملل والنحل (٧) وشرح النهج (١٧٩/١) والبداية والنهاية (٢٤٢/٥) وطبقات ابن سعد (٢٦٦/٢) ومستند أحمد (١١٨/٣)

نتيجة المدخل

نستخلص من هذه المقدمة السريعة أن النفاق ظل موجوداً في المجتمع الإسلامي إلى ما بعد وفاة الرسول الأعظم (ص) ويشكل بؤرة المعاناة اليومية للMuslimين. كما نستخلص أن حركة النفاق في المجتمع الإسلامي لم تكن واحدة. بل كانت عبارة عن فصائل وتيارات تختلف أهواءها ومقاصدها. فهناك من قد دخل الإسلام ليركب متن الصراع. ولن يكون له الأمر من بعد الرسول (ص) وهذا المنطق كان موجوداً يومها في الجزيرة العربية. فعندما عرض النبي (ص) نفسه علىبني عامر بن صعصعة فيما ينقله ابن هشام في السيرة، قال: قال له رجل:

”أرأيت إن نحن بایعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدهك. قال: الأمر الله يضنه حيث يشاء. فقالوا له: أفتهدى نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه“.

لقد أدرك الكثير من العرب، إن دعوة الرسول الأعظم (ص) لها شأن عظيم في المستقبل وإنها لا أقل تبقى صفقة مربحة ما دام يمثلها أعظم شخصية هاشمية. لقد عبر عن ذلك رجل من بنبي عامر بن صعصعة: ”والله لو إني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب“^{٣٦} وهذا إغراء كاف لأولئك الذين افتقروا للرفة والمجد في الجزيرة العربية. فتلك إذن، فرصة لهم لطلب المجد وركوب

^{٣٦} سيرة ابن هشام ص ٧٣ ج ٢

صهوة الدعوة الإسلامية من أجل تحقيق هاتيك المآرب. وإذا كان بنو عامر بن صعصعة ممن قد عبر عنها بتلقائية وأسلوب صريح. فإن هناك من هم أقل شأناً منهم، وأكثر مكراً يندسوا في الحركة النبوية ليتذمروا ما وعدهم به الرسول الأعظم (ص) من فتح قصور كسرى وقيسار.

لقد حارب أبو سفيان رسولي الله (ص) ردها طويلاً من الزمن وكان الكثير من العرب يفضلون انتشار الرسول (ص) ليس انتصاراً للحق الذي جاء به. وإنما انتصاراً لقضيتهم.

فمحمد (ص) أولى لهم من أبي سفيان الذي أذلهم ولهذا لم يكن في المصلحة القبلية أبو بكر ولا عمر. أن ينتصر أبو سفيان الذي يتمنى إلى "قصي" سادة قريش، وهم من تيم بن مرة، وعدى وهم أذل حي في قريش.

وهناك حادثة ينقلها بن هشام في السيرة تعكس ذلك الوجه من الحقيقة.. فقد ذكر أن العباس ركب. بغلة النبي ليلة فتح مكة.. وخرج يبحث عن رسول يوفده إلى قريش فيخبرهم بقدوم النبي (ص) ليأتوا إليه فيستأمنوه. فرأى أبا سفيان فقال له: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك. ثم أرده وأخذه ليستأمن له من النبي (ص) وكلما مر على نار من نيران المسلمين قالوا عم رسول الله (ص) على بغلته حتى مر عمر بن الخطاب. فلما رأى أبا سفيان على عجر الدابة، قال: أبو سفيان! عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله (ص) فركض العباس بالبغلة وسبقه، قال العباس: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله (ص) فركض العباس بالبغلة وسبقه، قال العباس: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله (ص) ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد. فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله، فأخذت برأسه قلت: والله لا ينادي الليلة دوني رجل. فلما أكثر عمر بن الخطاب في شأنه، قلت: مهلاً يا عمر فوالله إن لو كان من رجالبني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت إنه من رجالبني عبد مناف".

إن الإسلام كما فهمه نفر كبير منهم، هو أن يرفع الله به أقواماً ويحط به آخرين. فالقبيلية كانت هي الأساس الذي يقوم عليه شأنهم ويتشكل منه وجدانهم. ويدرك المسعودي إن أبو بكر قد بلغه في أيام حكمه عن أبي سفيان، أمر، فأحضره وأقبل يصبح عليه، وأبو سفيان يتملقه ويتدلل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياغ أبي بكر، فقال لقائده: على من يصبح ابني؟ فقال له: على أبي سفيان، فدنا من أبي بكر وقال له: أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق؟ وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية. لقد تعديت طورك وجزت مقدارك، فقبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار، وقال له: يا أبا، إن الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين.

وذكر بن عساكر في تهذيبه، إن عمر بن الخطاب قدم مكة، فقالوا له: إن أبا سفيان ابنتي دارا، فألقى الحجارة فحمل علينا السيل، فانطلق معهم عمر، وحمل الحجارة على كتف أبي سفيان، فرفع عمر يده وقال: الحمد لله الذي أمر أبا سفيان ببطن مكة فيطعنني.

أما موقف هؤلاء منبني هاشم الذين كانوا حطب النار في كل صراعات المجد. فقد كرهوا لها الخلافة فيما بعد: حق لا يجتمع لها فضل النبوة والخلافة. فعندما قال البعض لعمر: "فما يمنعك منه؟ قال: أكره أن أتحملها حياً ومتاً" ^{٣٧}، وفي رواية لا أجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة ^{٣٨}.

ولقد أدرك بعضهم خلفية تيار الاعتصاب، وواجههم بنفس المنطق. فهذا سعد بن عبادة الخزرجي يرفض بيعة أبي بكر، وتحصل بينه وعمر مشادات كلامية، ويقول له: "لأنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبع" .

وأما أبو سفيان الذي أدرك أن أبو بكر وعمر بن الخطاب ما فعلوا ذلك إلا طلب للرفة: "ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش، والله لئن شئت لأملأها خيلاً ورجالاً" ^{٣٩}.

^{٣٧} الإمامة والسياسة (٤١/١)

^{٣٨} شرح النهج (١٨٩/١)

^{٣٩} تاريخ الطبرى (٤٤٩/٢)

حتى أن أبا سفيان، هذا، الذي كان حريصاً كأشد ما يكون الحرص على هدم الإسلام. وبذل وسعه في إقصاء بنى هاشم. ها هو اليوم يربك الموقف، ويعز عليه أن يتأنى عليه أهل حي إنما هو أحاط حي في قريش. ولإمارة بنى هاشم يومها أحب إليه ألف مرة من إمارة بنى تيم بن مرة وعدى بن كعب. لقد قالها يومئذ: "أما والله لئن بقيت لأرفعن من أعقابهما" ^{٤٠}.

وقد طلب البيعة من علي (ع) ورفض هذا الأخير بيعته لما يدركه منه من نوايا خبيثة.

فهو ما أراد ذلك إلا ليحارب بنعمة قبلية جاهلية. وهي النعمة التي يتتجنب على (ع) القتال بها. وهو من سمع أخاه رسول الله (ص) يقول ليس منا من دعى إلى عصبية"!

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي (ع) لمعاوية: "فأبوك كان أعلم بحقى منك، وأن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشك" ^{٤١}.

وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه معاوية، إذ كثيراً ما رام الحط من الشيختين بطرق مختلفة، ومثال ذلك ما رواه الحمدي في الجمع بين الصحيحين، قال: "قال عبد الله بن عمر: دخلت على حفصة ونسواتها تنظف، قلت: قد كان من أمر الناس ما تبين، فلم يحصل لي من الأمر شيء، فقالت: الحق لهم، فإنهم يتذمرونك، وأخشى أن يكون احتجاسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية فقال: "من أراد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق منه ومن أبيه".

هذا غيض من فيض مما رزح به التاريخ من أدلة قارعة، تكشف عن الواقع القبلي المتدني لتيار الاعتصاب، وكيف كان موقف الرافضيين له. ومما يؤكّد على عدم التفاني العقدي لهذا التيار إنه كان جد حذر من الهزيمة، ومستعد ل بكل الطوارئ في مختلف المعارك الكبرى للإسلام. فكتب التاريخ والسيره تعطينا فكرة

^{٤٠} العقد الفريد (٢٥٧/٤)

^{٤١} العقد الفريد (٣٣٦/٤)

عن موقف أبي بكر في غزوة بدر.

ففي الوقت الذي تقدم فيه كل من علي (ع) وحمزة وعبيدة بن الحرت، يبارزون صناديد الكفر، كان أبو بكر خلفهم قرب الرسول (ص) في العريش الذي أقيم له، يتفرج عليهم.

ويا لها من فرحة! وكان أبو بكر وحده مع الرسول (ص) بالعريش!^{٤٢}.
أما في غزوة أحد، فإن الأمر أشد وأنكر. فلقد انهزم الكثير من المسلمين.
وكان أبو بكر وعثمان ممن فر في هذه الغزوة. ذكر السدي: لما أصيب النبي (ص) بأحد قال عثمان: لألحقن بالشام، فإن لي به صديقا من اليهود، فلآخذن منه أمانا، فإني أخاف أن يداو علينا اليهود، وقال طلحة بن عبيد الله: لآخرجن إلى الشام، فإن لي به صديقا من النصارى، فلآخذن منه أمانا، فإني أخاف أن يداو علينا النصارى.

وذكر السدي: " فأراد أحدهما أن يتهود، والآخر أن ينصر. قال: فأقبل طلحة إلى النبي (ص) وعنده علي، فاستأذنه طلحة في المسير إلى الشام، وقال: إن لي بها مالا آخذه ثم انصرف، فقال النبي (ص): عن مثلها من حال، تخذلنا وتخرج وتدعنا، فأكثر على النبي (ص) من الاستئذان، فغضب علي وقال: يا رسول الله، إئذن لابن الحضرمية، فوالله لأعز من نصره، ولأذل من خذله، فكف طلحة عن الاستئذان عند ذلك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ ويقول الذين آمنوا: أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم، حبطت أعمالهم ﴾^{٤٣} يعني أولئك يقول: إنه يحلف لكم إنه مؤمن معكم فقد حبط عمله بما دخل فيه من أمر الإسلام حتى نافق فيه " ^{٤٤} .

يقول بن خلدون في تاريخه: " وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ونزل: ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم ﴾^{٤٥} " وكان منهم عثمان

^{٤٢} تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٤١٦.

^{٤٣} المائدة / ٥٣.

^{٤٤} تفسير الخازن ج ١ ص ٥٠٣ وتفسير ابن كثير ص ٦٢ ج ٢

^{٤٥} سورة آل عمران (آل عمران آية ١٥٥)

بن عفان بن أبي عقبة الأنصاري ”.

و يوم الخندق لما سكت كل منهم ولم يجب طلب عمرو بن عبد ود العامري، وكانت ستكون هزيمة نكراء لو لم ينهض إليه علي بن أبي طالب (ع) حتى قال الرسول (ص):

(برز الإيمان كله إلى الشرك كله) ^{٤٦}.

وقال ايضاً : (للمبارزة علي بن ابي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي الى يوم القيمة) ^{٤٧}.

وقال (قتل علي لعمرو بن عبد ود افضل من عبادة الثقلين) ^{٤٨}.

وعندما أراد الرسول (ص) فتح خيبر، أعطى أبا بكر الراية فلم يفتح ورجع منهزم، وأعطاهما بعد ذلك عمرا فرجع منهزم ما يجنبه أصحابه ويجبونه حف أطعها في الثالثة عليا (ع) ففتحت على يده وقال (ص): ”لأعطيك الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، كرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله له“ ^{٤٩}.

فهذا إن دل فإنما يدل على مدى حرص هذا التيار على الحياة، والابتعاد عن أي موقف يهدد حياتهم. فهم لا يطلبون الشهادة بقدر ما كانوا يطلبون امتيازات المستقبل، وهو ما يفسر فرارهم يوم الزحف.

هذا ما انكشف من سلوك تيار الاعتصاب.

^{٤٦} شرح النهج (٦١/١٩)

^{٤٧} تاريخ بغداد (١٩/١٣) والمستدرك (٣٢/٣) و فرائد السبطين (٢٥٦/١) مقتل الحسين (٤٥/١) و شواهد التنزيل (٩/٢) و مناقب الخوارزمي (١٠٧) و تاريخ دمشق (١٦٩/١) و تفسير الرازي (٣١/٣٢) .

^{٤٨} السيرة الحلبية (٦٤٢/٢-٦٤٣)

^{٤٩} سنن ابن ماجة (١٦٢٧) ح ٥٢٠/١) والبخاري (١٥٤٢/٤) و صحيح مسلم (٢٤٥/٢٥) و حلية الأولياء (٦٢/١) و أسد الغابة (٤٨/٤) و تاريخ السيوطي (١٦٨) و مناقب الخوارزمي (١٦٨) و كفاية الطالب (١٠٢/٩٨) و المصنف (٤٩٧/٧) و (٥٠٠) و كتاب السنة (٥٩٤) و المستدرك (١٠٩/٣) و فرائد السبطين (٢٦٤/١)

وعليه فإن هذا التيار كان يهدف إلى السلطة، وكان يشكل تياراً مستقلاً، لأن همومه، وأهدافه وسلوكيه. كانت تختلف كثيراً عن باقي التيارات التي تشكل منها خط النفاق في المجتمع الإسلامي. لذلك السبب رأينا كيف عمل الرسول (ص) الواسع في إبعادهم عن المدينة يوم جاءه الأجل، وكيف عملوا على إفشال ذلك التدبير.

أما التيار الثاني فهو تيار مستقل له شوكته ومقدراته له أهدافه ومقاصده يميزه عن التيار الأول، إنه كان يمثل الامتداد السري لحركة الشرك في الجزيرة العربية. وكان هذا التيار متمثلاً فيبني أمية، وعلى رأسهم أبو سفيان وبنيه!. وحسبنا من ذلك شهادات تاريخية ثبت بقاء أبي سفيان وابنه معاوية على الشرك.

فقد روى ابن الزبير قال: "كنت مع أبي باليرموك وأنا صبي لا أقاتل، فلما أقتل الناس نظرت إلى ناس على تل لا يقاتلون، فركبت وذهبت إليهم وإذا أبو سفيان بن حرب ومشيخة من قريش من مهاجرة الفتح، فرأوني حدثاً، فلم يتقوني، قال:

يجعلوا والله إذا مالت المسلمين وركبتهم الروم يقولون: "إيهبني الأصفر" فلما هزم الله الروم أخبرت أبي، فضحك، فقال "قاتلهم الله أبوا إلا ضغنا، لنحن خير لهم من الروم" .^{٥٠}

وفي أيام عثمان جاء أبو سفيان إليه وجماعة من أقاربه وقال: يا عشربني أمية! إن الخلافة صارت في تيم وعدي حتى طمعت فيها، وقد صارت إليكم فتلقوها بينكم تلقوها الكروة: فوالله ما من جنة ولا نار" .^{٥١} وذكر صاحب شرح النهج، "إن أبي سفيان مر بقبر حمزة، وضربه برجله وقال: "يا أبا عمارة! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس صار في يد غلامنا اليوم يتلعبون به" .

^{٥٠} / أسد الغابة ص ١٤٩ ج ٥ هـ ١٤٠٩ م ١٩٨٩ م

^{٥١} الأغاني / أبي الفرج الأصفهاني ج ٦ ص ٣٥٥ - ٣٥٦

وذكرها أيضاً، إن رسول الله رأى يوماً معاوية وعمرو بن العاص يسيران في

غزوة تبوك فقال لأصحابه:

”إذا رأيتموهما اجتمعوا ففرقوا بينهما، فإنهما لا يجتمعان على خير أبداً“^{٥٢}.

وفي رواية أحمد بن حنبل في المسند، رفع الرسول (ص) يديه فقال ”اللهم اركسهما في الفتنة ركساً، ودعهما إلى النار دعا“.

وحسبك ما فاضت به كتب الأخبار من أيامهم، يوم حولوها إلى ملك عضوض، وملؤوها ظلماً وفجوراً. وحسبك أيضاً ما مر علينا من قول حفيدهم يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، لما امتنلها صريحة:

لعت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل^{٥٣}.

^{٥٢} العقد الفريد (٣٤٦/٤).

^{٥٣} مسند أحمد (ج ٤ ص ٤٢١).

النفاق والنهاية المفتعلة!

هناك لفتة عجيبة في التاريخ الإسلامي. جديرة بأن تثير عقول الباحثين.

وهي تلك التي تتصل بواقع حركة النفاق في مجتمع الرسول (ص)، وعن تلك النهاية المزعومة، والمفتعلة للنفاق بشكل يدفع إلى طرح السؤال حول ما إذا كانت هناك نهاية فعلية للنفاق أم أن هناك تأسيس جديد لهذه الحركة.

إن النفاق ظل موجوداً في حياة الرسول (ص) ويشكل الحدث البارز بعد الفتح الإسلامي، غير أنه سرعان ما اختفى الحديث عن النفاق والمنافقين بعد استباب الحكم لتيار الاعتصاب.

لم يعد هناك حديث يتناول مشكلة النفاق ولا أبناء تتعرض لأعمال المنافقين.

فهل هذا يعني إن موت الرسول (ص) سينهي تلقائياً حركة النفاق؟! أم أن تيار الاعتصاب كان من مصلحته تغيب هذا الاهتمام وبأن يتواضع على توازنات معينة مع باقي الفصائل المنافقة؟!.

إن هذا السكوت المفاجئ عن ظاهرة النفاق وتحويل الأنظار إلىبني هاشم لا دلالة له غير ما حدث من اتصال واتفاق بين فصائل تيار الاعتصاب وما رأب باقي الشرائح المنافقة. فهل يعقل أن المنافقين لم تكن حكمة الرسول الأعظم ونبليه وعصمه بالذى يزكي ويربى هؤلاء المنافقين على الإسلام. حتى يأتي أبو بكر وعمر وعثمان فيحسن إسلامهم آنذاك. في حين نجد القرآن ينبئ الرسول (ص) حتى

آخر عهده بكثرة المنافقين وعن دسائسهم المنكرة.

﴿ والأعراب أشد كفرا ونفاقا ﴾^{٥٤}

﴿ ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ﴾^{٥٥}.

﴿ ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم ﴾^{٥٦}.

فالنبا القرآني يخبر عن ظاهرة خطيرة ومنتشرة في المجتمع. كيف تمحي بسرعة فور رحيل النبي (ص) ولأن طبيعة النفاق دائمًا من التكتم بحيث لا تتمكن من ضبط حقيقتها.

أشار القرآن إلى مظاهرها وسلوك أصحابها، وعمل على فضحهم، تمشيا مع أدب الرسالة النبوية التي تحكم على الظاهر وتحتفظ بالعلم في أمور الباطن. لقد عرفهم بسيماهم في لحن القول، والتخلف عن الجهاد، ونشر البلبلة والإشاعة، وموالات المشركين. هذه الصفات لو طبقناها على كثير منهم، لاستطعنا اكتشافهم عن آخرهم وبسهولة يقل لها نظير، فكثير ممن سموا بعدها صحابة، كانوا متخلفين عن الجهاد، وموالين للمشركين ويلحقون في القول. ومبغضين لعلي بن أبي طالب (ع) الذي قال فيه الرسول (ص) كما تقدم " لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق "!

^{٥٤} التوبه - ٩٧.

^{٥٥} التوبه - ١٠١.

^{٥٦} التوبه - ١٠١.

الشيخان ومشكلة النفاق

كثيراً ما افتقد المحققون الجرأة في تناول هذا الموضوع رغم ما يقفون عليه من وثائق دامجة تثير الشك في الأذهان.

هل كان هناك ما يجمع بينبني أمية والخلفاء أو الشيختين بشكل خاص؟. هذا السؤال حيرني كثيراً. و كنت أعتقد بأنني برعا في هذه الحيرة الممملة. لكن فاجأني أن عثرت عنم يشاركتي هذه الحيرة، من دون أن يغمض فيها كل دلاءه. كان ذلك هو الأستاذ المحترم محمود أبو رية، عندما تأسّل في طيبة خاطر، وحسن نية، في كتابه "أبو هريرة" عن طبيعة هذه العلاقة وسوف أذكر نصه هنا: " مما يدعو إلى الملاحظة هنا إننا لم نجد عمر رضي الله عنه إنه قد اتبع هذه السنة مع معاوية بن أبي سفيان، فقد أبقاءه عاماً على دمشق سنتين طويلة ولم يزعجه بالعزل كغيره - وكان ذلك مما أعاد معاوية على طغيانه، وإن يحكم حكماً في مصرية طوال أيامه، وبخاصة بعد أن استولى على الشام كله في عهد عثمان، ثم امتد هذا الطغيان الأموي إلى ما بعد معاوية حتى تسلّم العباسيون الحكم. وأمر آخر يستوجب الملاحظة، ذلك أن عمر لم يكن هو الذي ولّى معاوية على دمشق وإنما الذي ولّاه هو أخوه يزيد بن أبي سفيان. ولما ذلك أنه لما فتحت دمشق في عهد عمر أمر عليها يزيد بن أبي سفيان. ولما احتضر يزيد، استعمل أخاه معاوية مكانه من غير أن يستشير عمر على ذلك".

ثم ينهي قوله: "فهل جعل عمر دمشق من نصيببني أمية فأمر عليها في أول الأمر يزيد بن أبي سفيان ثم رضي بأن يعهد يزيد هذا بالإمارة إلى أخيه معاوية بغير أن يرفع في ذلك إليه؟ وهل فعل عمر ذلك ليتألفبني أمية ولি�تقى كيدهم ومكرهم، وهم قوم أهل شر ومكر وكيد؟ أم أن هناك أسبابا أخرى دعت إلى ذلك!.

هذا ما لا علم لنا به! وإنما الذي يعلمه هو علام الغيوب ^{٥٧}.

وليس فيما أحده من موقف الأستاذ الجليل، سوى تخوفا من الخوض في مثل هذه الموضوعات إذ يصعب على أستاذنا الجليل موضعية عمر بن الخطاب والبحث في أحواله. فهو أحد العمالقة الذين جعل منهم تاريخ العامة، الذات المتعالية التي تند عن التحليل والنقد.

ولقد سبق أن أكدنا في كتاب "الإنقال" على ذلك لإظهار ما في الأمر من تناسب. لقد ذكرنا ما قام به عمر بن الخطاب من تأميربني أمية على أصقاع واسعة، واعتبرت ذلك بمثابة حالة من السطحية السياسية "لأنبني أمية لم يكونوا مكتوفي الأيدي بعد أن كانوا طويلبيها في زمن البعثة. وليس بنو أمية عناصر ساذجة، وإنما هم جهاز وحالة قابلة للنشوء في كل لحظة، فتأميرهم لا يعني سوى صب مزيد من النفوذ في جعبتهم، ولقد قووا في زمن عمر بن الخطاب ^{٥٨}. ولكنني أحببت استدرك ما كنت ذكرته هناك، لأن المسألة ظهر لي فيها مزيدا من الوضوح.

لقد قلت بأن عمر "كان يحاسب الأمويين حسابا عسيرا، لكنه في نفس الوقت يؤمرهم على أصقاع وسعة" الواقع، إنه لم يكن يحاسبهم حسابا عسيرا على الإماراة وإنما كان يفعل ذلك معهم في قضايا صغيرة مثل ذلك الذي تقدم. يقول الزمخشري في ربيع الأبرار: "وكانت إماراة معاوية عشرين سنة ولاه عمر بن الخطاب الشام، وحاسب عماله إلا معاوية".

^{٥٧} أبو هريرة / محمود أبو رية ص ٨٧

^{٥٨} الإنقال الصعب / ص ١٦٣ / المؤلف.

وهذا رد على ما سبق مني، لأنني حتى تلك اللحظة، كان لا يزال يخامرني ما خامر الأستاذ أبا رية من قبل من تردد بهذا الشأن. وهو في نفس الوقت رد عليه، لما ادعاه من أن عمر بن الخطاب لم يولي معاوية مباشرة على الشام كما سنو سمه. والآن وقد حصحص الحق، وانكشف الستار. كيف كانت العلاقة وما هي خلفياتها الحقيقية؟.

لقد واجه تيار الاغتصاب بعد أن تقلد زمام الأمور كتلتين:

الأولى: كتلة بنى هاشم.

والثانية: كتلة التيار الأموي.

فما أن غاب الرسول (ص) حتى نهض بن الخطاب إلى السقيفة يطرح رفيقه على رؤوس الصحابة.

وبعدها عمل على إكراه من كان معتصماً ببيت فاطمة بنت الرسول (ص) بعد أن هم بحرق بيتها. وما كان أيضاً من أمره في منع فاطمة إرث أبيها حتى ماتت وهي غاضبة عليه وعلى رفيقه أبي بكر. إلى ما هناك من أمثلة سوف نتطرق إليها فيما بعد.

إن هذه العداوة كانت تشكل خطراً على عمر. وهو لا يزال وزيراً لأبي بكر. كيف يكون له الأمر بعد أن استتب لهما الأمر في السقيفة، على نحو فلتة قال عنها عمر نفسه:

”وقانا الله شرها“.

ومن جانب آخر، تبين بأن التيار الأموي الذي يمثل امتداداً للشراك في الجزيرة العربية كان هو أيضاً له نفوذ داخل المجتمع، وحضور قوي. وأدرك الشيخان أن دخولهما في صراع مع التيار الأموي سوف يثير عليهما مشاكل خطيرة. وهما من يعلم مدى نفوذ هذا الفصيل في المجتمع، وقد سمعاً أبا سفيان يقول بعدها: أاما لو شئت لأملأنها خيلا ورجالا“^{٥٩} وقال: ”أما والله

^{٥٩} تاريخ الطبرى (٤٤٩/٢)

لئن بقيت لأرعن من أعقابهما " ٦٠ .

ومما يدل على قوة الفصيل الهاشمي والفصيل الأموي. واهتمام الشیخان بهما كعدوين لخلافتهما. ما ذكره البلاذري في الأنساب، قال أبو قحافة عندما بلغه نبأ وفاة الرسول (ص) وهو بمكة: " فمن ولی أمر الناس بعده، قالوا له: ابنك، فقال أرضي بذلك بنو هاشم وبنو عبد شمس وبنو المغيرة؟".

قالوا: نعم، قال: فإنه لا مانع لما أعطى الله ".

ولقد أحس الشیخان بخطورة هذا الفصيل، وخشيا أن يتم تضامن بين الفصيلين بنو هاشم وبنو أمیة للعمومة التي بينهما. خصوصا بعد أن سمعوا من أبي سفيان ما سمعوه من بيته لعلي وتحريضه لبني هاشم، واستئذنهم في نصرتهم. وإنه في هذه الفترة لم يكن أبو سفيان عن نفسه وعشيرته بنو أمیة، وإنما كان يقول "إنما هي بني عبد مناف ".

ليستدرج بذلك بنی هاشم إلى القاعدة العشائرية، أنا وابن عمی على الغريب!

ذكر بن عبد ربه "توفي رسول الله (ص) وأبو سفيان غائب في مسعاه، أخرجه فيها رسول الله (ص) فلما انصرف لقي رجلا في بعض طريقه مقبلا من المدينة. فقال له: مات محمد؟ .

قال: نعم.

قال: فمن قام مقامه.

قال: أبو بكر.

قال أبو سفيان: لماذا فعل المستضعفان علي والعباس. قال: جالسين.

قال: أما والله لئن بقيت لهما لأرعن من أعقابهما، ثم قال:

إنني أرى غيرة لا يطفئها إلا دم "٦١ .

ومن هنا، وخوفاً من أن يتم اللقاء والتحالف بين الفصيلين على مواجهة الشيختين، حاول عمر اللعب بكل الأوراق وأن يبادر هو إلى التحالف معبني أمية من أجل محاصرة بنى هاشم. فلذلك عمل فوراً على تفويت الإمارة إليهم. ويدرك الطبرى في تاريخه، إنه لما استخلف أبو بكر، قال أبو سفيان مالنا ولأبى فصيل، إنما هي بنو عبد مناف، فقيل له إنه قد ولـى ابنك قال: وصلته رحم.

وجاء في تاريخ بن خلدون:

"ثم جاء عمر فرمى بهم الروم، وأرغب قريشاً في النفير إلى الشام، فكان معظمهم هنالك، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عمواس سنة ثمانين عشرة، فولى مكانه أخاه معاوية وأمره عثمان من بعد عمر، فاتصلت رياستهم على قريش في الإسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولا ينسى عهدها أيام شغل بنى هاشم بأمر النبوة" ٦٢ .
كما ذكر المسعودي: "ولما أنفذ أبو بكر الأمراء إلى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان وهو مشيع له" ٦٣ .

لقد امتدت جسور الخلفاء مع شريحة النفاق... تداخل يوضح مدى تناغم المؤامرة في منعرجاتها كلها بشكل يثير الشك ويوقع في الاستفهام. وبذلك أسدل الستار على المنافقين، وانتهى الحديث عنهم. وتلك أهم خدمة قدمها الخلفاء لبني أمية الذين كانوا يضيقون ضرعاً ويجدون ضغناً لما يروجه المسلمون فيما بينهم من أمر المنافقين! كانوا يتroxون العمل في السر. والعمل على استغفال المسلمين.

من هنا بدأت عملية مـد الجسور مع مختلف المنافقين، من أجل دعم مكاسبـهم. وفي مقابل ذلك السـكوت عن إثارة قضـيتـهم في المجتمع.

^{٦١} العقد الفريد (٢٥٧/٤) وتاريخ الطبرى (٢٠٩/٣) وشرح النهج (٤٤/٢)

^{٦٢} تاريخ بن خلدون ص ٤ ج ٣.

^{٦٣} مروج الذهب ٣٠٩ ج ٢

لقد غضب الرسول (ص) وهو على فراش الموت، وكان الحزن يعتصر قلبه الشري夫 طيلة الأيام التي سبقت وفاته (ص) فهو مرة قد يرى رؤية يكتشف منها محنـة أهل البيت (ع) واغتصاب الخلافة من أهلها، لقد رأى (ص) بنـي الحكم يومـا ينزلون على منبره فـسـأـهـ ذلكـ فـمـاـ استـجـمـعـ ضـاحـكـاـ حتـىـ مـاتـ وـأـنـزـلـ اللهـ فـيـ ذـلـكـ: ﴿وـمـاـ جـعـلـنـاـ الرـؤـيـاـ التـيـ أـرـيـنـاـكـ إـلـاـ فـتـنـةـ لـلـنـاسـ﴾^{٦٤}.

لقد أدرك المسلمون منذ البداية، أهمية العداوة بين الإسلام وبني أمية، وكانوا أشد حذرا منهم. ولكن الخلفاء ما فتووا يسخون عليهم بالإمارات. ولعمري، إن معاوية لم يكن له من الشأن في بلاد الشام، ولا تلك الشوكة لولا ما مكن له فيه عمر بن الخطاب.

إن معاوية الذي كان مطعونا في دينه - حسب بن أبي الحديد - والذى لم يسلم إلا بعد الفتح خوفا من القتل. يؤمره عمر على الشام، ولم يزحـهـ عنها منذ ذلك الوقت.

فهل كان ذلك تأليفا من عمر بن الخطاب لقلوب المنافقين. حتى نعود إلى طرح نفس السؤال السابق؟ إذن، كان أخرى وأجدر أن يؤلف بن الخطاب قلب فاطمة (حاشاها) في حق أبيها.. ويؤلف قلوب الصحابة الكبار بنفس السخاء. ولكن أولى له فأولى أن يؤلف قلب سعد بن عبادة الخزرجي (رض) بدل التـآـمـرـ عـلـىـ قـتـلـهـ!.

بالإضافة إلى هذين الفصيلين. هناك فصيل غير منظم. مـثلـهـ عـنـاصـرـ مـتـفـرـقـةـ، تحـكـمـهـاـ التـزـعـةـ الفـرـديـةـ، وـالـرـوـحـ الـأـنـهـاـزـيـةـ. هـؤـلـاءـ لـمـ يـكـنـ لـهـمـ تـأـثـيرـ كـبـيرـ عـلـىـ المـشـرـوعـ الـنـبـويـ. نـظـرـاـ لـكـوـنـهـمـ غـيـرـ اـسـتـرـاتـيـجـيـنـ. وـهـمـ عـمـومـ الـطـلـقـاءـ مـنـ غـيـرـ بـنـيـ

أـمـيـةـ أـولـىـكـ الـذـيـنـ اـرـتـبـطـواـ بـمـعـاـوـيـةـ وـغـيـرـهـ طـمـعـاـ فـيـ الـمـنـاصـبـ وـالـأـمـوـالـ، كـعـمـرـ وـ

بـنـ الـعـاصـ، وـأـبـيـ هـرـيـرـةـ، وـسـمـرـةـ بـنـ جـنـدـبـ.

وعـلـيـهـ سـوـفـ نـسـمـيـ هـؤـلـاءـ الـأـصـنـافـ كـالـتـالـيـ:

تيـارـ النـفـاقـ، وـهـوـ الـتـيـارـ الـذـيـ يـجـمـعـ كـلـ الـفـصـائـلـ الـتـيـ حـارـبـتـ التـوـحـيدـ، أـوـ

^{٦٤} القرطبي للتفسير / ج ١٥ ص ١٨٦.

دخلت الإسلام بحثاً عن أهداف غير التوحيد. وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

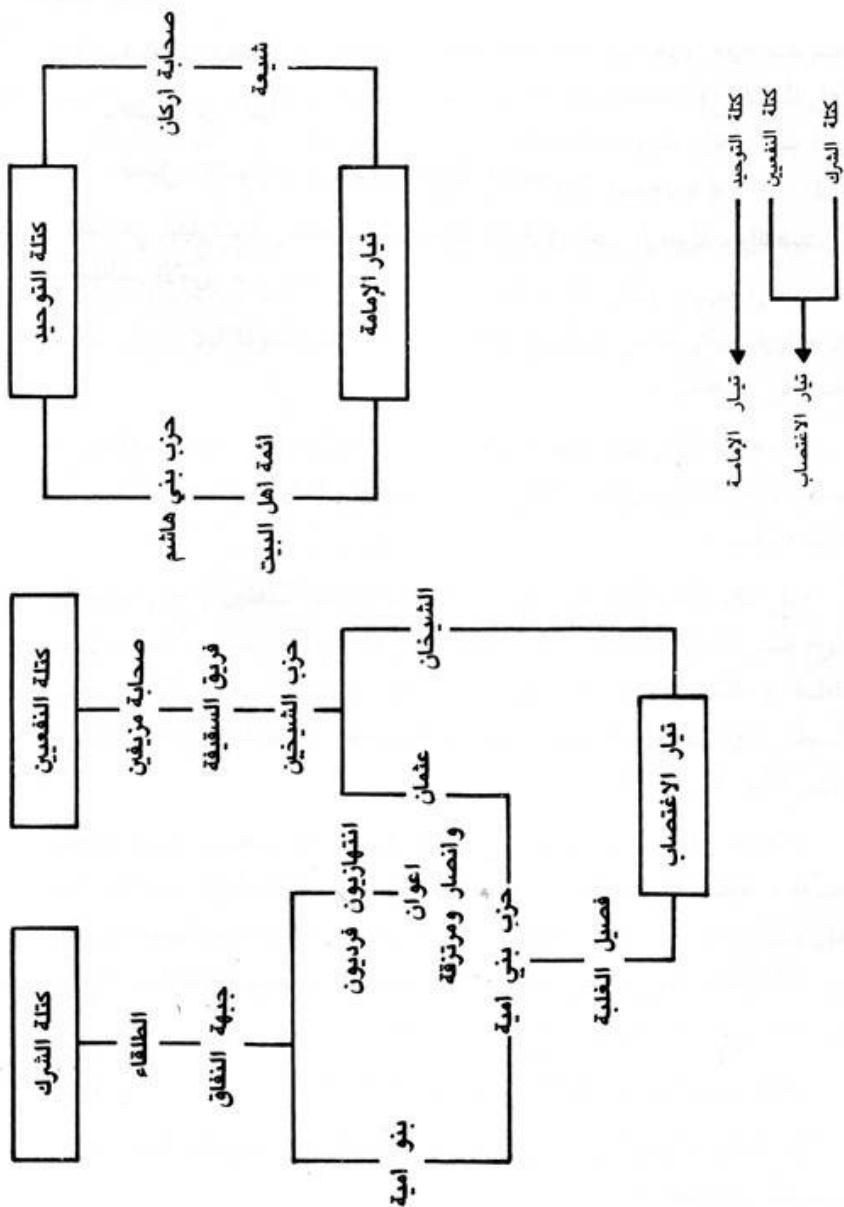
١ - فرقة السقيفة.

٢ - فصيل بنى أمية.

٣ - فصيل الانتهازيين، ومنهم أعون الخلفاء.

تلك هي التيارات التي تشكلت منها حركة النفاق في عصر الرسول.

وانقضت على مقاليد الأمور من بعده.



الباب الأول

الخلفاء الراشدون ... حبكة مفتعلة!

الفصل الأول

الاصطلاح والمفهوم

تنطوي عبارة الخلفاء الراشدون على معنيين اثنين. أحدهما لغوي، والثاني، اصطلاحي.
أما لغويًا، فإن عبارة: "الخلفاء الراشدون" : إذا فككنا تركيبها، ونظرنا لغويًا في المفردتين المكونتين لها، نجد ما يلي:
خلفاء، خليفة من الخلافة.. وهي لغة تعني النيابة.. و الخليفة الرجل، من يقوم مقامه.. وفي القرآن. ﴿إِن يَشَاءُ يَذْهِبُكُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ مِّنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾^{٦٥}.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ﴾^{٦٦}.
﴿وَذَكَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمٍ نُوحَ﴾^{٦٧}.
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِقَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^{٦٨}.
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^{٦٩}.

^{٦٥} الأنعام. ١٣٣.

^{٦٦} الأعراف. ١٦٩.

^{٦٧} الأعراف. ٦٩.

^{٦٨} يونس. ١٤.

^{٦٩} البقرة. ٣٠.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾^{٧٠}.

أما لفظة "الراشدون" جمع راشد. صفة للنضج والحلم والعقل.

أما في المصطلح فإن الخلفاء جمع خليفة مشتقة عن مصدر خلافة.. وهي النيابة، والقيام مقام الرسول (ص) بعد وفاته، وتمثل كل مهماته كحمل الناس على الطاعات وتنفيذ حكم الشريعة.

والخلفاء الراشدون هم جماعة تلي الأمر بعد الرسول (ص) ويكون هديها من صميم هدي الرسول (ص).

في الاصطلاح الذي تواضع عليه العامة فيما بعد، أصبحت كلمة "الخلفاء الراشدون" تطلق على أشخاص معينين. هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. وقد طال الأمد على العامة إلى أن قسى قلبها وتحجر على هذا الاصطلاح، رغم ما يعتريه من تعسف على الواقع التاريخي، ومفاد النص، اللذين تأكّد من خاللهمما الخلفية السياسية لهذا الاصطلاح.

فتاريخيا لم يكن اسم خليفة متداولا في عصر الرسول (ص) بمعناه الاصطلاحي إلا في شخص علي (ع) وذلك للأدلة التي ذكرناها آنفا، كحديث يوم الدار^{٧١}. وكان أبو بكر قد سمي نفسه "خليفة رسول الله" وكتب بذلك إلى الأطراف^{٧٢}.

فكان يكتب من خليفة رسول الله، وكان عمر يكتب: "من خليفة خليفة رسول الله".

وكان قبل ذلك يقال له: "خليفة خليفة رسول الله، فعدلوا عن تلك العبارة لطولها"^{٧٣}.

وكان أبو بكر في البداية يتحرّج من الجهر بها، ويضطرب من أمرها. فقد جاء

^{٧٠} سورة البقرة.

^{٧١} تفسير الطبرى / ج ١٩ ص ٧٤.

^{٧٢} الصواعق المحرقة / ص ٩٠

^{٧٣} تاريخ السيوطي ١٣٧

في لسان العرب عن ابن الأثير إن أعرابيا جاء أبا بكر وقال له: أنت خليفة رسول الله؟.

فقال: لا.

فقال: فما أنت؟.

قال: أنا الخالفة بعده.

قال ابن الأثير، الخالفة: الذي لا غناء ولا خير فيه. وإنما قال ذلك تواضعا.

ولست أدرى على أي وجه اعتبرها ابن الأثير كذلك. وهل من التواضع أن يصف الإنسان نفسه بالحمق والنفاق وهو في مقام الخلافة. وذلك هو ما ذهب إليه العسكري في الأوائل من معنى "خالف" إذ يقول: "وأما الخلافة بالفتح فالحمق وقلة الخير، رجال خالف، وفي القرآن الكريم: ﴿فَاقْعُدُوهُمْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾" ^{٧٤}.

قال أبو زيد: "يعني من لا خير فيه من المنافقين" ^{٧٥}.

وكان المفهوم اللغوي لكلمة خلافة هو الجاري به العمل أيام الشيختين، لما تقدم من تسمية عمر لنفسه خليفة خليفة رسول الله، وتركها لاستقالتهم طولها. ولو أنها كانت تعني المفهوم الاصطلاحي، لكان سمي أبو بكر إماما، وأميرا للمؤمنين نظرا لتدخل معاني هذه الكلمات في الاعتبار الشرعي والاصطلاحي. فكلمة إمام وأمير المؤمنين لم تكن متداولة اصطلاحيا إلا في شخص علي (ع) سواء في زمن الرسول (ص) أو بعده كما تقدم ويعزز ذلك ما أكده المؤرخون من أن أول من سمي، نفسه أمير المؤمنين من الخلفاء بعد وفاة الرسول (ص) هو عمر بن الخطاب. وكان عدي بن حاتم أول من سماه بها حسب المسعودي، وأول من سلم عليه بها، المغيرة بن شعبة. وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر، أبو موسى الأشعري. فلما قرأها على عمر قال: "إني لعبد الله وإنني لعمر وإنني لأمير

^{٧٤} / ٨٣ سورة التوبة.

^{٧٥} الأوائل : ١٠٠

المؤمنين، والحمد لله رب العالمين ^{٧٦} .

وذكر العسكري في أوائله: "إن أبا بكر كان يكتب من خليفة رسول الله حتى كتب عمر إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين يسألهما عن العراق وأهله، فبعث لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم، فقدموا المدينة ودخلوا المسجد، فوجدا عمرو بن العاص فقالا: أستأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال: أنتما والله أصبتما اسمه فدخل على عمر، فقال.

السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال: ما بدا لكم في هذا التخرج مما دخلت فيه فأخبره، وقال: أنت الأمير ونحن المؤمنون، فجرى الكتاب بذلك من يومئذ في كلام هذا معناه ."

وكان من الصعب جدا على فريق السقيفة أن يفوز بهذا اللقب من دون أن يجد حرجا كبيرا.

إذ سبق أن قر في وجдан المسلمين إن الخلافة أمر يقررها النص، لأنها ملزمة للإمارة التي سبق أن أوضحتنا رأي الرسول (ص) فيها منذ البداية عندما عرض نفسه علىبني عامر بن صعصعة قائلا: الأمر لله يجعله حيث يشاء. ولأن الخلافة ظلت من اختصاص الإمام علي (ع) لما استحقها بمؤازرته. فهي اصطلاحا كانت من اختصاصه منذ واقعة الانذار بيوم الدار. ولغن سرعان ما قست قلوب الذين لا يعلمون، فأصبحوا يستسيغونه. وكثيرا ما كان المتزلفون والمنافقون من أعوان المغتصبين، يساهمون في إطلاق هذه الألقاب مجانا على تيار الاغتصاب، وذلك من أجل تفويت ذلك الامتياز على أهله الحقيقيين. هذا فيما يرتبط بكلمة خلافة لغوي واصطلاحيا من وجهة نظر التاريخ.

وجاء في أحاديث العامة ما يؤسس لادعاء جديد في أمر الخلفاء الأربع بعد الرسول (ص) وهو ما أسماه الحديث "الخلفاء الراشدون" معتبرين لفظة "الراشدين" بمثابة ضمية تخصص الأربعة، وتضعهم في المرتبة التشريعية. وذلك وفق ما جاء في الحديث:

^{٧٦} مروج الذهب (٣١٦/٢)

”عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهدىين، تمسکوا بها وعضوا عليها بالنواجد“^{٧٧}.

واعتاد أهل السنة والجماعة أن يعنوا الخلفاء الأربع، كتخصيص لهذا الحديث، وهو ما ذكره صاحب المواقفات عن النبي (ص) ”إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي منهم أربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي“ :

وقبل الشروع في الرد على هذا الادعاء. أرى من الأولى إثارة نقطة حساسة في هذا المقام. فما ثبت عن الرسول (ص) من طريق آخر، إنه حدد معنى الخلفاء من بعده، وجعل صفتهم رواية الحديث والسنة. قال ”اللهم ارحم خلفائي. اللهم ارحم خلفائي. اللهم ارحم خلفائي. قيل له: يا رسول الله، من خلفاءك؟“.

قال: ”الذين يأتون بعدي يروون حديثي وستي“.

فهذا التحديد يعرف بصفة خلفاء الرسول (ص) الذين يعملون على نشر سنته. ويستفاد من ذلك أن سنتهم واحدة بهذا الاعتبار الذي تحدده وحدة المصدر، ووحدة الاتجاه في سنتهم جميعا، باعتبارها واقعة في خط سنة الرسول (ص) فلتنتظر كيف كان موقف الخلفاء ما عدا علي (ع) من السنة والحديث.

جاء في تذكرة الحفاظ، إنه بعد وفاة النبي (ص) جمع أبو بكر الناس، وخطب فيهم قائلا:

”إنكم تحدثون عن رسول الله (ص) أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا، فلا تحدثوا عن رسول الله (ص) شيئا، فمن سألكم فقولوا: يبنتنا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه“.

وكان هذا الإجراء تعسفيا لمنع الرواية ومحاصرة السنة. والإبقاء على القرآن، لكونه حمال ذو وجوه، يسهل عليهم التلبيس والتضليل. ولا عليك من دفاع أهل

التبير من خوف أبي بكر على كتاب الله. وهو الذي منع فاطمة من إرث أبيها لحديث انفرد به.

وهو "لأنورث ما تركتنا" وقد احتجت عليه فاطمة بالقرآن. وأبى عليها ذلك، عندما قالت له: ﴿وورث سليمان داود﴾^{٧٨} ﴿وإني﴾^{٧٩} ﴿خفت الموالي من ورائي، وكانت امرأتي عاقرا، فهب لي من لدنك ولينا * يرثني ويرث آل يعقوب﴾^{٨٠}.

فلو كان كما قال: قولوا بيننا كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه، لما رفض نصا قرآنيا، وتمسك لحديث انفرد به يخالف صريح القرآن.

ومن سيرتهم أيضا في تطويق السنة النبوية، ما ذكر ابن ماجة في السنن، إن قرظة بن كعب قال:

"بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة وشيعنا فمشى معنا إلى موضع صرار. فقال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قال: قلنا لحق صحبة رسول الله، ولحق الأنصار. قال: لكنني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لمشاي معكم. أنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل. فإذا رأكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا: أصحاب محمد! فأقولوا الرواية عن رسول الله (ص) ثم أنا شريككم".

وبلغ من الخوف الشديد من رواية الحديث، أن بعضهم انقطع تماما عن الرواية لما ذكره السائب بن يزيد قال: "صحبت سور بن مالك من المدينة إلى مكة، فما سمعته يحدث عن النبي (ص) بحدث واحد"^{٨١}.

وبلغ أيضا بهم أن منعوا كبار الصحابة عن رواية الحديث خوفا من أن تشيع بعض حقائقه، فجمع عمر الرواة وأقامهم عنده حتى يتمكن من الرد عليهم. كيف لا وهو الذي ألف الرد على الرسول (ص) لقد ذكر عبد الرحمن بن عوف

^{٧٨} ١٦ / سورة النمل.

^{٧٩} ٩ / سورة مريم.

^{٨٠} سنن بن ماجة / ج ١ ص ١٢.

فائلا: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق عبد الله بن حذيفة وأبا الدرداء وأبا ذر وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيت عن رسول الله في الآفاق.
قالوا: تنهانا؟.

قال: لا، أقيموا عندي، لا والله لا تفارقوني ما عشت ^{٨١}.
أما في عهد عثمان فالأمر أشد وأنكر.. إذ قال على المنبر:
" لا يحل لأحد يروي حديثا لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر ".
كان ذلك باختصار هو موقفهم من الحديث والسنن.. فأين حالهم من حال حديث رسول الله (ص) عن خلفائه الراشدين الراوين لأحاديث الناشرين لسننته، فتأمل يرحمك الله!.

وهناك قرينة أخرى تصرف هذا العنوان عن الخلفاء الأربعة بهذا الترتيب.
وهو ما نقله أهل الصلاح من أن الخلفاء الذين أوصى بهم الرسول (ص)
باقتفاء آثارهم.. والذين ربط خير الأمة بإمامتهم. كانوا أكثر من أربعة. لقد ذكر
عليه الصلاة والسلام، اثنا عشر منهم بعد نقباءبني إسرائيل. وتواتر ذلك على
النحو التالي:

قال رسول الله (ص) " لا يزال أمر الناس ماضيا، ما ولهم أثنا عشر خليفة،
كلهم من قريش ^{٨٢} .

وقال (ص) " لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة، ويكون عليهم اثنا عشر
 الخليفة، كلهم من تريش ^{٨٣} ويتبين من خلال هذه الأحاديث أن عدد
الخلفاء اثنا عشر. بينما مدعى الجمهور هو أربعة. ولعل هذا التناقض هو ما دعى
جمعا من العلماء إلى تأويله بشكل يجعل الحديث ينطبق على أكثر من الخلفاء الأربعة

^{٨١} كنز العمال حديث ٤٨٦٦٥ ح ٢٣٩/٥.

^{٨٢} ينابيع المودة (٣٠٧ و ٣٠٨). فرائد السبطين (١٤٨/٢).

^{٨٣} صحيح مسلم (٤/١٠٠ ح ١٨٢١) و (١٠١) . و الصواعق المحرقة (١٨٩) و البخاري
٢٦٤٠ ح ٦٧٩٦ .

وذلك ما رامه بن كثير وابن حجر الهيثمي. إذ اعتبروا الخلفاء الثلاثة وعلى معاوية ويزيد ثم عبد الملك وأولاده الأربعة وسليمان، فيزيد، فهشام. والوليد بن يزيد بن عبد الملك. وهذا لعمري هو التكليف. إذ، هب إننا صدقنا قولهم وادعاءهم. فهل يزيد بن معاوية هو من صلح أمر المسلمين في عهده. هل قتل الحسين (ع) كما جرى في زمن خلافته، هو من صلاح أمور المسلمين. أم معاوية الذي جعل المنابر تشغل بلعن علي (ع) أم الوليد الذي سكر حتى راح يمزق كتاب الله ويرشقه بالنبل قائلاً: أتهددني بجبار عنيد، فها أنذا جبار عنيد.

أفيسقim هذا التأويل الفاسد مع ما وصف به الرسول (ص) خلفاؤه الاثنا عشر.

وقد حاول البعض أن يدس بعض الأسماء. كالذى وضعه البكرية. كما جاء في الصواعق المحرقة بإخراج البغوي، بسنن حسن، عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: "يكون خلفي اثنا عشر خليفة، أبو بكر لا يلبث إلا قليلاً" قال بن حجر في الصواعق، قال الأئمة: صدر هذا الحديث مجمع على صحته. ويكتفى في هذا المقام شهادة الناصبي من أن حديث "الاثنا عشر" ، مجمع على صحته، وإن كان الاجماع فقط على صدره الأول. أي أن الكلام عن أبي بكر هو من وضع الوضاعين.

ثم إن الحديث - حديث الخلفاء الراشدين - ربط خير الأمة بهم. وهذا مناقض لواقع الخلفاء. فوفاة الرسول (ص) أعقبتها أحداث خطيرة ضد المسلمين وتعاليم الإسلام.

وقد علمنا ما جرى في سقيةبني ساعدة من مشادات كلامية وما رافقها من تجرؤات على مفاهيم الإسلام ومقدساته من قبل الشيختين كالغم على قتل علي (ع) وحرق دار فاطمة الزهراء (ع) ومنع تدوين السنة، وحرق المصاحف وما رافقها من أحداث في صفوف القراء. وما شهده عصر عثمان من مفاسد بسبب سوء تدبيره ومخالفته لمبادئ الإسلام مما أدى إلى اضطرابات خطيرة انتهت بمقتله على يد ثوار من الصحابة.

كل هذا ينقض ادعاء الحديث الذي يربط بين خير الأمة وصلاح الحكم ورشد

خلفائه.

ومن جانب آخر، ذكر الحديث أن خلفاءه مهديين. ومفاده أن خلفاءه بلغوا من التمسك بالسنة خدا باتوا فيه مهديين جميعا. وواقع الخلفاء يثبت عكس ذلك. فليس من الهدي أن يغتصب أبو بكر الخلافة ويستضعف الصحابة كما سبق ذكره. ولو كان مهديا في سلوكه هو وفاروقه، لما اعترف هذا الأخير قائلا: أنها فلتة وقانا الله شرها.

فلو كان كلهم مهديا لما طعن بعضهم في بعض.

إن مقتضى حديث الرسول (مر) إن صح هي مطابقة سنة الراشدين لسته (ص) مطابقة لا تخالف الشرع في شيء. ولو أن الخلفاء أو من فهم ذلك من أمرهم أدر كوا إنهم مهديين جميعا وأن سنة واحدهم كثانيهم فثالثهم. إذا لما جعلوها شرطا لعلي (ع) عند استخلاف عمر بن الخطاب للستة من أصحابه، عندما عرضوا عليه الخلافة على أساس شرط اتباع سنة الرسول (ص) وسيرة الشيفين. فأبى إلا سنة الرسول (ص). وقد رفضوا على الإمام علي (ع) تمسكه بسنة الرسول (ص) وحدها. فهذا إن دل فإنما يدل على أن سنة الشيفين كانت تعني شيئا زائدا على سنة رسول الله. يؤكّد ذلك شهادة الإمام علي (ع) وهي شهادة راشدي معاصر لهما.

وقد كان عمر بن الخطاب قد خلف وراءه ستة. منهم طلحه والزبير وعبد الرحمن وسعد. وكان من المحتمل أن يكون أحدهم هو الرابع دون علي أو عثمان. وكان من المحتمل أن لا يكون علي أو عثمان. ويكون طلحه أو سعيد. فهل هذا بداء في اعتبار الخلفاء الراشدين هم الأربعة المذكورين أم ماذا؟! ولو كان عمر بن الخطاب يعرف أن الراشدين هم هؤلاء الأربعة، إذن لما أزبد شدقاه يوم السقيفة في خطب الناس وإجبارهم على البيعة، ولما ترك الأمر بين الستة، وأخلّ الأمر إلى العدد وترتيب حديث الراشدين؟!

ومما يدل على فقر هذه الرواية في اعتبار المدعى منها، إنها لم تكن على ذات الانتشار والقوة في عهد الرسول (ص) إذ لو أنها كانت كذلك، لما لجأ عمر بن الخطاب إلى غيرها من الشعارات المقوية لجناحه في تنصيب أبيه بكر خلفا

للرسول (ص). ولو كانت على نفس الوضوح لما حدث صراع بين المسلمين ولا بين الخلفاء الراشدين أنفسهم.

لقد رفض علي (ع) بيعة أبي بكر وعمر وعثمان. ولو كان يعرف أن ذلك الحديث منصرف فهمه إلى ذلك، لما خالفه "ولما كان عمر اعتبر خلافة أبي بكر فلتة توجب القتل.

إن هذه القرائن جميعها تدل بما لا يدع مجالا للشك، بأن المروجين لهذه الادعاءات كانوا على اتصال باللعبة السياسية للخلفاء. وجاءوا بعد انتهاء العهد الراشدي بكثير.

وعليه فإن مدعى العامة في ذلك مردود لكون المغزى من ذلك مشروط بخير الأمة وعدم تصارعها وعدم تضارب سنتهم لما كان البناء العقلائي يستبعد تضارب سنة الراشدين. ولأن هذه الخلافة كما تقدم متعلقة بأهل البيت، وأنها اثنا عشر.

وبعد أن تبيين لنا الاضطراب الشديد الذي لف ما ادعوه من أن الراشدية تتطبق على الأربعة. وبأن ذلك تعسف ثقيل على مغزى الحديث ومدعى أصيق من معناه. يجدر بنا التعرف على المغزى الحقيقي له بما ينطبق مع واقع الخلافة. في البدء، لا بد من الاتفاق على أن الخلافة أمر خاضع للجعل الشرعي. وخارج عن نطاق الاختيار. وعلى هذا الأساس، فإن الخلافة تبقى خارج نطاق العصبية والغلبة. وإلا أصبح معيار الإمامة هو الغلبة والعصبية. كما فهمها الكثير من السلف.

وهو حال ابن عمر. فقد روى عنه "أنه كان في زمن الفتنة لا يأتي أمير إلا صلي خلفه وأدى إليه زكاة ماله" ^{٨٤}.

وذكر صاحب الطبقات أيضاً عن سيف المازني "كان ابن عمر يقول: لا أقاتل في الفتنة وأصلي وراء من غالب" ^{٨٥}.

^{٨٤} طبقات بن سعد ٤ / ١٤٩.

^{٨٥} طبقات بن سعد ٤ / ١٤٩.

إن الخلافة كالإمامية شأن ديني، نابع من صميم الفرد وإمكانياته الذاتية، سواء أمارس الخلافة وتحقق له الغلبة أم لا. إنها شأن يقاس بالنبوة في معنى الاختصاص، من حيث أن النبوة ما دامت إنها اختيار مولوي لا شأن للبشر فيه، فهي تثبت مع الغلبة دونها. فالنبي (ص) لا يلغى نبوته افتقاره للعصبية والغلبة فهو نبي سواء احتضنه قومه أو رفضوه. والإمامية على ذلك النحو أمر لا يلغيه افتقاد العصبة.

وهذا ما يفهم من روح الشريعة، ومن كلام الرسول (ص) في شأن الحسينين (ع):

(الحسن والحسين إمامان ح قاماً أو قعداً)

إن الذي جعل بعض علماء العامة يحاولون المستحيل في تأويل حديث الراشدين. لجعله منسجماً مع واقع الخلفاء الفعليين. كان بسبب اعتقادهم بالمعايير "العصباني" حسب تعبير بن خلدون.

وعليه، فإن معنى الراشدية ينصرف إلى أوصياء أهل البيت (ع) لما اشتغلت عليه سيرتهم من قرائن تعزز المدعى. ولما ثبت لدينا من توافق سيرتهم مع مواصفات الخلفاء الراشدين المقصودين في معنى الحديث السابق.

والسؤال: على أي الأئمة ينصرف معنى حديث الراشدية؟

هناك أكثر من قرينة تجعل - كما أسلفنا - المعنى ينصرف إلى أئمة أهل البيت الموصى بهم.

وأهم تلك القرائن: العلم، الهدایة، العدد.

وسوف نعمل على توضيح هذه القرائن بمزيد من التفصيل والوضوح ليتبين للقارئ العزيز إن كل تلك القرائن دالة على انتصار معنى الحديث إليهم. وأن جل تلك القرائن لا يتوفّر عليها تيار الاغتصاب. الذي لم يكن في مستوى مضمون الحديث بل المعنى الذي تعارف عليه العامة فيما بعد العصر الأموي كان إسقاطاً متعسفاً وطرحاً مفتعلـاً.

١ - العلم:

العلم شرط من شروط الإمامة. لأن القيادة تتوقف على معرفة الحكم الشرعي وعلى عمق المعرفة العلمية التي تمكن من تيسير أحوال الرعية والبت فيها. ولم ينفصل العلم كشرط ضروري عن الإمامة إلا عندما تحولت هذه الأخيرة إلى خلافة دنيوية تقوم على العصبية وتقررها الغلبة.

وقد رأينا وسوف نرى أيضاً إن ميزة العلم لم تكن من نصيب تيار الاعتصاب.

وربط الرسول (ص) العلم هنا برواية السنة وبث الحديث. وليس المقصود من ذلك أن الالامام بالحديث وروايته يأخذ ذلك المفهوم الجامد الذي تعلق فيه الأحاديث عقل رواية لا عقل دراية.

بل المقصود هذا الأخير. أي حفظ السنة ورواية الحديث بما تتضمنه العملية من تفعيل لهذه الأحاديث وإخراجها من التكليس عبر التأويل الشرعي، الذي تعرض فيه هذه السنة على النص القرآني لينظر فيها. وينسخ متشابهها بتوضيح معناها، أي القدرة على تحريك النص وفهمه فيما ديناميكياً. وهذا ما لا يعلمه إلا الراسخون في العلم من الأئمة ومن ورث علمهم. وعلى هذا الأساس كانت رواية الحديث المذكورة مقرونة بمعرفة القرآن. ذلك أن الرسول (ص) ذكر أن الكذابة ستكثر من بعده. فمن وجد حدثاً ينافق كتاب الله، فليضرب به عرض الحائط. وهذا يقتضي معرفة عرض الحديث على القرآن. أي أن ثمة تداخل بين سنة الرسول (ص) ونص القرآن الكريم.

ولهذا ذكر الرسول (ص) أن علياً (ع) سوف يقاتل على التأويل مثلما قاتل الرسول (ص) على التنزيل. وسبق أن عرفنا أن أبي بكر وعمر وعثمان لم يكونوا على علم بالقرآن، وكانوا من المحاربين لانتشار سنة الرسول (ص). فالمعروف عن أبي بكر أنه لم يعرف كيف يعرض حديثه المزعوم "الأئباء لا يورثون" على نص القرآن:

﴿وورث سليمان داود﴾ ليتبين له فيما لو كان هذا النص منسجم مع القرآن أم لا.

ويمكننا فهم تلك الملابسات فيما جرى بين علي وأبي بكر، حسب ما أخرجه ابن

سعد في الطبقات^{٨٦}. جاءت فاطمة إلى أبي بكر تطلب ميراثها، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه، وجاء معهما علي، فقال أبو بكر: قال رسول الله (ص) لا نورث، ما تركتناه صدقة، وما كان النبي يعول فعلي، فقال علي: ورث سليمان داود، وقال زكريا، يرثني ويرث من آل يعقوب؟ قال أبو بكر: هو هكذا، وأنت والله تعلم مثل ما أعلم، فقال علي: "هذا كتاب الله ينطق" الحديث.

واشتهر عنه جهله للقرآن كقوله في الكلالة: "أقول فيها برأي فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمني"^{٨٧} وكجهله ميراث الجدة، إذ ثبت عنه أنه قال لجدة سائلته عن إرثها لا أجد لك شيئا في كتاب الله وسنة نبيه (ص) فأخبره المغيرة ومحمد بن سلمه بأن الرسول (ص) أعطاها السدس وقالوا اطعموا الجدات السدس وقطع يسار السارق^{٨٨}.

أما عمر بن الخطاب فحدث ولا حرج.. فقد بلغ من جهله بالأحكام حدا يستنكره الصبيان، كيف وهو القائل بنفسه، كل الناس أفقه منك يا عمر. حتى ربات الحجال.

لقد سبق أن ذكرنا موقفه من موت الرسول (ص) وأنه شهد على نفسه أنه لم يسمع آية من القرآن ولا يعلم أن الموت حق وأن كل نفس ذاتة الموت. حتى قرأت عليه الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وحسبك من ذلك جهله آيات من القرآن فقد سأله عن قوله تعالى: "فاكهة وأبا" فقال: "نهينا عن التعمق والتتكلف"^{٨٩} .

وأنه أمر برجم حامل، وكذا مجنونة^{٩٠} .

وقد اشتهر بتلونه في الأحكام. وقيل "إنه كان يتلون في الأحكام حتى رروا أنه

^{٨٦} طبقات بن سعد ٣١٥ / ٢.

^{٨٧} شرح النهج لابن أبي الحديد - السيوطي ص ٧١.

^{٨٨} شرح النهج / ج ص ٢١ / ٢٥.

^{٨٩} مستدرك الحاكم ٢ ص ٥١٤ - الشاطبي / المواقفات ج ١ ص ٢١ / ٢٥.

^{٩٠} مستدرك ص ٥٩ ج ٢.

قضى في الجدة بسبعين قضية ^{٩١} .

أما عثمان، فإنه أضاف إلى جهله بالأحكام، استهزاءه بالشريعة، وعدم التزامه بقوانينها.

وقد ثبت أن عليا (ع) يومها هو الوحيد الذي كان يحكم بالجزم، ويقول: ^{٩٢} .

وكان أعلم بكتاب الله، لا يرد من سأله ولا ينهر من قصد استفساره.. وهو القائل:

” سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أُم بنهار في سهل نزلت أُم في جبل ” ^{٩٣} .

ولم يثبت في التاريخ أن عليا (ع) أو أحداً من الأئمة رجع إلى رجل آخر لأخذ العلم عنه. بل كانوا هم منارات الهدى. والمورد الذي ينهل منه الناس العلم في مختلف الأزمنة التي عاصروها.

ونحن سبق أن عرفنا الشرط الذي جعله الرسول (ص) صفة وقرينة على خلفاءه، وهو العلم المتجلّي في روایتهم الحديث ونشرهم السنة وهدایة الناس. فرواية الحديث بذاك اللحاظ، والإلمام بالقرآن وتأویله. كان علماً مختصاً بالأئمة. ودعنا هنا نسرد بعضاً من تلکم الأدلة التي تثبت أعلمية الإمام علي (ع) وأئمة أهل البيت (ع) عموماً من خلال النص وشهادة الواقع للوقوف عند قيمتهم في ميزان خالقهم وفي حساب رسول الإنسانية.

^{٩١} كنز العمال (٥٨/١١) والسنن الكبرى (٢٤٥/٦) وشرح النهج (١٨١/١)

^{٩٢} ينابيع المودة (٦٥/١) و تهذيب التهذيب (٣٣٨) وفتح الباري (٤٨٥/٨) و تذكرة السبط (٢٥) و فرائد السبطين (٣٤١/١) و مناقب الخوارزمي (٩١) .

^{٩٣} ينابيع المودة (٦٨) .

أهل البيت والأعلمية !

١ - قال رسول الله: " أنا مدينة العلم وعلي بابها " ^{٩٤} .

٢ - " يا علي أنت تبين لأمتى ما اختلفوا فيه من بعدي " ^{٩٥} .

٣ - " علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا علي
الحوض " ^{٩٦} .

٤ - " من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في فهمه، وإلى
إبراهيم في حلمه، وإلى موسى في هيبته، وإلى عيسى في زهرده، فلينظر إلى
علي بن أبي طالب " ^{٩٧} .

٥ - " أفضاكم علي " ^{٩٨} .

وقال عن نفسه: " سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله عز وجل،
فما من آية إلا وأعلم حيث نزلت بحضيض جبل أو سهل أرض، سلوني عن

^{٩٤} مستدرك (١٢٤/٣) و (٢٢/٤) و الصواعق المحرقة (٧٣) و تهذيب التهذيب (٢٢٠٣/٦).

^{٩٥} المستدرك (١٢٢/٣).

^{٩٦} المستدرك (١٢٤/٣) و ينایع المودة (١٠٣/١) و مناقب الخوارزمي (١٠٧) و كفاية الطالب (٢٥٣) و
تاریخ الخلفاء للسيوطی (١٧٣) و مجمع الزوائد (١٣٧/٣).

^{٩٧} المستدرك (١٢٤/٣) و ينایع المودة (٨٨) .

^{٩٨} الصواعق المحرقة (١٢٣).

الفتن، فما فتن إلا وقد علمت كبسها، ومن يقتل فيها".^{٩٩}

وقال: "علمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم، في كل باب ألف باب".^{١٠٠}

واشتهر عنه رجوع الصحابة إليه وكذلك الخلفاء فيما عجزوا عن إدراكه من أمر الشريعة. ولهم في ذلك شهادات، كما قال عمر بن الخطاب: "لولا علي لهلك عمر".^{١٠١}

وذكر أحمد بن حنبل في مسنده: "لم يكن أحد من أصحاب النبي يقول: سلوني إلا علي بن أبي طالب".^{١٠٢}

وكذلك حال الأئمة من أهل البيت (ع) كانوا على تلك الدرجة من النبوغ. شهد لهم بذلك أشد خصومهم. وقد ثبت في شأنهم من النصوص ما يعزز أعلميتهم. وحسبك أن الرسول (ص) جعلهم إلى جنب القرآن. في حديث الثقلين، إذ قال (ص):

"إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض".^{١٠٣}

وبقوا منارات مشعة وقلل شامخة.

لقد ذكر بعض أعلام العامة ما جاء في حق الأئمة من بعد علي (ع) مثل الذي ذكره صاحب الصواعق المحرقة: قال رسول الله (ص) لجابر: "أنت تدرك ولدي محمد الباقر، إنه يبقر العلم بقرا، فإذا رأيته، فاقرأه عندي السلام".^{١٠٤}

وذلك كلام منسوب إلى الإمام الباقر (ع) وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي (ع) الإمام الخامس سمي الباقر، لبقره العلم كما تقدم.

^{٩٩} شرح النهج (٢٣٥/٢)

^{١٠٠} فرائد السبطين (١٠١/١). وينابيع المودة (٨٣/١)

^{١٠١} مناقب الخوارزمي (٤٨). والأربعين للرازي (٤٦٦)

^{١٠٢} الصواعق المحرقة (٤٨). والرياض النضرة (١٩٨/٢)

^{١٠٣} مسلم (١٢٢/٥). ومسند أحمد (١٧٣/١) والترمذني (٣٢٨/٥)

^{١٠٤} الصواعق المحرقة (ص ٢٠١)

أما الإمام الصادق (ع) فهو من اشتهر اسمه رغمًا عن أنف أعداءه من النواصب والخلفاء وذكره الجميع بفضائل يقل لها نظير. وامتدحه جماعة غفير من العلماء الذين اختلفوا إليه طلباً للعلم. لقد قال فيه مالك: "عَجَفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ اخْتَلَفَ إِلَيْهِ زَمَانًا فَمَا كَنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَلَى إِحْدَى ثَلَاثٍ خَصَالٍ، إِمَّا مَصْلٍ، إِمَّا صَائِمٍ وَإِمَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَمَا رَأَيْتُ عَيْنَ وَلَا سَمِعْتُ أَذْنَ وَلَا خَطْرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ أَفْضَلُ مِنْ عَجَفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عَلَمًا وَعِبَادَةً وَوَرَعًا".^{١٠٥}

وقال عنه الجاحظ: "عَجَفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، الَّذِي مَلَأَ الدُّنْيَا عِلْمَهُ وَفَقْهَهُ، وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ مِنْ تَلَامِذَتِهِ وَكَذَلِكَ سَفِيَانَ الشَّوَّرِيَّ، وَحَسِيبَكَ بِهِمَا فِي هَذَا الْبَابِ".^{١٠٦}

وقال عنه بن حجر في الصواعق: "عَجَفَرُ الصَّادِقُ نَقَلَ النَّاسَ عَنِ الْعِلْمِ مَا سَارَتْ بِهِ الرَّكَبَانُ وَانْتَشَرَ صَيْتُهُ فِي جَمِيعِ الْبَلْدَانِ، وَرُوِيَ عَنْهُ الْأَئْمَةُ الْأَكَابِرُ كَيْحَيَيْ بْنُ سَعِيدٍ وَابْنِ جَرِيْحٍ وَمَالِكَ وَالسَّفِيَانِيْنَ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَشَعْبَةَ وَأَيُوبَ السَّجِسْتَانِيَّ".

وذكره بن خلkan في وفاته على هذا الشكل: "أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَجَفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ بْنِ عَلَيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ الْحَسِينِ بْنِ عَلَيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ أَحَدُ الْأَئْمَةِ الْأَثْنَا عَشَرَ عَلَى مَذَهَبِ الْإِمَامِيَّةِ وَكَانَ مِنْ سَادَاتِ آلِ الْبَيْتِ، وَلَقَبَ بِالصَّادِقِ لِصَدَقَهُ وَفَضْلِهِ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُذَكَّرْ".

هذا وكثير منه مما فاضت به كتب العامة وقد تبين أنهم لا يذكرون في هذا المقام إلا بما يشير إلى أعلميتهم. فإذا كان ذُؤوبهم على العلم مما اشتهر في التاريخ وأن جهل الخلفاء بأبسط الأحكام مما اعترف به أتباعهم. فعلام يتم هذا التفضيل وهذا الأخيار المتعسف.

هذه باختصار أولى القرائن التي تصرف معنى حديث الراشدية عن الخلفاء. وتبين انسجامه مع أئمة أهل البيت (ع) وتقويض ذلك الطرح المفتعل، الذي يجعل الخلافة فيمن لم يرو الحديث ولا يعلم الكتاب إلا أمانى!.

^{١٠٥} التوسل والوسيلة. ٥٢. تهذيب التهذيب ص ١٠٤ ج ٢.

^{١٠٦} رسائل الجاحظ - المستدوي ص ١٠٦.

ولمزيد من الإيضاح يجدر بنا الإشارة إلى مدى ارتباط سنة الأئمة من أهل البيت (ع) بسنة الرسول (ص) وبصريح القرآن وذلك بتزكية من شهادة الرسول (ص) في حديث الثقلين المتقدم وما دام إنهم كذلك، فدعنا نرى وجهة نظرهم في قضية الأحكام.

”سأل رجل أبا عبد الله الإمام الصادق عن مسألة فأجابه فيها فقال الرجل: أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقال له: صه، ما أجبتك فيه من شئ فهو عن رسول الله لسنا من (أرأيت) في شئ“^{١٠٧}.

وقال (ع): بينة من ربنا بينها نبيه (ص) فينها نبيه لنا فلولا ذلك كنا كهؤلاء الناس^{١٠٨}.

وقال أيضاً: ”إنا لو كنا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ولكنها آثار من رسول الله أصل علم نتوارتها كابر عن نكترها كما يكتن الناس ذهبهم وفضتهم“^{١٠٩}.

أقول: أين ذلك من تجرء الخلفاء على أحكام الله فهذا أبو بكر يأمر بحرق الفجاءة، ولا يقود خالد بن الوليد بمالك بن نويرة، ويعين إرث فاطمة (ع) وذاك فاروقه، الرسول (ص) يقر بشرعية التمتع في الحج والزواج، و الفاروق يخالفه، ويأتي بما تشهيه ذائقته من أحكام تحالف سنة الرسول (ص) ونص القرآن وهكذا يتبيّن أي الفريقين أقرب إلى سنة الرسول (ص)، وألصق بكتابه. وإذا كان الاختلاف بين الراشدين الأربع المزعومين، كاختلاف اليهود عن النصارى فإن الانسجام في سنة أئمة أهل البيت الائتباع عشر كان مما أخرس السنة النواصب وحير دهاقتهم ولا يحصل الانسجام إلا مع سنة موحدة المصدر ومعينة النبع وتلك شهادة من رسول الله (ص) يوم أوصى بالتمسك بالثقلين وهو ما شهد به واقعهم.

٢- الهدایة

^{١٠٧} الكافي (١١٢/١).

^{١٠٨} بصائر الدرجات (٢٨٥).

^{١٠٩} بصائر الدرجات (٢٨٤).

جاءت الهدایة كقرینة على الخلفاء الراشدين الذين قيل في حقهم: "المهدین من بعدي".

والواقع التاریخي للخلفاء المزعومین يخالف منطق الحديث، بل ويناقضه من أساسه.

فالملّاك من جعل الإمامة ضرورة، ولطفا. هو من هذه الحیثیة أي توفیر الهدایة الازمة التي يتربّع عليها إقامة الحجّة على الخلائق. والحجّة لا تقوم على هدایة ناقصة، أو على هدایة محتملة. والخلفاء المفتعلون لم يكونوا في حجم ذاك الملّاك. ليكونوا أئمة حقيقین.

لقد كانوا في أكثر من حال يضلون الأمة ويعذّونها عن العلم الحقيقی بل ويهدّدون ويجلّدون الناس إذا أتواهم مستفسرين عما يفیدهم في معرفة أحكام الله. وضبط تکاليفهم الشرعیة.

فهناك غیاب كامل لعنصر الهدایة من سلوك وتجیهات الخلفاء المزعومین، لأنّهم كما تقدم - لم يكونوا علماء - فالهدایة تقوم على العلم. فأعلم الناس كانوا هم أئمة أهل البيت (ع) وهم تبعاً لذلك أهّدی عباد الله.

والهدایة كما يظهر منها. لها أساس تقوم عليه، وغاية توصی إليها. فأما، الأساس فهو العلم كما سبق القول. إذ أن الهدایة للإرشاد إلى الحق. ولن ينال الإنسان رشدہ إلى الحق، حتى يكتشفه. والكشف عن الحق هو العلم فلا هدی بلا علم وفائدہ العلم لا يهدی. ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

أما الغایة من ذلك فهو إقامة الحجّة على الخلائق بما يشدّ ظهر المکلف ومعلوم حسب مباني الأصول، أن الحجّة يتربّع عليها المنجزية والمعدّرية. فإذا لم يكن الهدی مما يتربّع عليه عذر المکلف، وتکلیفه لن يكون ذلك الهدی حجّة. وغاية القول أن المکلف بالمعدّرية له الحق في أن يحتج على المشرع، فيكونه نقد ما أمر به. فلا يحاسب على تركه، ولا على ما سكت عنه لما في الأمر من قبح عقلي لوقوعه في مسألة قبح العقاب بلا بيان كما يتربّع عليه الحساب

والعقاب في حالة رفضه أو عدم خضوعه لذلك التكليف. وعليه، فإن غير الأئمة (ع) لم يكونوا مشرعين ولا هادة بل كانوا مكلفين فقط. وذاك هو حال من بايدهم. فهناك من الصحابة من كان يخالف الخلفاء، ولا يعتبر كلامهم حجة كما هو الشأن في زواج المتعة، عندما قبلوا الشهادة ورفضوا التحرير. وإذا قال القائل فعلوا مثل ذلك مع الأئمة قلنا إنهم أيضا فعلوه مع الرسول (ص) ووجه المفارقة هناك إن فعله مع الرسول (ص) والأئمة (ع) موجب للعقاب لمكان المنجزية ومقام التكليف.

فسعد بن عبادة لم يرتكب ذنبا بخروجه عن أبي بكر. بل إنه مثال إذا ثبت أنه توخي منها صرف الإمامة إلى أهلها غير أن ابن عمر مثلا هو من خالف التكليف بخروجه عن علي (ع) والحسين (ع). فأساس الحجة هو إثبات المنجزية والمعددية.

وعليها لم يكن أحد يرسل الكلام على الوجه المنجز غير الأئمة من أهل البيت (ع).

وحسبك من صرف معنى الراشدية عن الخلفاء المغتصبين، أفهم كانوا يرجعون في مشكلاتهم إلى الأئمة (ع) وال الحاجة هنا تنفي عنهم الهدایة لأنهم فاقدون لها فمن ذلك أن يقول أبو بكر عن نفسه (أنا الخالفة) - كما تقدم - وهو ما لا يفيد الهدایة وقوله:

”إن لي شيطان يعتريني، فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني“.^{١٠}

وهو هنا يقر حاجته إلى هداية الآخرين فكيف تقوم الحجة على الناس بإماماً فاقد للهداية وأي ضمان أن يكون قوله واقعا في اللحظة التي يعتريه فيها شيطانه. و قوله أقليوني فلست بخيركم^{١١}.

وقول عمر عنه ”كانت بيعة أبي بكر فلتة، وقى الله المسلمين شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه“.^{١٢}

^{١٠} الصواعق المحرقة ص ٧ / الإمامة والسياسة، ج ١ ص ٢ / شرح النهج ج ٢ ص ٨

^{١١} الإمامة والسياسة، ١ / ١٤ و شرح النهج (٥٨/١) و الأنساب (٥٩٠/١).

^{١٢} الصواعق المحرقة (١٠) و الملل والنحل (٧) و تاريخ الطبرى (٢٠٥/٣) و الكامل (٣٢٧/٢) و شرح النهج (٢٣/٢) و البداية والنهاية (٤٥/٥) و النهاية لأبن الأثير (٤٧٧/٣) و تاج العروس (٥٦٨/١) و الانساب (٥٩١/٥٤) وقد قال أبو بكر عن بيته أنها فلتة كما في الأنساب (٥٩٠/١)

فكل هذه تدل على أن الحجة ليست من شأن الخلفاء وفرقة السقيفة.

في مقابل ذلك يبقى أئمة أهل البيت (ع) هم المنارات الوحيدة للهداية فإذا كان أبو بكر وعمر وعثمان يصرفون المسائل عن التكاليف الشرعية ويصدونه أو يضلونه في الحكم فإن عليا (ع) كان يقول: أسألوني قبل أن تفقدوني وحتى قال عمر: لو لا علي لهلك عمر.

وإليكم الآن ما يدل على صفة الهدایة في أشخاص أهل البيت (ع) تاركين للقارئ فرصة الاستقراء الحر:

١ - روى أحمد بن موسى بن مردويه، عن عائشة: أن رسول الله (ص) قال "الحق مع علي وعلي مع الحق لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" ^{١١٣}.

٢ - قال الرسول (ص) "رحم الله عليا، اللهم أدر الحق معه حيث دار" ^{١١٤}.

٣ - يا عمار، إن طاعة علي من طاعتي وطاعتي من طاعة الله تعالى" ^{١١٥}.

٤ - عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله (ص) "إنني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي:

الثقلين، وأحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" ^{١١٦}.

^{١١٣} تاريخ بغداد (٣٢١/١٤) والإمامية والسياسة (٧٨١/٧٨) وفرائد السبطين (١٧٧/١) فريب منه . و مناقب ابن المغازلي (١١٧/٤٤) و المستدرك (٣/١٢٤ و ١٢٤/٣)

^{١١٤} الترمذى (٥/٦٣٣)

^{١١٥} أسد الغابة (٥/٢٨٧) و ينایع المودة (١٢٨)

^{١١٦} مناقب الخوارزمي (١٥٤) و المستدرك (٣/١٠٩ و ١٤٨) و ينایع المودة (١/٣٢) و مجمع الزوائد (٩/٦٥) و مسلم (٥/٥٢ و ٢٧) و مسنند أحمد (٣/٢٦ و ٥٩ و ١٦٧١) و كفاية الطالب (٩/٢٥) و مصایب السنّة (٤/١٨٥ و ٤/١٨٩) و الصواعق (٦١٢ و ٥١٥)

٥ - روى الزمخشري عن الرسول ص: "فاطمة مهجة قلبي وابنها ثمرة فؤادي ويعلها نور بصري والأئمة من ولدها أمناء ربي، وحبل ممدود بينه وبين خلقه، من اعتصم بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى" ^{١١٧} .

٦ - قال (ص) "من أراد أن يحيا حياته ويموت ميتاً ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلاله" ^{١١٨} .

٧ - قوله (ص): "فلا تقدموا هما فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم" ^{١١٩} .

٨ - قوله (ص): "مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق" ^{١٢٠} .

٩ - قوله (ص): "في كل خلف من أمتى عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الصالين" ^{١٢١} .

١٠ - قوله (ص): "أنا المنذر وعلى الهداد وبك يا علي يهتدي المهددون من بعدي" ^{١٢٢} .

١١ - قوله (ص): "أنا وهذا - يعني عليا - حجة على أمني يوم القيمة" ^{١٢٣} .

^{١١٧} فرائد السبطين (٦٦/٢) و مقتل الحسين (٥٩/١)

^{١١٨} كنز العمال (٦١١/١١)

^{١١٩} الصواعق المحرقة (١٥٠)

^{١٢٠} الصواعق المحرقة (١٨٦) و فرائد السبطين (٢٤٢/٢) و الخصائص الكبيرة للسيوطى (٤٦٦/٢) و المستدرك (٣٤٣/٢) و ينابيع المودة (١/١) و مناقب المغازلى (١٣٢) و كفاية الطالب (٣٧٩) و عيون الأخبار (١/٢١١) و حلية الأولياء (٤/٣٠٦) و ميزان الاعتدال (١/٤٨٢)

^{١٢١} الصواعق المحرقة (١٥٠)

^{١٢٢} تفسير الرازى (١٩/١٤) و لسان الميزان (٢/١٩٩) و كفاية الطالب (٢٣٣) و شواهد التنزيل (١/٢٩٣)

^{١٢٣} و فرائد السبطين (١/٤٨٤)

^{١٣} مناقب ابن المغازلى (٤٦٥/١٩٧) و تاريخ بغداد (٢/٨٨) و ذخائر العقبي (٧٧) و كنز العمال (١١/٦٢٠)

هذا غيض من فيض مما رزحت به أسفار العامة على ما فعلوه من منع الرواية عن أئمة أهل البيت (ع) ناهيك عما وضح في مرويات أهل البيت وأتباعهم كلها تثبت بتصريح العبارة حجية أهل البيت (ع) على الناس مما يثبت لهم صفة الهدایة وهي من لوازم الراشدية التي نحن بصدق الحديث عن مفهومها فـأين الخلفاء المزعومين من هذا العبق المنعش وأين هم من هذه الرياض النصرة وأي صهوة بقيت لركوب مجدهم فلا يدعى ذلك بعد أئمة البيت الهاشمي إلا كاذب. دعهم في غيهم يعمهون!.

٣ - العدد

ذكرنا آنفاً، أن منطوق حديث الراشدين أوسع من المدعى فالخلفاء المفتعلون لا ينسجمون عدداً مع عدد الخلفاء المذكورين في أحاديث الرسول (ص) الذين هم اثنا عشر من قريش. ولم يدع ذلك إلا الأئمة من أهل البيت (ع).

وإذا تبين سابقاً أن الأئمة والخلفاء هم اثنا عشر دعنا نرى هل ذلك ينطبق على الائتين عشر من أهل البيت المتعارف عليهم عند شيعتهم؟.

إن مجرد ادعاء الائتين عشرية في غياب أي مدع لها، دليل على أن مقصود الرواية منصرف إلى المدعى. وأن مجرد ادعاء أهل البيت (ع) لها كاف للاعتراف بها لأنها ليس ثمة حي هو أشرف وأنبل في قريش منها. إن إطلاق قريش في الحديث لا وجه لبعضه، إذ في قريش من هو من صناديد الشرك. وفيهم من غير طهارة المولد. ولا أحد يشك في أنبني هاشم هي من أشرف بطون قريش وأشهرها في خدمة الدين. وقد عززهم القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُظْهِرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فإذا اجتمعت طهارة المولد ورقة الشرف مع صفة العلم والهدایة. كان من العقل ترجيح الأفضل على المفضول، ولا ينعكس ذلك لما فيه من مناقضة لمباني العقلاه وتصريح النصوص. هذا فيما لو ثبت أن الرسول (ص) قد أطلق لفظة قريش وإلا فإن بعض الطرق التي روی بها حديث الائتين عشر يشتم منها عنصر التدليس والتلبیس. إذ هناك من لمح ببني هاشم والرواية في صحيح البخاري من طريق جابر بن سمرة هي قوله:

سمعت رسول الله (ص) يقول: يكونوا اثنا عشر أميرا، فقال كلمة لم أسمعها فقال أبي: كلهم من قريش فالكلمة التي لم يسمعها هي على طريقة والثالثة لم أسمعها. وهي مما اعتاد عليه المحدثون والرواة في التلبيس.

يقول صاحب ينابيع المودة: " قال بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده (ص) اثنا عشر، قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرخ الزمان، وتعرف الكون والمكان، علم أن مراد رسول الله (ص) من حديثه هذا: الأئمة الائنا عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه، لقلتهم عن اثني عشر (وهم أربعة) ولا يمكن أن يحمله على ملوك الأموية، لزيادتهم على اثني عشر (وهو ثلاثة عشر)، ولظلمهم الفاحش، إلا عمر بن عبد العزيز ولكونهم غيربني هاشم، لأن النبي (ص) قال " كلهم من بي هاشم " في رواية عن عبد الملك ^{١٢٤} .

ونجد في نهج البلاغة شرحًا مبينا لمعنى الأئمة من قريش، يقول الإمام علي (ع):

ـ إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم ولا يصلح الولادة من غيرهم ـ

وروى الحموي الشافعي في فرائد السبطين، عن بن عباس قال رسول الله: " أنا سيد النبئين وعلي بن أبي طالب سيد الوصيin وأن أوصيائي بعدي اثنا عشر، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم المهدي " .

وهكذا تدل القرائن على أن إطلاق حديث الخلفاء الراشدين على الأربعة لا وجه له وأن أهل البيت هم المرشحون لهذا الوصف لما دلت عليه آثارهم والنصوص المستفيضة من حولهم فيحقق لنا بعدها اعتبار الخلفاء الراشدين المزعومين مجرد ادعاء مفتعل لا دليل عليه من النصوص ولا من التاريخ ولا من العقل.

^{١٢٤} ينابيع المودة. (٣/٥١٠)

الخلفاء ما داموا مارسوا الخلافة

في عرضنا ودراستنا الخلفية التاريخية لتيار الاغتصاب وفرقة السقيفة على وجه الخصوص، تبين لنا ذلك التعسف المهول الذي سار عليه العامة والتشوه الكبير الذي لف نظرية الإمامة عندهم وما دام قد مارس هذا التيار الخلافة بمنظور الغلبة وما دام أنه من جانب آخر ينتمي إلى فرقة الصحابة لمعاصرتهم الرسالة فإنه واجب علينا في هذه الرحلة الدراساتية أن نتعرض لواقع الخلافة كما مارسها هذا التيار فنجعل ذلك شقاً أولياً للبحث ثم نشي بشق آخر يتعلق بموقع هذا التيار من الصحابة مع التطرق إلى هذا الموضوع بمزيد من الإيضاح.

تيار الاغتصاب والخلافة

من الأمور التي تعارف عليها بعض أهل السنة كون الخلافة خاضعة لمفهوم الشورى وإنها ما دامت شأنًا دنيوياً فإنها تبقى حقاً للناس يتواضعونه فيما بينهم على الخليفة الجدير الذي يجتمع عليه اختيارهم ولأن واقع حال الخلافة كما مارسها هذا التيار كانت خاضعة لأكثر من معيار إذ تارة تثبت بالوصية وطوراً بما يشهي الاستخلاف كان هناك اضطراب كبير يلف نظرية الخلافة عندهم. إن الواقع التاريخي أوضح بأن الشورى في مقام الخلافة أول ما كانت في عهد عمر بن الخطاب. إذ زعم أنه تارك الأمر في حدود الستة الذين تستشير الأمة في شأنهم. ولم تكن قضية الشورى تقليداً متعارفاً عليه في العهد الأول للخلافة.

وذلك ما يبدو من ظاهر نصوص الخلفاء أنفسهم واعتراضهم بذلك الاضطراب. حتى لا نخرج عن إطار السقيفة، لا بد أن نلقي نظرة عن الأسلوب الذي تم فيه الاختيار.

إن ما نتج من صراعات ومشادات عنيفة في السقيفة، كان دليلاً كافياً على أن الخلافة اتخذت مجرى معاكساً لقضية الشورى، ذلك بأن جمعاً غفيراً من الصحابة امتنعوا عن البيعة. فمنهم من بقي على تلك الحالة حتى قتل. كسعد بن عبادة الخزرجي (رض) ومنهم من تأخر حتى أجبر عليها بالسيف وقيد إليها بالعنف. وتبين بعد ذلك كيف أن فترة خلافة أبي بكر التي لم تتجاوز مدتها سنتين. كيف عرفت قلائل كثيرة واهتزازات عنيفة كان أهمها وأخطرها تمرد القبائل العربية وامتناع الكثير عن إعطاء الزكاة تعبيراً منها عن رفض خلافة أبي بكر. وذلك فيما أسموه بحرب الردة.

لقد انطلق أبو بكر وعمر على حين غفلة ممن كانوا في انشغال بتجهيز رسول الله (ص) وانطلقوا إلى السقيفة ليواجهوا باقي التيارات الأخرى. فمنطق الشورى يقتضي وجود سلطة عليا سابقة، ليتحاكم إليها الجميع في الأمر. أما أن يفرض تيار معين نفسه مسؤولاً عن تنظيم الشورى، فهذا أمر ينافق أساسيات الشورى، وعلى ذلك المبني يتبيّن مدى "الدور" الذي سقط فيه الأمر، إذ لا بد من جهة عليا تتحدد سلفاً عن طريق النص.

ويذكر براء بن عازب ^{١٢٥} "لم أزل لبني هاشم محبًا، فلما قبض رسول الله (ص) خفت أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الوالهة العجول مع ما في نفسي من الحزن، لوفاة رسول الله (ص) فكثت أتردد إلى بني هاشم، وهم عند النبي (ص) في الحجرة، وأنفقت وجوه قريش فإني كذلك إذ فقدت أباً بكر وعمر وإذا قائل يقول القوم في سقيفة بني ساعدة. وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبو بكر، فلم ألبث وإذا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالازر

^{١٢٥} شرح النهج ص ٧٣

الصناعية لا يمرون بأحد إلا بخطوه وقدموه فمدوا يده، فمسحوها على يد أبي بكر، يبأيه شاء ذلك أو أبي.

فهلرأيت عزيزي القارئ كيف أن البيعة اتجهت صوب الغلبة وأن جماعا لم يروا أبي بكر وعمر حتى رجعوا إليهم بالقرار النهائي لا ليطروا الأمر أمامهم ليشاوروا فيه ويأخذوا رأي من منعه الاهتمام بتجهيز رسول الله من حضور السقيفة بل جاءوا بالأمر محمولا على السيف "لا يمرون بأحد إلا بخطوه وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر".

إمعانا منهم في كسب البيعة بالإجبار ليتم الأمر ويبأيع بالعنف "شاء ذلك أو

أبي" ^{١٢٦}.

وهذا هو ما دفع عمر نفسه إلى القول بأن بيعة أبي بكر فلتة وقاهم الله شرها، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على عدم شرعية هذه البيعة. ولا بد هنا من تقويض ما ذهب إليه الذاهبون في شأن ما كان شورى بين المسلمين. لنعرض رأي أحد كبار المعارضين لخلافة أبي بكر والذى بايع كرها. وهو الإمام علي (ع)، لتعرف على وجهة نظره عليه السلام فيما ادعوه من أمر الشورى:

فعندما بُويع أبو بكر في السقيفة وجددت له البيعة يوم الثلاثاء خرج علي فقال:

"أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترجع لنا حقا".

قال أبو بكر: بلى ولكنني خشيت الفتنة ^{١٢٧}.

وجاء في نهج البلاغة كلام للإمام علي (ع) فيه رد على مزعومة الشورى بمنطق واضح وجليل.

لما انتهت إلى أمير المؤمنين أبناء السقيفة بعد وفاة الرسول (ص) قال:

^{١٢٦}نفس المصدر.

^{١٢٧}مروج الذهب (٣٠٧/٢)

ما قالت الأنصار؟.

قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير.

قال: فهلا احتججتم عليهم بوصية الرسول (ص) بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم؟.

قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟.

فقال: بل لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم!.

ثم قال: فماذا قالت قريش؟.

قالوا: قالت نحن شجرة الرسول (ص).

قال: احتجوا بالشجرة وأضعوا الشمرة^{١٢٨}.

ثم قال:

فكيف هذا والمشيرون غيب
فإن كنت بالشوري ملكت أمرهم
غيرك أولى بالنبي وأقرب
وإن كنت بالقريبي حججت خصيمهم
وجاء في نهج البلاغة أيضا قوله:

”أرى تراثي نهبا حتى مضى الأول لسبيله فأدلني بها إلى فلان بعده، ثم
تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها
فيما عجبنا! بينما هو يستقىلها في حياته إذ عقدها الآخر بعد وفاته لشد ما تشنطها
ضرعها.”.

لقد تبين أن الخلافة في السقيفة وما بعدها كانت تقوم على منطق الاجبار،
لا منطق الشوري. وعلى أساس الاغتصاب لا على أساس الشرعية. تجلى ذلك
العنف في البداية في إجبار الإمام علي (ع) والذين معه على البيعة، وفي
السقيفة تجلى في موقفهم من بعض الأنصار. ولهذا كانت هناك جماعة من
الصحابة الكبار الذين نالهم التهديد والضرب لرفضهم البيعة. وكانوا ضحايا لها.

^{١٢٨} شرح النهج (٣/٦).

السقيفة والمعارضة

بعد إتمام دفن الرسول (ص) اعتزل قوم من الصحابة ورفضوا بيعة أبي بكر وطروا عليا (ع) خليفة فتحصروا ببيت فاطمة الزهراء (ع) وبقوا على ذلك الحال حتى اقتحم عليهم جموع كبير بقيادة عمر الدار. وعزموا على حرقها. فأجبروهم على البيعة.

يقول العقوبي: "وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبي طالب منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب وأبي بن كعب. فأرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، والمغيرة بن شعبة، فقال: ما الرأي؟".

وذكر البلاذري إن أبو بكر بعث عمر بن الخطاب إلى علي (ع) حين قعد عن بيته وقال: إئنني به بأعنف العنف فلما أتاه جرى بينهما كلام فقال: إحلب حلب لك شطره والله ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤثرك غدا^{١٢٩}.

وذكر بن عبد ربه "أقبل عمر بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيتهم فاطمة فقلت يا ابن الخطاب أجيئت لحرق دارنا؟ قال: نعم أو تدخلوا

^{١٣٩} الأنساب (١) ٥٨٧. شرح النهج (٦/١١).

فيما دخلت فيه الأمة ^{١٣٠} .

ولا يهمنا هنا ما دار من كلام بين فاطمة (ع) وابن الخطاب. ولا بين المتصفين ومقتومي الدار. ما نريد التأكيد عليه هنا، هو أسماء المعارضين الكبار للسقية، ورأيهم في الخلافة. والآن إليك ما جاء في كلام المعارضة:

١ - الإمام علي (ع)

” أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير، فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا وطفقت ارتهي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طغية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويکدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قدى وفي الحلق شجى أرى تراخي نها حتى مضى الأول لسبيله فأدلني إليها إلى ابن الخطاب

بعده ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها

فيما عجبنا بینا يستقیلها في حیاته إذ عقدها لآخر بعد وفاته. لشد ما تشطرها ضرعيها ^{١٣١} .

٢ - العباس بن عبد المطلب (رض)

إن الله بعث محمدا كما وصفت نبأ وللمؤمنين فمن الله به على أمنته حتى اختار له ما عنده فخلى على المسلمين أمرهم ليختاروا لأنفسهم مصيّبين الحق لا مائلين بزيغ الهوى فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت وإن كنت بالمؤمنين أخذت فنحن منهم. مما تقدمنا في أمرك فرطا، ولا حلنا وسطا، ولا برحنا سخطا، وإن كان هذا الأمر وجب لك بالمؤمنين، مما وجب إذ كنا كارهين. ما أبعد قولك من أنهم طعنوا عليك من قولك أنهم اختاروك ومالوا إليك، وما

^{١٣٠} العقد الفريد (٤٨٦/٢٥٩-٢٦٠) و شرح النهج (٤٨٦)

و الأنساب (١/٥٨٦)

^{١٣١} شرح النهج (١٦٢/١)

أبعد تسميتك خليفة رسول الله من قولك خلى على الناس أمرهم ليختاروك.
فاما ما قلت، إنك تجعله لي، فإن كان حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه،
وإن كان لنا فلم نرض ببعضه دون بعض وعلى رسلك، فإن رسول الله من شجرة
نحن أغصانها وأنتم جيرانها ^{١٣٢} .

٣ - الفضل بن العباس (رض)

” يا معشر قريش إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم
وصاحبنا أولى بها منكم ^{١٣٣} .

٤ - خالد بن سعد (رض)

” إنكم - أي بني هاشم - لطوال الشجر طيبوا الشمر نحن تبع لكم ^{١٣٤} .
هلم أبايعك - يقصد عليا - فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك ^{١٣٥} .

٥ - المقداد بن الأسود الكندي (رض)

” واعجا لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيتهن وفيهم أول
المؤمنين ^{١٣٦} .

٦ - سلمان الفارسي (رض)

” أصبتكم الخيرة وأخطأتكم المعدن ^{١٣٧} .

” كرداد وناكرداد أي عملتم وما عملتم، لو بايعوا علينا لاكلوا من فوقهم
ومن تحت أرجلهم ^{١٣٨} .

٧ - أبو ذر الغفارى (رض)

^{١٣٢} شرح النهج (٢٢١/١) والإمامية والسياسة (٣٣/١)

^{١٣٣} اليعقوبي (١٢٤/٢)

^{١٣٤} شرح النهج (٥٩/٢) و اسد الغابة (٨٤/٢)

^{١٣٥} شرح النهج (٣٢/٦) و اليعقوبي (١٢٦/٢)

^{١٣٦} اليعقوبي (١٦٣/٢)

^{١٣٧} شرح النهج (٤٩/٢)

^{١٣٨} شرح النهج (٤٣/٦) و أنساب الأشراف (٥٩١/١)

”أصيتم فناعة وتركتم قرابة لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيتك ما اختلف عليكم اثنان ”^{١٣٩}.

”أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها أما لو قدمتم من قدم الله وأخرتم من آخر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيتك لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال ولد الله ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم على ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ”^{١٤٠}.

٨ - عتبة بن أبي لهب

ما كنت أحسب هذا الأمر من صرفا عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
عن أول الناس إيمانا وسابقة وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وابريل عون له في الغسل والكفن وآخر الناس عهدا بالنبي ومن
من فيه ما فيه لا يغرون به وليس في القوم ما فيه من الحسن
هذا إضافة إلى مواقف كثير من المعارضين، الذين لم يتحصلوا بيت
فاطمة (ع) والذين حصلت بينهم وأبي بكر وعمر مشادات انتهت إما بإجبارهم
على البيعة وإما قتلهم كما هو حال سعد بن عبادة كما سنرى وأسماءهم حسب
إجماع المؤرخين كالتالي:

* علي (ع).

* فاطمة (ع).

* العباس بن عبد المطلب.

* الفضل بن العباس.

* الزبير بن العوام.

^{١٣٩} شرح النهج (١٣/٦)

^{١٤٠} تاريخ اليعقوبي (١٧١/٢)

^{١٤١} تاريخ اليعقوبي (١٢٤/٢)

* طلحة بن عبيد الله.

* سعد بن أبي وقاص.

* المقداد بن الأسود.

* سلمان الفارسي.

* أبو ذر الغفاري.

* عمار بن ياسر.

* البراء بن عازب.

* أبان بن سعيد.

* أبي بن كعب.

* سعد بن عبادة.

* الحباب بن المنذر.

هذه الأسماء وردت في مصادر التاريخ الكبرى كتاريخ الأسر والملوك لجعفر الطبرى، والكامل لابن الأثير وتاريخ اليعقوبى، وأسد الغابة، وتاريخ بن كثير وسيرة بن هشام.

والمطلع على سيرة هذا الفريق من الصحابة، يدرك أهمية المعارضة.

الخلفاء ما داموا صحابة

وما دام ممثلو هذا التيار قد عرروا بالصحابة، وحتى لا تمسي هذه الميزة عائقاً في فهم طبيعة الاغتصاب، ولا تحول "الصحبة" إلى أمر يضيّب الرؤية في خلفيات التحرير. كان لا بد من الوقوف عند هذا الموضوع لبيان حقيقته، وهدم ما علق به من تداعيات أسطورية تعيق أي محاولة لفهم حقيقة وملابسات الواقعة. لم يكن للصحبة مفهوم على عهد رسول الله (ص) بالمعنى الاصطلاحي للكلمة وكل ما في الأمر إنها تعبير لغوي عن مجموعة من الناس تختلف أهواءهم وتتنوع نزعاتهم اجتمعوا حول رسول الله (ص) وصاحبوه في رحلته كل وفق هواه ولم تكن الصحبة تعني صك غفران يعوض امتناع الصاحبي عن العمل الصالح، أو تعصمه عن الارتداد.

ولعل ما يجعل الحديث عن الصحبة صعباً مستصعباً، لا يستحمله إلا ذوي الألباب النيرة وأصحاب الحكم المتعالية.. إن اقترن وصف الصحابة بضروب من المواقف والواقع شكلت في ذهن الجمهور قرينة على عصمتهم. وأهم تلك القرائن إنهم حضروا بيعة الرضوان التي ذكرها القرآن ومدح أهلها، وبعضهم ذهب بعيداً حين ذكر عشرة منهم من المبشرين بالجنة، وآخرون ذكروا أن أهل بدر مغفور لهم ما تقدم وما تأخر من ذنوبهم لحديث حاطب بن أبي بلعة، وهلم جرا. لقد اختلف مفهوم الصحابي من جيل إلى جيل، ومن مبني إلى آخر، ففي جيل الصحابة الأوائل لم تكن للصحبة كما ذكرنا غير ذلك المفهوم اللغوي، بينما

بدأ هذا المفهوم يتبلور في صور اصطلاحية في عصر التدوين، وفي ضوء علم الحديث الذي بدأت قضية الجرح والتعديل فيه تقف عند رواة الأخبار. وهو عصر متأخر عن جيل الصحابة. وكانت له دوافع معينة اقتضتها عمليات الجرح والتعديل. وهي تنزيه الصحابة عن كل تجريح والأخذ بعد التهم مطلقا. وسبق الأخذ بعد التهم، كلام عن تعريفهم، بشكل يبرر مذهب المحدثين، ويضفي عليهم مسحة اصطلاحية معينة. فالصحبة كمصطلح شرعي هو من وضع المتأخرین من رجال الحديث.

كما أن مفهوم الصحبة يختلف معه مبني النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة الصحابة، ومبني المحدثين المتأخرین. ولتوسيع ذلك، نرى من الأجرد التطرق إلى مفهوم الصحابي من هذه الزوايا المتفرقة.

تعريف الصحابي وعدهاته عند المتأخرین، والرد عليهم

عرف المتأخرون الصحابي تعريفاً مناقضاً لروح الشريعة الإسلامية، ومنافياً للبناء العقائلي. فهم من جهة اعتبروا الصحابي هو كل من رأى الرسول (ص)، سواءً أكان كبيراً أم طفلاً صغيراً. بل حتى من لم يره من العمي لتعذر الرؤية عليهم. بل ويعد صحابياً من رأاه الرسول (ص) ولو عن بعد، سواءً جالسه أم لم يجالسه، غزا معه أو لم يغز. وعلى ذلك استقر رأي الجمهور.

يقول في ذلك بن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة:

”الصحابي من لقي النبي (ص) مؤمناً به، ومات على الإسلام فيدخل في من لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز. ومن رأاه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى“.

ويتبين من خلال هذا التعريف، انحراف بالمفهوم من إطاره اللغوي الظاهر إلى دائرة الاصطلاح، وهذا ما جعل بن حجر العسقلاني يقول: ”إن اسم صحبة النبي (ص) مستحق لمن صحبه أقل ما يطلق على اسم صحبة لغة وإن كان العرف يخص ذلك ببعض الملازمة“.^{١٤٢}

^{١٤٢} الأصابة في تمييز الصحابة

وطبيعي، إن هذا التحديد يخالفه العقلاء من حيث كونه متجاوزاً للغة والعرف، ومتقوماً بتواضع المتأخرین واصطلاحهم من دون قرینة تنهض بما يخالف اللغة والعرف.

وحكموا بعد إطلاق تعريفهم على عدالتهم جميعاً، واعتبروا أغلاطهم غير منافية لعدالتهم.

وبهذا انتهى بالبعض إلى اعتبار الصحبة أقوى من الإيمان وفي ذلك خروج صريح عن منطق الإسلام الذي لا يعطي صكوكاً بقدر ما يحكم على الأعمال الصالحة.

ذكر صاحب الإصابة: "اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف ذلك إلا شذوذ من المبتدةعة" ^{١٤٣}.

وذكر النووي في التقریب: "الصحابة كالمؤمن عدول، من لبس الفتنة وغيرهم".

ويبدو من خلال ما اتفقا عليه، أن العدالة شيء ملازم للصحبة. بينما العدالة شأن اصطلاحي يختلف عن الصحبة. فالعدالة لها ضوابط محددة، وشرائط مسطرة. فلا لزوم بينها والصحبة. إلا من جهة التعسف الذي جرد عليه المزورون والمتحجرن. لأن تلك الملازمة لم يكن متعارف عليها في زمن الصحابة أنفسهم، وفيما أدركوه من القرآن وسنة رسول الله (ص).

فالصحابي عاشوا فترة طويلة من الصراع بعد وفاة الرسول (ص) عملوا فيها السيف على رقاب بعضهم البعض. وبيتوا بعضهم البعض. وتقاتلوا فرقاً فرقاً. ولو كان للصحبة مفهوم غير لغوی أو أن العدالة كانت من لوازمهما. إذن لكان هذا الرهط أولى بالالتزام بهذا الأمر. وإذا كان التجريح لا يطال، الصحابة. فكان أولى بهؤلاء أن لا يجرحوا بعضهم بعضاً. ترى فهل كانت الصحبة عاصمة للصحابي من النار كما أدرك ذلك الصحابي نفسه، وهل أن الصحبة ملازمة للعدالة في رأي الصحابي نفسه؟.

^{١٤٣} الإصابة / ١ / ٢٢١٧.

روى البخاري عن زيد بن ثابت: "لما خرج النبي (ص) إلى أحد رجع ناس من أصحابه فقالت فرقة منهم: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، نزلت الآية الكريمة: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَتَيْنِ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾^{١٤٤}.

وحكم كل من عمار وبن مسعود بالكفر على عثمان وثاروا ضده مع جمع من الصحابة "وقالت عائشة أقتلوا نعثلا - تعني عثمان - فقد كفر^{١٤٥}." وفي ذلك قال لها ابن أم كلاب:

وأنت أمرت بقتل الإمام
وقلت لنا أنه قد كفر^{١٤٦}
ويوم السقيفة عندما قال أنس: إتقوا سعدا، لا تطؤوه: قال عمر:
أقتلوه، قتله الله.

وإذا تبين أن الصحابة لم يكونوا يفهمون الصحابة بذاك المعنى الذي اصطلح عليه أهل الحديث المتأخرين. أدركتنا إذ ذاك أنهم رجال كباقي الرجال مرهونون هم أيضاً بذنبهم، ومطالبون بالعمل الصالح، وموعدون بنار جهنم. فإذا كان هذا هو موقف الصحابي من أخيه الصحابي، ترى أي موقف كان للرسول (ص) منهم؟.

كان رسول الله (ص) يسكت عن حوله، ويسمى كل من حوله صاحب. وكان ذلك تساهلاً منه وتأدباً. وكانت كلمة صحابي تقال في موقع مختلفة. فتارة يذكرها في السفر وأخرى في الحضر، مرة يعني بها من صاحبه في الطريق. وأحياناً يقولها عن صاحبه في قضيته. وأخرى لمن أحاط به وسمع كلامه. ولهذا سمى الذين هموا بقتله بـ " أصحابي" ، يوم تبوك كما تقدم.

إن كلمة صحابي في عهد رسول الله (ص) كانت تأخذ طابعاً أدبياً يشترك فيها البر والفاجر، المؤمن والمنافق. ولم تكن العدالة منحة رخصة عند الصحابي في

^{١٤٤} سورة النساء (آية ٨٨)

^{١٤٥} تاريخ الطبرى (٤٥٩/٤) و الكامل (٢٠٦/٣) و النهاية لابن الأثير (٨٠/٥) و تذكرة الخواص (٦٦٦) و الفتوح (٢٤٩/٢ و ٢٥٥)

^{١٤٦} تاريخ الطبرى (٤٥٩/٤) و الكامل (٢٠٦/٣) و الفتوح (٢٤٩/٢)

عهد رسول الله (ص) بل هي أمر له صلة بعمل الإنسان، لذا قال لهم مرة:

”ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة

تأمره بالمعروف وتحثه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من

عصمه الله ١٤٧ .”

والقرآن يتحدث عن الصحابة بكل واقعية، ويستخدم عبارات تدل على أن

الصحبة ليست ميزة في ذاتها، بقدر ما هي مرهونة بما يقدمه الصحابي من عمل

صالح، يقول تعالى:

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحمة بينهم، تراهم ركعا سجدا يتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فأزرع فاستغلظ فاستوي على سوقه يعجب الزرع ليفظ بهم الكفار وعد الله الذين

آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ١٤٨ .﴾

كلمة ”منهم“ تعبير عن اختصاص فئة معينة بالمغفرة والأجر العظيم. ليس

ذلك لقاء تمحورهم وصحبتهم للرسول (ص) وإنما لقاء إيمانهم وعملهم الصالح.

وبمقتضى المفهوم بالمخالفة، يبقى منهم من ليسوا من أهل الإيمان ولا من

أصحاب العمل الصالح. وعلى ذلك الأساس يحرمون المغفرة والأجر العظيم.

وكان هذا هو شأن أهل بيعة الرضوان الذين قال فيهما تعالى:

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في

قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قربا ١٤٩ .﴾

فإن تخصيص فئة منهم بالثواب أمر اقتضاه الواقع من حالهم. إذ هناك من

حضر بيعة الرضوان وهو ليس من ذاك المقام. بل هناك من عرف بالنفاق. وقد

^{١٤٧} البخاري (١٧٣/٤)

^{١٤٨} سورة الفتح (آية ٢٩)

^{١٤٩} سورة الفتح (آية ١٨)

حضر بيعة الرضوان فيمن حضرها عبد الله بن أبي رأس النفاق، وأوس بن خولي. فكونهم من أهل بيعة الرضوان يستبطن مغزى عميقاً، لا بد من البحث عنه وراء منطوق الآية الكريمة. فالبيعة وحدها لا تكفي للحكم على أصحابها. فعنصر الزمن الذي يعكس مدى صدق هذه البيعة من خلال استمرارية أصحابها عليها أم تراجعهم عنها. فقيمة البيعة هي في مدى الالتزام بشروطها كلها، وتنحل تلك القيمة مع خروج أصحابها عليها. وكثير من حضر بيعة الرضوان لم يلتزم بتلك الشروط كما سنرى.

وكان ذلك متوقفاً على مدى صبره واستمرارهم عليه. وقد سمعوا ذلك من الرسول (ص) إذ قال لهم: "إنني فرطكم على الحوض من مر علي شرب وشرب لم يظماً أبداً، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفنوني ثم يحال بيني وبينهم فأقول أصحابي فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعده فأقول سحقاً لمن غير بعدي" ^{١٥٠}.

وفي هذا النص الصحيح معنى صريح، على أن ما ذهب إليه المؤخرون من تعريف للصحابي أو عدالته، ممحض أوهام، - فهم هنا - (ص) يقول: عرفنوني.. ومع هذا لم يشفع لهم ذلك في النجاة من النار.

وعن العلاء بن المسيب عن أبيه قال: لقيت البراء بن عازب (رض) فقلت "طوبى لك صحبت النبي (ص) وبايته تحت الشجرة، فقال: يا ابن أخي إنك لا تدرى ما أحدثنا بعده".

وروى الحميدي في الجمع بين الصحيحين في مسند حذيفة، أنه قال: "قال النبي (ص) في أصحابي اثنا عشر منافقاً منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلجم الجمل في سم الخياط وأربعة لا أحفظ ما قال فيهم".

قال (ص): "أترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" ^{١٥١}.

^{١٥٠} البخاري (٢٤٠٦/٥) و مسلم (٤٧٢/٤) ج ٤٧٣ و ٤٧٤ ح ٢٢٩٤ و ٢٢٩٧ ح ٢٢٩٥ و ٢٢٩١ ح ٦٢١٢ ح ٢٤٠٦.

٤٧٨ ح ٤٣٠٤

^{١٥١} البخاري (٦-٢٥٩٣-٢٥٩٤) ح ٦٢

هذه وأمثالها وكثير من النصوص القرآنية التي جاءت بعتاب الصحابة ولعن المنافقين منهم. وتحذير المذنبين وتخويف المؤمنين من خطر الارتداد. وهكذا يكون مفهوم الصحابي ليس له معنى أكثر مما يفيده لغويًا وإن الصحابة مثل باقي المسلمين معرضين للارتداد وقد جاء في السيرة، إن عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد أسلم وهاجر إلى المدينة وكتب الوحي للرسول (ص) وارتد في النهاية مشركاً^{١٥٢}.

وجاء في كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدُ..﴾^{١٥٣}. فالخطاب هنا موجه لجيل الصحابة، لأنهم أول المعنيين به.

^{١٥٢} الاستيعاب (٩١٨) والأصابة (١٠٩/٤)

^{١٥٣} سورة المائدة (آية ٥٤)

الفصل الثاني

الخلفاء والواقع التاريخي

موقف الإمام علي (ع) مثلاً

أدرك الإمام علي (ع) بعد كل ما وقع أنه قد وقع في مأزق وداخل شراك خطير فالعرب تظاهرت عليه واستضعفته وتيار الاغتصاب لم يركب الخلافة فحسب وإنما طوق بيت الإمام (ع)، وحاصره بعد أن مد جسور التعاون مع المنافقين وأدرك بعدها الإمام إنه أمام خيارين اثنين لا ثالث لهما:

- أن يجهز عليهم، فلا يبقى من تيار الاغتصاب رجلاً يذكر.
- أو أن يصبر وينتظر حالماً تعود الأمور إلى نصابها.

أما الخيار الأول فهو يسير على علي (ع) وهو من أربع بسيفه العرب واهتر لشجاعته الأبطال. وتيار الاغتصاب كان مدركاً لكل ذلك. غير أنهم أدركوا أن أباً الحسن لا يقاتل في أمر لا مصلحة للشرع فيه. أدركوا ذلك على مدى سنوات من الجهاد الذي كان يتزعمه علي (ع). ولذلك تجاسروا عليه وأبدوا بطولاتهم المزيفة. كان الإمام علي (ع) على علم تام بحقيقة هؤلاء الجبناء الذين ما ثبتوها في معركة، ولا نصروا الإسلام. ولكنه اختار البقاء متظراً.

والإمام علي (ع)! وهو ينتظر، لم يكن مكتوف اليدين، لم يكن انتظاره سلبياً كما يبدو للكثير.

كان علي (ع) نسيطاً يعمل حسب ما تسمح به الظروف متحركاً خلف الحصار المفروض عليه.

إن الذين التفوا حوله لم يكونوا على نفس الدرجة من الإخلاص. لقد كانوا على جانب من الذعر الذي أخافهم وثبة العرب عليهم. وكان علي (ع) يومها مستعداً لقلب الأوضاع بعد أن رأى الأمر في يديه الاعتصاب. ويدرك العقوببي إنه اجتمع جماعة إلى علي بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة، فقال لهم: "اغدوا علي محلقين الرؤوس فلم يغد إلا ثلاثة نفر^{١٥٤} ." وقال علي (ع) في بداية الأمر: "لو وجدت أربعين ذووا عزم لناهضتهم" . ولما لم يجد من هم كذلك، فضل الصبر "فرأيت الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى"^{١٥٥} .

علي (ع) إمام شرعي، وأمامه عصابة من المغتصبين لشرع الله. والمفروض إذ ذاك هو النهوض بالوضع بشكل يطير بهؤلاء مع مراعاة مصلحة الإسلام. والتقية كما يقول بعد ذلك الإمام الصادق (ع): التقية ديني ودين آبائي. فعلي (ع) أولى بالتقية وهو يعاصر مرحلة خطيرة عليه وعلى الإسلام.

وبالمقابل فإن تيار الاعتصاب راح يعتصد ببعضه البعض. ويفسّس له حلفاً متماسكاً. يتداولونها قهراً وغلبة. فأبوا بكر عهد إلى عمر من دون مشورة وهذا الأخير عهد إلى عثمان من خلال فبركة ملتوية. وكلهم وقفوا من علي (ع) موقفاً صارماً.

ولا بد من أن نشير إلى أن موقفهم من الإمام لم يكن في شأن جدارته، بل كان ذلك فيما يتعلق بالجانب السياسي.

بالإضافة إلى أن كثيراً من الواقع تشهد على ما كان من صراع حقيقي بين الثلاثة والإمام علي (ع) فالكل يحرض على إزاحة علي (ع) وهذا الأخير يعمل أيضاً ما في وسعه لإنقاذهم، لترتاح منهم الأمة. ويعود الأمر كما بدأ لأهله الذين يستحقونه.

^{١٥٤} العقوببي (١٢٦/٢)

^{١٥٥} شرح النهج (١٥١/١)

لقد اعتزل الإمام علي (ع) الخلفاء، ولم يشاركهم في المعارك. بعد أن كان هو قائدها على عهد رسول الله (ص) وذلك كله إعراضاً عن موقفه الرافض لشرعيةهم. وكان لا يتدخل إلا فيما أشكل على الناس من قضايا، يرمي من خلالها إلى الحفاظ على الحد الأدنى من الشريعة، كما يرمي من خلالها إلى إقامة الحجة على الناس وإظهار عدم أعلمية الخلفاء.

وكان (ع) لا يأتوه جهداً إلا وصرفه في طريق الهدم لواقع الاعتصاب، وعند ما يستشيره أحدهم في أمر لا علاقة له بالأحكام في أمور الرعية، كان يشير عليه بما يؤدي إلى الموت والهلاك. ففي معركة القادسية أشار على عمر بن الخطاب عندما استشاره هذا الأخير، بالمشاركة مع الجيش فنصحوه بعدم فعل ذلك خوفاً عليه من الموت.

ذكر المسعودي لما قتل أبو عبيدة الثقفي بالجسر شق ذلك على عمر وعلى المسلمين، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق، وعسكر عمر وهو يريد الشخص. وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيد الله وعلى ميمنته الزبير بن العوام وعلى ميسره عبد الرحمن بن عوف. ودعا الناس فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير، ثم قال لعلي: ما ترى يا أبا الحسن: أسيير أم أبعث؟.

قال: سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، فخرج من عنده فدعا العباس في جلة من مشيخة قريش وشاورهم فقالوا: أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فاستشاره فقال: إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمين ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً قال: أشر على من أبعث؟ قال قلت: سعد بن أبي وقاص، قال عمر: أعلم أن سعداً رجلاً شجاع ولكنني أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب ثم خرج فدخل عثمان عليه فقال له: يا أبا عبد الله أشر على أسيير أم أقيم؟ فقال عثمان أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش فإنه لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام، ولكن ابعث الجيوش ودار كها بعضها على بعض وابعث رجالاً له تجربة بالحرب

قال عمر: ومن هو؟ قال: علي بن أبي طالب قال: فالقه وكلمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعاً إليه أولاً، فخرج عثمان فلقيه علياً فذاكره ذلك فأبى علي ذلك وذكره ^{١٥٦}.

تحمل هذه الرواية عدة دلالات على مدى اعتزال الإمام علي (ع) عن الخلفاء، فهو يأبى ويكره أن يسير في جوشهم، فلو كانوا على جانب من الشرعية لكان علي (ع) أولى بكسب ذلك الثواب في الجهاد وفتح البلدان، وأنه أشار على عمر بن الخطاب بالمسير خلافاً لباقي الرجال، رغم إن في بعث عمر خطر على حياته. إن هذه الواقعية تثبت مدى حرص الإمام علي (ع) على عدم الاحتفال بمشاريع ذلك التيار وعدم تزكية أي خطوة من خطواتهم، وذلك عن طريق الامتناع عن تلبية طلباتهم وعدم نصرتهم. والإشارة عليه - إذا استشير - بما يهدد أركان الاغتصاب ويسهل عودة الخلافة إلى وضعها الشرعي. وهذا الخذلان من جانب الإمام علي (ع) هو الذي دعى بنو أمية للتحامل عليه في أمر عثمان. وكان عمر بن الخطاب متوقعاً لأي محاولة من محاولات القتل من قبل علي (ع) وذلك ما رأيناه في مقتل عمر بن الخطاب، عندما التبس عليه الأمر، فطلب بي هاشم، ليتحقق معهم في الأمر.

ذكر بن قتيبة وغيره:

لما طعن عمر قال لابن عباس، أخرج فناد في الناس أعن ملأ ورضى منهم كان هذا؟ فخرج فنادى فقالوا: معاذ الله ما علمنا ولا اطلعنا فقال: يا علي أعن ملأ منكم ورضى كان هذا؟ فقال علي (ع) ما كان عن ملأ منا ولا رضى ^{١٥٧}. كان لعلي (ع) أصحاب موالون، وهو من أهل السابقة. وكلهم كان راضياً لبيعة أبي بكر في السقيفة. وقد جاء ذكرهم آنفاً، وعلى رأسهم: سلمان الفارسي، أبو ذر الغفارى، عمار بن ياسر، ابن عباس، مالك الأشتر. هؤلاء كانوا قد تفرقوا في البلدان وأصبحوا يدعون سراً لولاية الإمام علي ^{١٥٨}

^{١٥٦} مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٨.

^{١٥٧} الإمامة والسياسة ص ٢٢.

^{١٥٨} أقول، إن الدعوة إلى قتل عثمان كانت ترافقها بالتوابي الدعوة إلى ولاية علي (ع) وسوف نرى ذلك في حديثنا عن المقتل في تاريخ ابن خلدون!.

فهذا سلمان كان بالمداين وهي التي عرفت بعد ذلك بالتشييع الشديد لأهل البيت
وذاك عمار بن ياسر بمصر أيام عثمان كان يدعوا إلى ولایة الإمام علي (ع).

يقول بن خلدون: وكان - أي عمار - يكثر الطعن على عثمان ويدعو في
السر لأهل البيت، ويقول: "إن محمداً يرجع كما يرجع عيسى" ^{١٥٩}.

وبقوا على ذلك حتى ورد عثمان حيث كان الظرف مناسباً لإثارة الناس
عليه بكل وضوح وحيث إن فترة عثمان عرفت نوعاً من التهور بحيث تمكّن
أنصار علي (ع) من تأليب الأنصار عليه. وإنه ليس غريباً أن تتوحد مواقف
هؤلاء الأنصار وأن تكون كل حركاتهم بأمر من الإمام علي (ع) كيف ذلك
وهم يعترفون له بالإمامية ولا يقumen بشيء دون مشورته.

ولذلك رأينا كيف أن شيعته بالكوفة والبصرة ومصر هم الذين جاؤوا بالوفود
فكان مالك الأشتر على رأس الوفد الكوفي بينما حكيم بن جبلة كان على
رأس الوفد البصري، في حين ترعم الوفد المصري محمد بن أبي بكر وهؤلاء هم
أيضاً من اقتحم الدار على عثمان ونفذ فيه عملية القتل. ورأينا أن علياً هو الذي
كان يتوسط وبديه أمور الصلح وهو الذي رد الوفود بكلمة قالها. وهو الذي سكت
حين رجعوا، فنفذوا حكم القتل في عثمان. ولا عليك من قصة بعث الإمام
لابنيه لحراسة عثمان. كيف يبعث ابنيه لصد ثورة عارمة تقف خلفها جماهير جرارة.
وهل الحسن والحسين إلى تلك الدرجة من الصغار حتى يأتي أبوهما فيصفعهما
لما قتل عثمان. فهل يعقل من أمير المؤمنين وإمام الأمة أن يؤخذ سيداً شاباً أهل
الجنة وأئمة المستقبل، على عدم رد ما لا طاقة لهما به، ولو كان كما صوروه رافضاً
لقتل عثمان، إذن لكان أخرى أن يأتي إلى باب الدار وهو يعرف أن لا منفذ لعثمان
من هؤلاء سوى كلمة قد تصدر عنه، ولما رفض الرجوع إلى عثمان وعدم
الاستجابة لنجدته في نهاية المطاف. فكيف يلطم ابنيه وهو يعلم أن هؤلاء من كان
ينازع أباً بكر وعمر في عهدهما أمام الناس ويستنزلون من قدرهم. فكان أخرى أن
يضربهم على ما فعلوه في الشيدين من قبل. وقد كانوا أصغر من سنهما ذاك. فقد

^{١٥٩} تاريخ ابن خلدون (٥٢١/٢)

جاء الحسن ^{١٦٠} مرة إلى أبي بكر وهو على منبر رسول الله (ص) فقال: انزل عن مجلس أبي وفعلها الحسين مع عمر ^{١٦١}.

وهل كان من المعقول أن يرفض زعماء الوفود توسط علي (ع) فيما لو أراد عليه السلام ذلك. وهم من كانوا لا يخطون خطوة إلا بإذنه. وبعد مشورته كما يتبيّن من الواقع والقرائن المستفيضة. وهم كانوا من خلص شيعته. وكان أحرى به عليه السلام أن يلطم هؤلاء الذين قتلواه أو تزعموا قتله. بدل الثناء عليهم والاهتمام بهم. ودعنا أولاً وقبل كل شيء أن نرى كيف كان حال هؤلاء الأنصار، وهل في سيرتهم ما يؤكّد على أنهم كانوا متّمرّدين بلا ولاء ولا خلفيات.

كان زعماء الوفود وطلائع التمرد هم محمد بن أبي بكر و محمد بن أبي حذيفة بمصر و مالك الأشتر في طليعة الوفد الكوفي و حكيم بن جبلة العبدى كان على رأس الوفد البصري .^{١٦٢}

على أي شئ قاتل هؤلاء وعلى أي مأرب خاضوا كل هذه الثورات.
فاما عمار الذي ثار على عثمان وساهم في قتله، ظل حليفاً وفياً للبيت
النبوي، ومن أنصار الإمام علي (ع) والذين شاركوا في كل حروبه حتى
استشهد في صفين. وكان موقفه على جانب من الحجية.
ذكر المسعودي: ^{١٦٣} وقد كان عمار حين بويع عثمان بلغه قول أبي سفيان
صخر بن حرب في دار عثمان عقب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره
ومعه بنو أممة فقال أبو سفيان: أفيكم أحد من غيركم؟.

^{١٦} كفاية الطالب (٤٢٤) ، والرياض النصرة (٢٠٣/١) ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى

^{١٦} تاريخ الخلفاء للسيوطى (١٤٣). والأصابة (١/٣٣٣) و تاريخ بغداد (١٤١/١)

^{٦٦} الكامل (١٦١/٣) و العقد الفريد (٢٩٢/٤) و تاريخ أبن عساكر (٣١٥) و شرح النهج (٢٧/٣).

١٦٦ مروج الذهب ج ٢، ص ٣٥١ - ٣٥٢

(وغير ذلك الكلام) فقام عمار في المسجد فقال: يا معاشر قريش، أما إذ صرتم هذا الأمر عن أهل بيتك هنا مرة فما أنا آمن من أن يتزعزعه الله منكم فيضعله في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله.

"أما المقداد الذي جاء اسمه في لائحة المعارضين للسقيفة. فإنه كان من الناقمين أيضاً، على عثمان. وكان ذلك على أساس إيمانه بحق الإمام علي (ع) وأهل بيته". فقال:

"ما رأيت مثل ما أؤذى به أهل هذا البيت بعد نبيهم، فقال له عبد الرحمن بن عوف:

وما أنت وذاك يا مقداد فقال: إني والله لأحبهم لحب رسول الله (ص) إياهم، وإن الحق معهم وفيهم، يا عبد الرحمن أعجب من قريش وإنما تطولهم على الناس بفضل أهل هذا البيت - قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله (ص) بعده من أيديهم أما وأيم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالي إياهم مع النبي (ص) يوم بدر، وجرى بينهم من الكلام خطب طويل".^{١٦٤}

إن منطق الاصلاح كان هو الذي يوجه هؤلاء جميعاً. وكان برنامجهم موحد. لقد أعطيت لهم الدنيا ودنت منهم أكثر من مرة، ولكنهم رفضوها. فهم لا يقاتلون على مَارب رخيصة. كان سهم منذ السقيفة أن يدمروا بنيان الخلافة الزائف وإقامة صرح الإمامية الشرعية.

ولنعد إلى مجريات الأمور لتبين كيف أن هؤلاء كانوا قد نفذوا الحكم الثوري على عثمان انطلاقاً من مشورة حقيقة للإمام علي (ع).

لقد كان ثمة صراع حقيقي بين علي وعثمان. وبلغ بالإمام أنه بدأ يبدي اعتراضه الصريح على عثمان ولا يأبه بأي تهديد منه، كيف يسكت علي (ع) وهو لم يسكت قبلها إذ سكت إلا مراعاة لحرمة الإسلام وحواريي الرسول (ص). أما وقد بدأ عثمان يختلف في الدين ويستهزئ بشرعيته، وينزل من مقام حواريي الرسول (ص) ويرفع من شأن الطلاق، فلما يكون السكوت أحجاً. ول يكن ما يكون.

فعلي (ع) كان يريد أن يعيد الأمر بشكل جذري، غير أن الظروف اقتضت أن يستثمر ما تتوفر لديه من رجال مخلصين، بابيعوه على الموت. ومن تلك الأمثلة التي واجه فيها علي (ع) عثمان، ما ذكره المسعودي في مروج الذهب، عندما اجتذب الإمام علي (ع) الوليد وضرب به الأرض وعلاه بالسوط ليقيم عليه الحد عند شرب الخمر، ورفض عثمان لذلك وخوف الناس منه، فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا.. قال: بل وشرا من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه.

وذكر - أيضا - إنه عندما أزمع عثمان على تسيير أبي ذر الغفاري (رض) إلى الربذة، ومنع الناس أن يسيروا معه، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه علي بن أبي طالب ومعه ابناه وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر، فاعتراض مروان فقال: يا علي إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصجروا أبا ذر في مسيره ويسشعوه. فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط وضرب بين أذني راحلته، وقال: تنح حاك الله إلى النار. ومضى مع أبي ذر فشييعه ثم ودعه وانصرف، فلما أراد علي الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحّمكم الله أهل البيت، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله (ص) فشكراً مروان إلى عثمان ما فعل علي بن أبي طالب، فقال عثمان: يا معاشر المسلمين من يعذرني من علي؟ ردّ رسولي عما وجهته له، وفعل كذا، والله لنعطيه حقه فلما رجع علي استقبله الناس، فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر، فقال، غضب الخيل على اللجم. هذه الواقعة تثبت أهمية الصراع الدائر بين علي وشيعته وعثمان وبطانته ووصلت تلك الحدة درجة من الخطورة أصبحت فيها الأمور أوضح من الشمس في رائعة النهار.

ذكر المسعودي ما جرى بين علي وعثمان في ذلك الشأن وأظهر ما جرى

بينهما من مشادات كلامية تعبّر عن حدة ذاك الصراع، يقول:^{١٦٥}

^{١٦٥} مروج الذهب (ج ٢ ص ٣٥١)

قال عثمان: ما حملك على ما صنعت بمروان ولم اجرأت على ورددت رسولي وأمري؟!

قال: أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردي، وأما أمرك فلم أرده،
قال عثمان: ألم يبلغك إني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشيعه؟ فقال علي:
أو كل ما أمرتنا به من شئ نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك؟ بالله
لا نفعل، قال عثمان: أقد مروان، قال: ومم أقيده؟ قال: ضربت بين أذني راحلته
وشتمنه، فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك، قال علي: أما راحلتي فهي
تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأما أنا فوالله لئن شتمني
لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقا. قال عثمان: ولم لا
يشتمك إذا شتمته، فوالله ما أنت عندي بأفضل منه؟! فغضب علي بن أبي
طالب وقال:

ألي تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل
من أبيك، وأمي أفضل من أمك، وهذه نبلي قد نشلتها، وهلم فانشل بنبلك،
فغضب عثمان واحمر وجهه، فقام ودخل داره.

لقد كان البرنامج، والملف المطلبي للوفود المتمردة ببرنامجا رساليا وملفا
مطليبا منسجما مع متطلبات الشريعة الإسلامية وكان علي (ع) معززا ومزكيا
لهم في ذلك.

وعندما جاءت الوفود هرع عثمان إلى علي (ع) ليتوسط له مع القوم ويردهم
عنه.

وفي ذلك دلالة على مدى الولاء الذي كان يجمع بين علي وهؤلاء الثوار
فقال له علي (ع) على أي شئ أردهم عنك؟ قال: على أن يصير إلى ما أشرت
إليه ورأيته لي .^{١٦٦}

لقد كان الشرط الوحيد لعلي (ع) هو أن ينال الطاعة من عثمان فقال
له (ع) إني قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك لخرج وتقول ثم ترجع

^{١٦٦} ابن الأثير (١٦٢/٣).

عنه، وهذا من فعل مروان وابن عامر وinaire وعبد الله بن سعد، فإنك أطعهم وعصيتي قال عثمان: "فأنا أعصيهم وأطيعك" ^{١٦٧}.

غير أن عثمان وبطانته كانوا قد خانوا العهد فرجعت الوفود جميعها. تطالب بقتل عثمان وجماعته وكانت آخر كلمة لعلي (ع) قالها لعثمان: "ما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك" ^{١٦٨}.

وبقي كذلك، ولم يجب طلب عثمان، وهو يعلم أن ذلك يؤدي به إلى الموت حتما.

والذين قتلوا عثمان، كانوا هم من بايع عليا (ع) وأصبحوا ساعده الأيمن. ولم يقل فيهم شيئا. ولأعاتبهم على شيء من ذلك البتة، بل قد دافع عنهم، وكان بينه وبين مinaire أن يسلم له قتلة عثمان، لكن الإمام قاتل بهؤلاء بقايا الأمويين. واشتدت عرى ولائهم له.

وكان محمد بن أبي بكر الذي طعن عثمان ومالك الأشتر هم عماله الثقات على الأمصار، وهم الذين زكي الإمام علي (ع) ثورتهم بأن جعل ثقته فيهم في إقامة الذين ومتابعة الاصلاح. فعندما أراد أن يبعث محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة.

قال لهم: إني اخترتكم على الأمصار وفزعتم إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعونا وأنصارا وانهضوا إلينا، فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخوانا ^{١٦٩}.

لقد كان موقف علي وشيعته الأوائل واصحوا لأعداءه. ولهذا سرعان ما اهتزت عائشة، التي كانت بالأمس تقول: يا معاشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته، فقال عثمان: "رب اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم" ^{١٧٠}.

^{١٦٧} ابن الأثير (١٦٢/٣)

^{١٦٨} ابن الأثير (١٦٦/٣)

^{١٦٩} ابن الأثير (٢٢٦/٣)

^{١٧٠} اليعوقي (١٧٥/٢)

تقول اليوم: يا أيها الناس إن عثمان قتل مظلوما والله لأطلبن بدمه وكانت تقول: "يا عشر قريش إن عثمان قد قتل، قتله علي بن أبي طالب، والله لأنملة أو قالت لليلة من عثمان خير من علي الدهر كله".^{١٧١}

إنهم رأوا كيف أن عليا (ع) كان على اتصال بالثوار وأن قيادات الثورة وطلائعها كانوا من خلص أصحابه، والساعد الأيمن له بعد بيته وأنه حريص على تبرئتهم والدفاع عنهم وكان علي (ع) قد دخل على نافلة بنت الفرافصة زوجة عثمان قال لها: من قتله وأنت كنت معه؟ قالت: دخل إليه رجلان وقصت خبر محمد بن أبي بكر، فلم ينكر ما قالت، وقال:

والله لقد دخلت عليه وإنني أريد قتله، فلما خاطبني بما قال خرجت، ولا أعلم بخلاف الرجلين عندي، والله ما كان لي في قتله سبب ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله.^{١٧٢}

نعم.. هذا هو منطق الإمام علي (ع) منطق الثورية وأسلوب التقية فهو قتله ولم يقتله. قتله لما ذكر استحقاقه للموت والهم بقتله ولكن ما كان له سبب في قتله تلك الليلة ولا علم بقتل عثمان وكيفية ذلك. إنها عين التقية التي مارسها الأنبياء. وأشبه ما تكون بموقف إبراهيم (ع) في رد المشركين إلى كبير الأصنام. وعدم اعترافه بهدمها. إنها تقية واجبه في هذا المقام. على أنبياء الله كما على أولياءه. ييد أن الإمام علي (ع) لم يستطع أن يتقي كل من حوله ممن رأى خلفية الثورة، وهؤلاء بلا شك كانوا أصحاب أطماع وأهواء أخرى، حاولوا تحقيقها من خلال طلب الثأر لعثمان. غير أن الشعار كان حقيقيا، إذ كثيرا ما أريد بكلمة الحق باطلة. فعلي (ع) هو قاتل عثمان. لما كان هذا الأخير مغتصبا. وكان الواجب يفرض على علي (ع) إزاحة الباطل. فمن أهدى من علي (ع) ومن أحرص منه على إزاحة الباطل!.

وللإمام علي (ع) خطبة حول المقتل يحسن بالمتذمرين في ثناياها أن يعي حقائقها.

^{١٧١} الفتوح (٢٤٨/٢)

^{١٧٢} مروج الذهب (٣٥٤/٢)

قال (ع): "لو أمرت به لكت قاتلا، أو نهيت عنه لكت ناصرا. غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هو خير مني: وأنا جامع لكم أمره، استأثر فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزء، والله حكم واقع في المستأثر والجائز ^{١٧٣} ."

فموقف الإمام واضح من خلال ما ينطق به النص إنه لم يأمر ولم ينه. ونحن دائماً نصرف ذلك للتقية. نظراً لما بين أيدينا من قرائن، كتلك التي تتعلق بالظروف التي عاشها. ونظراً لموقفه الجذري من اغتصاب الخلافة. وقد كان الإمام كما سبق القول على جانب من القدرة في رد المعتدين. فسكتوه هنا كسكتوه على الخلافة من قبل. فهي مدارات يتقي بها ارتداد الناس وحمية الجاهلية. وقد سأله يوماً: أرضيتك بقتله؟ فقال: لم أرض، فقيل له: أسرخت قته؟

فقال:

لم أسرخ ^{١٧٤} فإذا لم يكن راض يعني أنه ساخط. ولكن الإمام يريد أن يقول لهم. إن قته لا يرضيه، ما دام إن الأمور لم تحل من جذورها. ولكن هذا لا يعني أنه يسرخ بقتله.

وذكر بن أبي الحديد من أقواله المختلفة والكثيرة، قوله تارة، الله قته وأنا معه. قوله أخرى، كنت رجلاً من المسلمين أوردت إذ أوردوا، وأصدرت إذ أصدروا. (الشرح ٤٣/٢).

لقد ذكر الرسول (ص) في حديث له: إن علياً سيقاتل على التأويل. وكان عثمان أشد الخلفاء محاربة للتأويل وذلك بتبعه القراء ومعاقبهم كابن مسعود وحرقه القراءين وتأويلها. وتجدر الإشارة إلى تلك المصادفة العجيبة التي ترامت مع الثورة على عثمان ومباهة علي (ع).

إذ جرى ذلك يوم الثامن عشر من ذي الحجة. وهي الذكرى السادسة والعشرين لواقعة العدیر الذي فيه خطب الرسول (ص) في المسلمين معلناً ولاية علي (ع) استجابة للنداء القرآني ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك، فإن لم تفعل فما

^{١٧٣} شرح النهج (١٢٦/٢)

^{١٧٤} شرح النهج (١٢٨/٢)

بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴿١٧٥﴾ .

ترى هل كانت تلك محضر مصادفة أم إنها تدبير إلهي خفي لجعل ذكرى يوم التنصيب، ذكرى لإنقاصاء المغتصب وتنصيب علي (ع) أقول، إنه لو لم تكن ثورة شيعة علي (ع) هي التي جاءت بعلي (ع) وفرضت ولايته لما رأها بنو هاشم البتة. ولكن عثمان عهد بها إلى أحد من بطانته أو لفعل مثل ما فعله شيخاه. إن في الأمر من التوافق ما يثير الانتباه. فسبحان من له في خلقه شؤون!.

^{١٧٥} سورة المائدة (آية ٦٧)

الباب الثاني

أزمة التاريخ

أم أزمة مؤرخين؟

نموذج ابن خلدون

التاريخ لماذا؟

كثيراً ما كانت الطريقة التي سلّكها المؤرخون في بحث أحوال الماضي من هذه الأمة موغلة في التواطؤ تارة وفي الغباء طوراً فالأحداث كما تقع في الماضي تختلف كلها عما يكتب على أديم التاريخ. وذلك كله راجع إلى أسباب معينة، قصية بأن تكون مقدمة لهذا الباب، ومدخلاً لفهم صراحته وجرأته في تناول الحقائق التاريخية في صورتها الجلية.

إن تراثنا تشكّل من خلال لعبة تاريخية. وقفت من ورائها سلطة الخلفاء التي كانت تنهج نهجاً تحريفياً في كل المؤسسات الاجتماعية والثقافية. من أجل خلق واقع منسجم. تتطابق فيه البنى السياسية بالاجتماعية والثقافية. ولأن القطاع الثقافي والتعليمي يشكّل ركيزة المجتمع الحضاري. وأساساً للدولة العقائدية. فإن المؤسسة السلطانية لعبت دوراً كبيراً في إعادة ترتيب محتوياتها الداخلية. من أجل سلب العناصر النقيضة لتلك المؤسسة. وتفریغ كل ذلك المحتوى من كل ما من شأنه أن يكون قبلة موقوتة تهدّد بقاء تلك المؤسسة.

وليس عجياً أن يذكر التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك. تعكس حرص المؤسسة السلطانية على التصرف في الجهاز المعرفي والثقافي للأمة. ونزع حالة من الشمولية تجعل الفكر محكوماً برقابة شديدة وتحت رحمة الرغبة الخلفائية.

ومن هنا تبين كيف أن التحرير لم يخدم فقط الواجهة السياسية. بل انعكس ذلك أيضا على فلسفة التاريخ وعلى مناهج التاريخ وشخصية المؤرخ. فبعض المؤرخين تألق نجمهم وتلألأ في سماء التراث الإسلامي. على الرغم من صغر حجمهم. ونبوغ غيرهم، ذلك بأن المؤرخ كان نفسه يعاني أخطر مهنة في الماضي وأن مهنة التاريخ كانت أخطر مهنة يمكن تصورها ساعتيذ. ومن هنا كانت الشهرة والألمعية من شأن المؤرخين المتزلفين للباطل والمدافعين عن نهج الخلفاء. تعطى لهم الامتيازات بسخاء، وتقدم لهم المناصب على أطباقي من ذهب. في حين انطفأ فيه نجم التابعين الذين أنفوا حياتهم في العلم وبرعوا في هذه الصناعة. وترفعوا عن الاختلاف إلى أبواب الخلفاء.

فكل ذلك كان بسبب ما تقتضيه السياسة من تحرير الحقائق وتزوير الأحداث بما يتفق مع نهجها السياسي أو هوها السلطاني. وما تلزمه تلك العملية من تقرير المتزلفين وتهميش العلماء المستقلين.

وعلى الرغم من كل ذلك يبقى التاريخ ضرورة لا غناء عنها فالنظر في أحوال الماضي ضرورة علمية لا مناص من مزاولتها. لأنها وحدها كفيلة بأن تطلعنا على حقيقة ما جرى في الماضي لفهم ما يجري في الحاضر. وفيما يتعلق بالتراث الإسلامي، لا بد من تركيز الاهتمام بالتاريخ ومناهجه وكيفية ضبط الوثائق ونقدتها وتحليل حفرياته. لسبعين بسيطين:

الأول: لأن الرواية - وهي شأن تاريخي تعتبر أساسا لكل ما له علاقة بالإسلام.

من فقه وأصول وكلام وتفسير ولغة و...

فالقرآن وهو أهم مصدر في الثقافة الإسلامية لم يكن يهم الأجيال فيما لو كانت الرواية التاريخية لا أهمية لها على المستوى العلمي. فالقرآن وصل عبر الرواية والمصاحف المعهوم بها اليوم تعتمد على رواة تاريخيين. هذا بالإضافة إلى السنة المدونة التي ابتدأت بالرواية ولا زالت فال التاريخ نافذة ضرورية لا مهرب من حكمها.

الثاني: لأن الإسلام كان دائما يوجه إلى فتح نافذة التاريخ للوقوف عند تجارب

الأمم، واستخلاص العبرة منها بما يصلح لإفادة الحاضر والمستقبل.
والقرآن يتسع لفيف من تلکم الآيات التي تحت على تدبر الماضي
وقراءته قراءة تاريخية منتجة، ويستخدم كلمتين في شد الناس إلى التاريخ
ويركز كثيرا على أحدهما.

والكلمتان هما: الماضي. والماقبل.

ففيما يتصل بالماضي، يذكر القرآن آياتان:

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمُضْرِبًا مُثْلَ الْأَوْلَى﴾^{١٧٦}.

﴿وَأَنْ يَعُودُوا فَقْدَ مَضَتْ سَنَةُ الْأَوْلَى﴾^{١٧٧}.

وربط كلمة ماضي بالأولين، في حين استخدم عبارة (ما قبل، من قبل).
كثيرا. إنه لا يعتبر الماضي أمرا غابرا، خصوصا في مقام الحديث عما يفهم منه
 الحديث عن السنن الاجتماعية. فإنه يستخدم عبارة ما قبل، أو من قبل. ليبين بأن
 المسألة لها صلة بكل أطوار التاريخ. وبأن الحدث الواقع في الماضي هذا له
 امتداداته المنطقية على الحاضر والمستقبل. ومن هنا، يبين بأن النظر إلى
 الماضي وهو نظر في الحاضر والمستقبل. نظرة من الخلف. وذلك هو أرقى
 مبدأ في فلسفة التاريخ. وأهم قاعدة في منهجه.

يقول تعالى: ﴿سَنَةُ اللهِ فِي الَّذِينَ مِنْ قَبْلِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدْرًا

مقدورا﴾^{١٧٨}.

﴿سَنَةُ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدْ لِسَنَةَ اللهِ تَبْدِيلًا﴾^{١٧٩}.

﴿وَإِنْ تَوْلُوا كَمَا تُولِّتُمْ مِنْ قَبْلِ يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^{١٨٠}.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ﴾^{١٨١}.

^{١٧٦} الزخرف / آية ٨

^{١٧٧} الأنفال / آية ٣

^{١٧٨} الأحزاب / آية ٣٨

^{١٧٩} الأحزاب / آية ٦٢

^{١٨٠} الفتح / آية ١٦

^{١٨١} الحديد / آية ١٦

﴿فَإِنْ كَذَبُوكُمْ كَذَبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ جَاءُوكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾^{١٨٢}.

بعد هذا كله لم يعد ما يحجب الإنسان الباحث حقيقة النظر في تاريخ الأمم لفهم طبيعة ما يجري في الحاضر. إذ ليس الحاضر إلا امتداداً لذلك الماضي مأسور بحاله مثقل بأوزار.

لقد أحدث الإسلام في بداية الدعوة قطيعة تاريخية بكل ما سبق من جهالات ولكننا لم نفز نحن بكتاب يحدث بيننا وبين ما رزح به تاريخنا، قطيعة تجعلنا نربط مباشرة بالإسلام المحمدي مباشرة وندخل في أجواء النص بدون عوائق.

^{١٨٢}آل عمران / آية ١٨٤.

لَاذَا بن خلدون؟

انتقينا من بين المؤرخين، بن خلدون، كنموذج لدراساتنا عن أزمة التاريخ والمؤرخين الذين تعاطوا بشكل سلبي مع كثير من الواقع التاريخية وابن خلدون هو مؤرخ له ميزاته المعروفة.

فهر رائد العقلانية التاريخية ورائد فلسفة التاريخ الإسلامي. ولأنه يشكل نموذجاً للمؤرخ المغربي الذي تميز ب موقفه من الإمامة والأئمة. ولعل الأستاذ حسن حيدر صاحب الكتاب النفيس " جعفر الصادق والمذاهب الأربعة " هو الكاتب المشرقي الوحيد الذي انتبه إلى بعض من تلك الفلتات الناصبية. وعلى أساسها قام بكتابية مؤلفه العملاق حول الإمام الصادق.

إن ابن خلدون، من المؤرخين الذين لا يحتفل بهم في أمور التاريخ الإسلامي الموثوق، ذلك أنه بالإضافة إلى اعتباره ناقلاً عن المؤخرين. فإن هموماً فلسفية كثيرة كانت توجه بن خلدون في تأويل وقائعه. وأهدافاً إيديولوجية أخرى كانت تفرض عليه ضرورة من القراءات المتهاففة في وقائع الماضي. ولأنه مؤرخ بعيد عن اهتمام المغاربة. وكان قد عاش في أحضان سلطنة المغرب. وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يكن سوى ناقلاً للأحداث. معتمداً على مؤرخين سابقين له أمثال ابن جرير الطبرى، واليعقوبى، والمسعودى، إلا أنه حاول التصرف في تلك الأحداث المنقولة والاختصار فيها بشكل يسعى إلى حقيقتها. وكل ذلك استجابة لرغبات مذهبية جامحة كانت تتحكم في ذهنية بن خلدون وأسلوبه في التاريخ.

تقوم ميزة التاريخ الخلدوني على أساس إبداعه في مجال تطور العمران ونشوء الدول، وما إليها من أمور كان بن خلدون فيها صاحب قصب السبق من بين جموع من المؤرخين وعلماء الاجتماع. وبذلك كان مكتشفا لقوانين تاريخية واجتماعية واقتصادية، كانت أساسا في نشوء مذاهب وتيارات في العصور التي جاءت بعده. إن فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد ونظرية المادية التاريخية. كلها من اكتشافاته الأولى. وهذا ما يجعل ابن خلدون متميزا عن باقي من سبقه أو عاصره في هذه الصناعة.

وما يهمنا هنا هو الجانب التاريخي من اختصاصه. حتى نقف عند أقواله في شأن الإمامية وتاريخ الصراع حول الخلافة ومجموعة وقائع أخرى. لنكتشف عناصر المناسبة فيها. ولتبين مدى فرادته في هذا المجال. ولنوقف مصاديقه العلمية هذه المرة في محك التاريخ.

ابن خلدون، المؤرخ!

إذا أخذنا ابن خلدون كمؤرخ بعيداً عن ابن خلدون الاجتماعي أو عالم الاقتصاد سنكتشف أنفسنا أمام شخصية أخرى جديدة إنه ابن خلدون الذي لا يختلف عن سبقه من مؤرخي الخلفاء والمبررين للخلافة. شأنه في ذلك كمن احتضنهم البلاط ووسع عليهم في العطاء.

والذين درسوا ابن خلدون من هذه الزاوية، اكتشفوا ذلك الانفصام في شخصيته، واكتشفوا الأسلوب الآخر الذي كان يعتمد في الكتابة التاريخية، وهو أسلوب موغل جداً في الجمود واللاعقلانية. يعتقد هاملتون جيب، وهو من دارسي ابن خلدون الكبار أن هذا الأخير ليس إلا مثلاً لمن سبقه من الفقهاء المترمّين. فابن خلدون في نظره " مجرد فقيه مالكي، كان يهدف إلى تبرير واقع الخلافة كما فعل قبله الماوردي والباقلاني والغزالى ".

ويعود ليوقف ابن خلدون في مستوى الحقيقى، رداً عن رام المبالغة في تصوير استقلاله الفكرى. " وإن شئت أن أوضح هذا النقص الذى أشير إليه توضيحاً عاماً قلت إنه يكمن في الميل إلى المبالغة في تصوير استقلال فكر ابن خلدون، وأصالته وهو ميل ناشئ عن سوء فهم لنظرته وخاصة من حيث علاقتها بالمسائل الدينية ^{١٨٣} .

^{١٨٣} راجع النظم و الفلسفة و الدين في الإسلام ، فصل الأصوات الإسلامية في نظرية ابن خلدون السياسية / هاملتون جيب .

وقد بالغ بن خلدون في تبرير واقع الخلافة حتى صوره أ. ف. غويتيه بكونه شخصية وقحة، لا تعرف سوى حقوق القوة، أو الواقعية، واعاجزة عن أن تدرك غير الطغيان^{١٨٤}.

ليس المقصود من التوقف عند بن خلدون أن نقدم للقارئ تحليلًا عن حياته وكتاباته. وأنما نريد هنا التطرق مباشرةً لطريقته في تناول الأحداث المتصلة بقضية الإمامة وأهل البيت وتاريخ الخلاف.

كانت اهتمامات ابن خلدون الأولى منصبة على الفلسفة بالدرجة الأولى والفقه واللغة. من جهة أخرى.

وكان العصر الذي عاش فيه يتميز باضطراب شديد، خصوصاً في منطقة المغرب والأندلس. فسقوط دول وقيام أخرى. يغير ويبدل من أحوال البلاد ويعيد الأمور صوب وجهة جديدة. فالأنصار اليوم هم الأعداء غداً. والأعداء اليوم يتحولون بفعل التحول والانقلاب في الدول إلى أنصار ووزراء. وكان هو ضحية لأعمال السياسة الفاشلة. إذ أنه قضى جل حياته متقلباً بين السجون والبلاط. وعلى امتداد المغرب الإسلامي، كان بن خلدون إما متأمراً أو متزلفاً. إلى أن تحول إلى مسالم يعتزل السياسة ويعتزل إلى العلم. والعلم الذي استهواه في نهاية رحلته، كان هو التاريخ. من أجل تضمينه بتجربته والإفاضة عليه بما اكتسبه من خبرات. ومن هنا جاء مؤلفه الشهير "العبر". والمتبوع لتاريخ بن خلدون يدرك الأسباب التي جعلت ضحية التزعة الجبرية والتشاؤمية أحياناً. واهتمامه بالدول والعمران نشئهما وزوالهما، كل هذا كان انعكاساً لتجربته الطويلة والمرة.

وسوف نطلع على نص لابن خلدون، يؤخذ فيه مناهج المؤرخين الذين جاء على أثرهم. ويعتبر نفسه صاحب الفضل في اكتشاف ما يصلح للأخبار عن الماضي، لكي نحاسبه على ضوء عقلانيته في مقام تناولنا لمسألة الإمامة والخلافة في تاريخه. يقول:

"ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على

^{١٨٤} ابن خلدون، إيف لاكوسن - ترجمة ميشال سليمان.

ذلك المنوال ويحتذى منه المثال، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال، فيحجبون الأخبار عن الدول، وحكايات الواقع في العصور الأول صورا قد تجردت من موادها، يكررون في موضوعاتها الأخبار المتداولة بأعيانها اتباعا لمن عني من المتقدمين بشأنها، ويفغلون أمر الناشئة في ديوانها، ثم إذا عرضوا الذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا محافظين على نقلها وهمأ أو صدق، لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها، ولا علة الوقف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعا إلى انتفاء أحوال مبادئ الدول ومراتبها، مفتشا عن أسباب تراحمها أو تعاقبها، باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسبها^{١٨٥}.

وكان مما وقع فيه ابن خلدون من مآزر إله كان يصطنع للسلطين الذين تزلف لهم، قصصا لا رصيد لها من الواقع. وأن ينسب زعماء الدولة الحفصية إلى عمر بن الخطاب. كما جاء في قصيده للخليفة أبي العباس (١٣٧٠ - ١٣٩٤ م)، جاء فيها:

وكان الحفصيون، قوماً من البرير من قبيلة هنّابة وهي جبال مصمودة ببلاد المغرب الأقصى. هذا وكثير مثله من أمثلة التزوير والتزييف التي كان يقوم بها ابن خلدون. وسكته عن الكثير من الواقع التاريخية حفاظاً على سمعة السلطان. وتأويله لكتير من الأحداث. كما ستر في مثال تأريخه لوقائع العهد الأول وعصر الفتنة ومسألة الخلافة.

١٨٥ المقدمة / ابن خلدون ص ٥.

ابن خلدون ووفاة الرسول (ص)

وبدء الخلافة!

للسقيفة علاقة وثيقة بما جرى في حجة الوداع من تأمير علي (ع) على المسلمين، والإعلان عن خلافه للناس ولا يمكننا فهم الواقع التي جرت داخل السقيفة وخلفية اللعبة التي تمثلها حزب الشيختين هناك، إلا باستيعاب ما جرى قبل ذلك في الوصايا التي خلفها رسول الله (ص) ونبذها حزب الشيختين وتيار الاغتصاب من وراءه.

وحيث الغدير الذي يلخص حادثة التأمير بعد حجة الوداع، أشهر لدى المؤرخين ورواة الحديث، من نار على علم. فهو بلغ حدا من التواتر بات من الصعب على المحدثين تكذيبه بل كل ما في الأمر إن عمد بعض نواصبهم إلى التحايل على ألفاظه، وتأويله بشكل يسى إلى متنه، ويتعسف على مضمونه. من أمثال ابن حجر في الصواعق المحرقة.

ودعنا الآن نتعرف على ما جرى في هذه الفترة. وأهم ما وقع فيها. ذكر جماعة من المؤرخين والمحدثين إنه لما انتهى الرسول (ص) من حجة الوداع وصل إلى مكان اسمه "غدير خم" يقع على مقربة من الجحفة بناحية رابغ - بين مكة والمدينة - قام خطيبا فقال: "أليست أولي بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا بلى، قال، فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والي من والاه وعادي من عاداه وانصر من نصره وانخذل من خذله" ^{١٨٦}.

^{١٨٦} مسند أحمد (١٩٥/٢ و ٢٠٠ و ٢٠١) و مستدرك الحاكم (١٠٩/٣ و ١١٠) و تهذيب التهذيب (٣٣٧/٧) و البداية والنهاية (٣/٢١٤-٢٠٩) و الصواعق المحرقة (٤٢) مجمع الزوائد (١٠٨/٩ و ١١٠) و المصنف (٤٩٦/٧ و ٤٩٩) و أسعاف الراغبين (١٦٦) و غيرها من المصادر.

وعلى إثر ذلك نهض عمر وهو يقول لعلي (ع) "بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة" ^{١٨٧}.

لقد توادر هذا الخبر ولم يتجاوز هذه الواقعة أحد من المحدثين أو المؤرخين حتى أولئك الذين عرروا بنصبهم وكتبوا حوله الأسفار إلا ابن خلدون فقد حاول القفز عليه وعدم الإشارة إليه على الرغم من أنه ذكر كل ما حصل في حجة الوداع، وعلى الرغم من اطلاعه ونقله عن السابقين الذين ذكروه قبله. وذلك لا أحسبه إلا ضغينة منه، وتكلفا جليا في نبذ ما يعزز استحقاق أهل البيت (ع) وكل ذلك البتر والتصرف في الواقع التاريخي كان أيضا بقصد خلق نوع من الانسجام بين نظريته حول الإمامة والتاريخ. فإذا أورد حديث الغدير، فإن ذلك ينافق نظريته حول الإمامة التي يرى فيها أمرا دنيويا يقوم على مصالح الناس، ولا مدخلية للنص فيها".

^{١٨٧} مسند أحمد (٢٨١/٤) و تاريخ بغداد (٢٩٠/٨) و كنز العمال (١٣٤/١٣) ح ١٣٤٢٠ (٣٦٤٢٠) و ذخائر العقبي (٦٨) و المصنف (٥٠٣/٧) و تذكرة الخواص (٦٤/٣٦) و البداية و النهاية (٢١٠/٣) و فرائد السبطين (٦٥/١) و شواهد التنزيل (١٥٧/١) و مناقب الخوارزمي (١٥٦) و مناقب ابن المغازلي (١٩) و ينابيع المودة (٣١/١).

في مسألة تجهيز جيش أسامة

سبق أن ذكرنا خبر تجهيز جيش أسامة واعتراض بعض الصحابة عن الذهاب مع أسامة ولم يكن أحد من المعارضين على أسامة من غير أولئك الصحابة الذين رأوا فيه شاباً صغير السن وهو شيخ كبار وكان عمر متمسكاً كما ذكرنا بعزل أسامة، وبقي على تلك الحال حتى عهد أبي بكر، حيث نهره هذا الأخير وأنبه. وقد لعن الرسول (ص) كما تقدم كل متختلف عنه، وبالتالي كل متقول في إمارة أسامة وابن خلدون لم ينف الحادثة، بل أكد عليها وذكر ما قاله الرسول (ص) حول من تقول فيها:

” وقد بلغني أن أقواماً تكلموا في إمارة أسامة، طعنوا في إمارته لقد طعنوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه لحقiq بالإمارة، وإن لحقiq بها انفروا بعث أسامة، فضرب أسامة بالجرف وتمهل ”^{١٨٨}.

ولا أحسب ابن خلدون كان مدققاً في الأمر. إذن لما كان ذكر هذا الحديث لما فيه من الطعن على عمر وأبي بكر وبعض الأصحاب. قال في مفتتح كلامه عن بعث أسامة:

” وتكلم المنافقون في شأن أسامة، وبلغ الخبر بارتداد الأسود ومسيلمة ”^{١٨٩}.

^{١٨٨} تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٤ ج ٢.

^{١٨٩} تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٤ ج ٢.

إذا، فابن خلدون يثبت أن المتقولين في إمارة أسامة كانوا منافقين وسبق أن ذكرنا أن عمر وأبو بكر كانوا من المتقولين فيها. بل إن عمر بن الخطاب بقي على تقوله في ذلك إلى عهد أبي بكر. هذا علماً أن التقول كان بخصوص حداثة سن أسامة وليس في موضوع البحث أصلاً.

ويسترسل بن خلدون في تناقضه. ليتهي إلى حداثة مرض النبي (ص) الذي تزامن مع إصداره على بعث أسامة. ولعن المتخلفين عنه. وقد اعترف ابن خلدون بأن الرسول (ص) خرج إليهم عاصباً رأسه من الصداع. ولكن سرعان ما يورد كلاماً جرى بين أبي بكر والرسول (ص).

وذكر أن رسول الله (ص) قال بعد أن قال له أبو بكر: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا فقال:

”على رسلك يا أبا بكر، ثم جمع أصحابه ورحب بهم وعيناه تدمعن ودعا لهم كثيراً“^{١٩٠}.

قال ابن خلدون: ثم سأله عن مغسله فقال: ”الأدنون من أهلي، وسألوه عن الكفن فقال: في ثيابي هذه أو بياض مصر أو حلة يمانية. وسألوه عن الصلاة عليه فقال“^{١٩١}.

ولعل التناقض هنا واضح لا غيش فيه. فإذا كان ابن خلدون ينقل أن الرسول (ص) شدد على بعث أسامة، ولعن من تخلف عنه. وقد أقر المؤرخون والمحدثون بوجود أبي بكر وعمر. في هذا الجيش وبأنهم معنيون باللعن إنهم تقولوا في إمارة أسامة أو تخلفوا عنها. كيف إذن يستقبلهم الرسول (ص) وكيف يدعوه لهم ويرحب بهم. وهو من قام معصباً رأسه، لاعنا المتخلفين من الصحابة عن جيش أسامة. ثم إن ما يرومه ابن خلدون هو أن يبين عبر التدليس - إن أبا بكر كان إلى جنب رسول الله (ص) ولم يشر إلى أن أبا بكر كان قد خرج إلى منزله بالسنج - كما تقدم - بل سكت عن ذلك وربط حديثه مع رسول الله (ص) مباشرة بفقرة جديدة ثم سأله عن مغسله.

^{١٩٠} تاريخ ابن خلدون (٤٦٥/٢).

^{١٩١} تاريخ ابن خلدون (٤٦٥/٢).

وكان أولى بمؤرخ المغرب أن يقول ثم سأله أبو بكر، بل في انتقاله من كلام أبي بكر إلى صيغة الجمع دليل على غياب أبي بكر. فأهل السنة ردوا على أن يفردوا ابن أبي قحافة وعمر بن الخطاب في كل مقام إذا كانت له مشاركة فيه. ومرد أهل السنة أن يتكلموا بصيغة الجمع في الموضع التي يحضرها أبو بكر وعمر إذا لم يكن هناك حضور مشرف لهم. كان يتكلموا بصيغة الجمع في فراري أحد. وفي من تقول في إمارة أسامة. والحقيقة كما أثبناها سابقاً إن أبو بكر لم يطل مكثه مع الرسول (ص) بل راح إلى السنج^{١٩٢} ولم يعد إلا بعد موت النبي (ص) ثم لم يلبث أن لحق بالأنصار إلى السقيفه برفقة عمرو أبو عبيدة وإنهم لم يحضروا دفن النبي (ص).

وفي هذا الفضل، تطرق ابن خلدون إلى حادثة يوم الخميس، ولم يطل المكث عندها. لما تمثله من خطورة على مبناه المذهبية. قال: "سألوه عنمن يدخله القبر فقال: أهلي.

ثم قال: إئتونني بدواة وقرطاس، أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده فتنازعوا وقال بعضهم إنه يهجر، وقال بعضهم أهجر؟ يستفهم، ثم ذهبوا يعيدون عليه، ثم قال: دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه.

لقد مر بن خلدون مر الكرام على هذه الحادثة ولا هو بمن يجهل قيمتها في فصح سريرة الباطل ولا هو بمن يستصغر قدرها على أولي الألباب. إنه يعرف رواة ذلك الخبر.

وهو من قراء البخاري والطبرى إذ قال عنه:

"هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبرى اعتمدناه للوثوق به سلامته من الأهواء الموجودة في كتاب ابن قتيبة^{١٩٣}."

ولكنه لم يختار من وجوه الرواية إلا ذلك الوجه الذى أورده المحدثون بتصرف

^{١٩٢} الطبرى (٤٤٠/٢ و ٤٤١/٢) والكامل (٣٢٢/٢)

^{١٩٣} تاريخ ابن خلدون (٤٩٥/٢)

مقيت حيث يغيرون اسم عمر بن الخطاب وهو صاحب كلمة "يهجر" لنعرف كيف أن ابن خلدون كان يحرف على طريقته ويدلس، ولا يتونخى الوضع لأسباب سبق أن قلنا إنها مذهبية ممحض.

قال ابن عباس: "يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد برسول الله وجعه، فقال: هلم أكتب لكم كتابا لا تضلووا بعده، فقال عمر إن النبي قد غلبه الوجع وعندكم كتاب الله، فاختلف أهل البيت فلما اكثروا اللغو والاختلاف عند النبي (ص) قال لهم قوموا عنِّي، فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ^{١٩٤} ولعظامهم".

وحسبي أن الاضطراب الذي نتج عن فعل التصحيف والتحريف، إن الخبر جاء بصيغ مختلفة كلها تعكس تدخل أقلام التحريف لتجير الحقيقة لصالح عمر. فمرة يجعلونها في صيغة الغائب: "وقال بعضهم" وهي الصيغة التي اختارها ابن خلدون. وهناك من جعلها بصيغة الاستفهام "أهجر" يستفهم! وقد أخرج البخاري، قال عمر: "إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم كتاب الله" بيد أن ابن خلدون سكت عن اسم عمر بن الخطاب، وجاء بما يلبس على الناس. وبعد ذلك لم يتطرق لما جرى بعد سماعه (ص) للغط من حوله. وبعد أن تلقت أدنه الشريفة كلمة "الهجران" حتى أدرك أنه لم يعد بعدها جدوى من الوصية. لأن الأمر بعدها سيكون أخطر. وسيكون السؤال، هل إن كلام الرسول (ص) حق ناطق عن الوصي أم أن كلام الرسول (ص) فيه نوع من الهجر. وإذا ثبت الهجر في قوله ذلك، ترتب عليه ثبوته في كل أقواله. مما ينفي العصمة عنه. أو لم يحاول بعضهم النيل من عصمة النبي (ص) حتى يتمكن من تأويل بعض أقواله بما لا يطابق حقيقتها. وسيكون الأمر بعدها أشد حرجا على الإسلام، عندما يبدأ الطعن في النبوة ومقامها الشريف. فالأولى التضاحية بالإمامية بدل النبوة، لأن الإمامة قد تعود ما دامت هي امتداد للنبوة. أما لو أن الخلاف كان في النبوة ، للزم

^{١٩٤} الملل والنحل (٦) والبداية والنهاية (٥/٢٢٧) وطبقات ابن سعد (٢٤٢/٢) و مسلم (٤٥٤/١٦٣٤) و شرح النهج (٢/٥٥ و ٥٤) و تاريخ الطبرى (١٩٢/٣) و الكامل (٣٢٠/٢)

الدور. ولكان من باب المستحيلات الدعوة إلى الإمامة مجددًا. وهذا ما جعل الإمام علي (ع) في بداية الأمر يتتجنب المواجهة خوفاً على عودة الناس إلى الشرك.

إن ابن خلدون أنهى القصة بشكل سريع، وقفز على كل ما جرى. ليقول: "ثم ذهبو يعذبون عليه، ثم قال: دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه". السؤال الذي قد يطرحه كل لبيب على مؤرخ المغرب: لماذا طلب منهم أن يدعوه، ولماذا يكون جوابه بتلك الصيغة التي يبدو فيها اليأس من حوله؟ بعد أن كان قد حثهم على إحضار الدواة والقرطاس؟.

ابن خلدون سكت عن ذلك. لكن التواريخ التي سبقت ابن خلدون وأخذ عنها. وكذا أخبار المحدثين الذين حفظ لهم ابن خلدون. تذكر أن لغطاً شديداً جرى في حضرة النبي (ص) على أثر طلبه إحضار الدواة والقرطاس. وأنه صلى الله عليه وآله وسلم غضب في وجه عمر لما صدر عن هذا الأخير. فقد ذكر الطبراني في الأوسط: "..... فقال النسوة من وراء الستر: ألا تسمعون ما يقول رسول الله (ص) قال، قال عمر: فقلت إنك صويحات يوسف إذا مرض رسول الله عصترت أعينك، وإذا صح ركبتن عنقه! قال: فقال رسول الله (ص): "دعوهن فإنهن خير منكم".

وفي صحيح مسلم، إنه لما وقع الغوغاء، وضج النبي (ص) قال أهله: لا ينبغي عند النبي (ص) هذه الغوغاء، فاختلفوا، فقال بعضهم: احضروا ما طلب، ومنع آخرون، فقال النبي (ص) "ابعدوا".

وإذا حاولنا اكتشاف هؤلاء الذين خالفو، لن يكونوا إلا عمر بن الخطاب!. ذلك ما ذكره أحمد بن حنبل في مسنده، مع تلطيف وتهذيب للعبارة بما لا يخدش في عمر بن الخطاب ولا يكشف عن سوء أدبه مع الأنبياء. قال عن جابر "إن النبي (ص) دعا عند موته بصحيفة ليكتب كتاباً لا يضلون بعده، فخالف عمر بن الخطاب حتى رفضها".

وفي نقلهم الحديث بالمعنى، دلالة على قمة ما بلغه كلام عمر من وقارحة تدل على ازدراءه واستهتاره بطلب النبي (ص) وانحطاط أسلوبه مع من جعل الله

الوصي على لسانه.

وإذا أردنا الإطناب في تلك الرزية، فلنذكر ما جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد وغيره، حول ما جرى بين عمر وابن عباس، عندما انتهى عمر إلى القول:

”لقد كان من رسول الله (ص) في أمره ذرو^{١٩٥} من قول (أي في أمر علي (ع)) لا يثبت حجة ولا يقطع عذرًا، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعه من ذلك، إشفاقاً وحيطة على الإسلام، لا، ورب هذه البناء، لا تجتمع عليه قريش أبداً، ولو ولها لانتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله أني علمت ما في نفسه فأمسك،^{١٩٦} وأبى الله إلا إمساء ما حتم^{١٩٧}“.

وهذا يعني أن الرسول (ص) سكت لما علم موقف عمر من علي (ع) وإنه رفض لخلافته ومنازعه إليها. وهذا الكلام كله الذي جرى في حضرة الرسول (ص) لم يورده بن خلدون مخافة على فارقه من تقييع التاريخ. ومخافة على مذهبه من الأفلاس.

ولعمري، إن الفضيحة هذه المرة ظهرت على لسان ابن خلدون. وتجبره على النطق بما يشهده تدبير المحرفين. قال: ” وأوصي بثلاث: أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأن يجيزوا الوفد كما كان يجيزهم، وسكت عن الثالثة أو نسيها الراوي.

هذه العبارة تستبطن أمراً خطيراً، سكت عنه الرسول (ص) كما ذكر ابن خلدون. ولكن الأمر يختلف عما ذكره. فالراوي هو الذي نسيها. وابن خلدون لم يذكر الراوي ولاخلفية النسيان والسكوت. ابن خلدون الذي نعى على المؤرخين السابقين تقليدهم في نقل الأخبار.

ها هو لم يستخدم ملكته في تحليل أحوال العمران. في اكتشاف الأيدي التي

^{١٩٥} ذرو: طرف

^{١٩٦} قلت: ومن إمساك الرسول أن غضب وآخر جهم عنه.

^{١٩٧} شرح النهج (٢١/١٢).

عشت بهذا الخبر. والعقود التي أسرفت في تحريف معناه. والخبر كما ذكره البخاري في كتاب الجهاد والسير من صحيحه هو. قال: ونسنت الثالثة. غير أن ابن خلدون زاد " وسكت عن الثالثة ". انتقاء لما يقوى مبناه ويسنته. والسكوت في الحقيقة كان من الراوي لا من الرسول (ص). والظاهر أنه قاله بعد أن منع إحضار الدواة والقرطاس عمر. وفي حضرة من أهل البيت، والرواية هنا كانت عن ابن عباس.

فتح باب أبي بكر، وذكر الخلة!

أقحم بن خلدون أثناء حديثه عن مرضه كثيرا من المرويات المزيفة إمعانا منه في التلبيس على القارئ. قال: قال الرسول (ص): "... ثم قال: سدوا هذه الأبواب في المسجد إلا باب أبي بكر، فإني لا أعلم امرأاً أفضل يداً عندي في الصحبة من أبي بكر. ولو كنت متخدنا خليلًا لاتخذت أباً بكر خليلًا. ولكن صحبته إخاء وإيماناً حتى يجمعنا الله عنده.

إن المتمعن في مباحث التاريخ الإسلامي، والمستوعب لأسفار الأخبار والأحاديث والسيرات، يدرك مقدار التحاليل في سرد ابن خلدون لهذه الواقع. فهي من جهة، قد تكون وقائع متفرقة، فيأتي ليرفعها بشكل يجعلها متكاملة ومنسجمة. ومن جهة ثانية يعمل على انتقاء الأخبار المنسجمة مع ما يقوم به من ترقيع. حتى وإن كان الخبر بلغ عند المحدثين والمؤرخين درجة من الشذوذ يدعو إلى الترک!

وهذه العبارات التي أتى بها بن خلدون، هي من ذلك القبيل. والحبكة التي جمع فيها بين أكثر من واقعة متفرقة هي من تلك الحبكات المغرضة التي يتغير بها صرف الناس عن موارد الحقيقة.

إن حديث الخلة التي أورده هنا لا يستقيم له سند فهو من موضوعات البكرية وكيف يكون الرسول (ص) في نهاية حياته يقول لأبي بكر "لو كنت متخدنا خليلًا لاتخذت أباً بكر خليلًا".

وقد سبق وأن قال قبلها:

” الا اني ابرأ الى كل خليل من خلة ” ^{١٩٨} .

كيف يكون الرسول يتمنى لو يكون أبو بكر خليلا له، وهو يبرأ من ذلك قبل موته بخمسة أيام.

كان ذلك من وضع البكرية لقاء ما ذكر من أحاديث في فضل علي (ع) وأخوته التي شهدت بها الأخبار عندما قال له الرسول (ص) ” أنت، أخي وأنا أخوك ” ^{١٩٩} في حادثة الإخاء الشهيرة. ولعل ذلك كان واضحاً لابن خلدون. وهو من لم يذكر ما جرى بين رسول الله (ص) وعلي بن أبي طالب (ع) من إيحاء. بعد أن ذكر حادثة الإخاء كلها.

وبعد ذلك كله يحسن أن نذكر ابن خلدون بهذا السؤال: كيف يجري الحديث معه في تلك اللحظة التي لم يكن الرسول (ص) يطيق فيها رؤيتهم، بعد أن تخلفوا عن جيش أسامة ولعنوا بالتخلف عنه. فتأمل ملياً يرحمك الله!..
أما بالنسبة لحديث: ” سد الأبواب ” فهذا مما روي في فضائل علي (ع) فتم تحريفه من قبل جماعة البكرية. وراج في زمنبني أمية. وقد كانت تلك فضيلة علي (ع) قبل وفاة الرسول (ص) وتعارف عليها الصحابة منذ ذاك العهد. وقد جاء ابن خلدون بهذا الخبر على شذوذه، انتصاراً للبكرية وتهميشاً لعلي (ع).
وحيث سد الأبواب مما اشتهر عند المحدثين في شأن علي (ع) وقد روي كالتالي:

إن النبي (ص) أمر بسد الأبواب إلا باب علي (ع) فتكلم الناس، فخطب رسول الله (ص) فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، والله ما سددت شيئاً ولا فتحته وإنما أمرت بشيء فاتبعته ” ^{٢٠٠} .

^{١٩٨} مسلم (٩/٥)

^{١٩٩} فرائد السبطين (١٢٦/١) و كفاية الطالب (١٩٢) و الترمذى (٦٣٦/٥) ح ٦٣٦ و كنز العمال

(٥٩٨/١١) و مصاييف السنة (١٧٣/٤) و مناقب المغازى (٣٧)

^{٢٠٠} مسند أحمد (٣٦٩/٤) و خصائص النسائي (٥٥) و الحاكم (١٢٥/٣) و الترمذى (٦٤١/٥) ح ٣٧٣٢ و

الصواعق المحرقة (١٢٤)

وهنالك مختلف الطرق التي روی بها هذا الحديث:

١- قال زید بن أرقم (٢٥) " كان للنفر من أصحاب رسول الله أبواب شارعة في المسجد فقال رسول الله (ص) سدوا هذه الأبواب إلا باب علي فتكلم الناس في ذلك فقام رسول الله (ص) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب علي فقال فيه قائلكم وإنني والله ما سددت شيئاً ولا فتحته ولكنني أمرت بشيء فاتبعته " ^{٢٠١}.

٢- أخرج البزار، " إن رسول الله (ص) أخذ يد علي فقال إن موسى سأله ربه أن يظهر مسجده بهارون وإنني سألت ربي أن يظهر مسجدي بك، ثم أرسل إلى أبي بكر أن سد بابك فاسترجع ثم قال سمعاً وطاعة ثم أرسل إلى عمر ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ثم قال (ص) ما أنا سددت أبوابكم وفتحت باب علي ولكن الله فتح بابه وسد أبوابكم " ^{٢٠٢}.

٣- قال رسول الله (ص): " يا علي لا يحل لأحد أن يجنب في المسجد غيري وغيرك " ^{٢٠٣}.

٤- قال عمر بن الخطاب: " لقد أعطي علي ابن أبي طالب ثلاثة لأن تكون لي واحدة منها أحب إلي من حمر النعم، زوجته فاطمة بنت رسول الله وسكنها المسجد مع رسول الله محل له ما يحل فيه والراية يوم خير " ^{٢٠٤}.

ودعنا نلقي نظرة عما ذكره ابن أبي الحديد في شأن بعض المرويات التي وضعتها البكرية في مقابل ما جاء عن علي (ع) " فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصحابها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث، نحو: " لو كنت متخدنا خليلًا " فإنهم وضعوا في مقابلة حديث الإخاء ونحو سد الأبواب فإنه علي (ع) فقلبتها البكرية إلى أبي بكر " ^{٢٠٥}.

^{٢٠١} كنز العمال (١١/٦١٨) ح ٣٣٠٠٤ و مجمع الزوائد (٩/١١٧)

^{٢٠٢} كنز العمال (١٣/١٧٥) ح ٣٦٢١

^{٢٠٣} الترمذى (٥/٤٦٤) ح ٣٧٢٧ و كنز العمال (١١/٦٢٦) ح ٣٣٠٥٢

^{٢٠٤} المستدرك (٣/٤٢٥) و الصواعق (١٢٧)

^{٢٠٥} شرح النهج (١١/٤٩)

أقول وكيف يكون (أبو بكر) خليلا له وقد رده عن تبليغ براءة وأعطها
عليها (ع) ثم قال:

”أمرت ألا يؤدي عنِي إِلا أنا أو أحد مني“ ، فلعلها القاصمة التي أيقظت
حفيظة البكرية فراحت تبحث عن مقابل لهذه الفضيلة.

إن ابن خلدون يردف حديث الخلة بزيادة، قائلاً ”ولكن صحبته إخاء
وإيمان حتى يجمعنا الله عنده“ . فالرسول (ص) هنا يعتبر صحبته إخاء. وهذا لا
وجه له فيما كان في حادثة الإيذاء. فلو كان الأمر كما أورد ابن خلدون. إذا
لكان الرسول (ص) أولى بأن يتخذ له في حادثة الإيذاء أبا بكر أخا، تعويضاً
عن تلك الخلة التي تمناها له.

ولكن ابن خلدون في حديثه عن المؤاخات ذكر بأن الرسول (ص) آخر
بين أبي بكر وخارجية ابن زيد. ولقد جاء في الأخبار بتواتر، ”أن رسول الله
(ص) آخر بين الناس، وترك عليا حتى بقي آخرهم، لا يرى له أخا فقال: يا
رسول الله (ص) آخيت بين أصحابك وتركتني؟ فقال: إنما تركتك لنفسي، أنت
أخي، وأنا أخوك، فإن ذكرك أحد، فقل.“

أنا عبد الله وأخو رسوله، لا يدعها بعده إلا كذاب^{٢٠٦} .

وكذلك لو كان الأمر كذلك، إذن لكان أولى بأبي بكر أن يفوز بأخوة
الرسول (ص) وبالمنزلة كما جاء في صحاح السنّة^{٢٠٧} . أما ترضى أن تكون مني
بمنزل هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي^{٢٠٨} .

هذه كلها قرائن تصرف الخلة عن أبي بكر. وتكشف عن أسباب التحرير
والتروير الذي قامت به البكرية وسار عليه العامة. وابن خلدون لا يجهل
الصحابي وهو الفقيه المالكي المتطرف. كيف أنه يتجاوز كل هذه الأخبار
المتواترة ليركز على ما شذ وخالف. وذاك ضعن واضح منه.

^{٢٠٦} فرائد السمعتين (٢٢٧/١ و ٢٤٨) والمصنف (٤٩٧/٧) و المستدرك (١١٢/٣) و التذكرة (١٠٣) و
كتاب السنّة (٥٨٤) و شرح النهج (٦٠/٢ و ٦١/٦٠)

^{٢٠٧} مسلم (٢٣/٥) و البخاري (١٣٥٩/٣ ح ٣٥٠٣) و الترمذى (٦٤١/٥ ح ٣٧٣١) و الخصائص (٦٠)

صلاة أبي بكر

ثم ثقل به الوجع وأغمى عليه، فاجتمع إليه نساؤه وبنوه وأهل بيته والعباس وعلي، ثم حضر وقت الصلاة فقال: مروا أبي بكر فليصل بالناس فقالت عائشة: أنه رجل أسيف لا يستطيع أن يقوم مقامك فمر عمر، فامتنع عمر وصلى أبو بكر. ووجد رسول الله (ص) خفة فخرج فلما أحس به أبو بكر تأخر فجذبه رسول الله (ص) وأقامه مكانه، وقرأ من حيث انتهى أبو بكر. ثم كان أبو بكر يصلي بصلاته والناس بصلاته أبي بكر، قيل صلوا كذلك سبع عشرة صلاة، وكان يدخل يده في القدر وهو في التزع فيمسح وجهه في الماء ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت. فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج إلى صلاة الصبح عاصبا رأسه، وأبو بكر يصلي فنكص عن صلاته ورده رسول الله (ص) بيده، وصلى قاعدا على يمينه، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة فوضعهم وذكرهم، ولما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: إني أراك قد أصبحت بنعم الله وفضله كما نحب، وخرج إلى أهله في السنع، ودخل رسول الله (ص) في بيته فاضطجع في حجرة عائشة، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر عليه وفي يده سواك أخضر، فنظر إليه وعرفت عائشة أنه يريده قالت:

” فمضغته حتى لان وأعطيته إياه فاستن به ثم وضعه، ثم ثقل في حجري فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص وهو يقول: الرفيق الأعلى من الجنة

٢٠٨ . فلمنت أنه خير فاختار .

هذه الفقرة التي ختم بها ابن خلدون حديثه عن مرض الرسول (ص) تتطوّي على حبكة مقصودة وتناقضات مفضوحة. فأما الحبكة فهي تكمن في عملية الانتقاء للخبر الواحد الذي تكاثرت وجوهه كما سرّى. وتكمن من جهة أخرى في جعل الأمور كلها تدور بين يدي أسرة ابن أبي قحافة. فهناك أبو بكر الذي أمره بالصلوة على الناس، وهناك عائشة التي اضطجع في حجرها وهناك عبد الرحمن بن أبي بكر الذي دخل بسوالٍ أخضر. هناك تعلق شديد أبداًه رسول الله (ص) بهذه الأسرة التيمية. فهو يرتاح إلى حجر بنت أبي بكر ويرتاح لصلوة أخيها، ويريد سواك أخيها عبد الرحمن ليستن به. وإنها لعمري من روائع البكيرية وشطحاتها. وتأكد لنا الحبكة هنا في أن ابن خلدون لم يحكّي لنا عما قام به أهل بيت الرسول (ص) أين كان علي (ع) وأين كانت فاطمة (ع) والحسنين (ع) في هذا الحدث رغم إنه لم يمنعهم عنه جرف ولا سنج!! وما هو ذلك العهد الذي عهد به إلى علي (ع) في آخر عمره. وماذا جرى بينه وبين بضعيته الطاهرة، التي أحبها وفضلها على نساء العالمين. فالحبكة هنا مقصودة وواضحة في ثانياً الخبر.

أما التناقض المفضوحة فهو في ما ذكره ابن خلدون في مفتتح كلامه عن مرض الرسول (ص) قال: قال رسول الله (ص) "إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده. وفهمها أبو بكر فبكى فقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا" .

فالكلام هنا واضح لا يحتاج إلى تأويل. إن أبو بكر أدرك بوعيه الثاقب أن الرسول (ص) مقبل على الوفاة. وأنه معرض لها ابتداءً من تلك الساعة وفي أي لحظة من تلك اللحظات. غير أنه في مختتم كلامه، قال: "قال له أبو بكر: إني أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحب، وخرج إلى أهله في السنج" .

٢٠٨ . تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٦ ج ٢ .

٢٠٩ . تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٦ ج ٢ .

فكيف يراه بخير وقد عصب رأسه وهو كما ذكر بن خلدون، كان يدخل يده في القدر وهو في النزع فيسح وجهه في الماء ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج إلى صلاة الصبح عاصبا رأسه".

إن الرسول (ص) كان يعاني حرارة الموت، وإنه في اللحظات الأخيرة من عمره. ثم يعود فيورد كلام أبي بكر "أراك أصبحت بنعمة الله" فآثار الترقيع واضحة للبيب، وعملية الاختلاق ظاهرة في تدليس بن خلدون رضوخا للرغبة المذهبية والنزع البكري. وبعد ذلك لا بد أن نشير إلى ملاحظتين في هذا النص المختلق:

الملاحظة الأولى، حول صلاة أبي بكر.

الملاحظة الثانية، حول موت النبي (ص) وهو في حجر عائشة.

الملاحظة الأولى:

هناك ما يجلب اهتزاز النص من أساسه في مسألة صلاة أبي بكر. لقد ثبت في الأخبار أن عليا (ع) لم يبرح رسول الله (ص) طيلة فترة مرضه. وأنه بقي ملازما له حتى انتهى من دفنه. وهو لو لا ذلك الانشغال لما فاته أمر السقيفة. أين إذا كان موقعه من تلك الصلاة وهل كان يصلي بصلاه أبي بكر أم بصلاه الرسول (ص) ولماذا لم يذكروا وجوده في هذه الصلاة، التي أتاهها الرسول (مر) وهو متকئ على العباس والإمام علي (ع) إن البكرية التي اصطنعت هذه الأحاديث تريده أن يجعل أبا بكر ذا حضور مكثف في كل المواطن. في وفاة الرسول وفي السقيفة وهذا أمر مستحيل. فأبا بكر دعى لتجهيز جيش أسامة وعدم التخلف عنه. وكان الرسول (ص) حسب ما جاء في الأخبار متشبثا بإنفاذ جيش أسامة حتى اليوم الذي توفي فيه كما ستنقل في النص الآتي وأن طيلة السبع عشرة صلاة لم يكن الرسول (ص) يطيق رؤية من أنفذهم في جيش أسامة وكان يزجرهم كلما ظهر له أحدهم. وكانوا طيلة ذلك الوقت معسكرين بالجرف خارج المدينة. فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشر من هجرة

رسول الله أمر رسول الله (ص) الناس بالتهيؤ لغزو الروم فلما كان من الغد دعا
أسماء بن زيد. فلما كان يوم الأربعاء بدئ به المرض فحم وصدع فلما أصبح يوم
الخميس عقد لأسماء لواءه بيده فخرج وعسكر بالجرف. وذكر صاحب
الطبقات:

” وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذا
رسول أمه أم أيمن قد جاء يقول: إن رسول الله يموت فاقبل وأقبل معه عمر
وأبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله (ص) وهو يموت فتوفي حين زارت الشمس
يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ”.

إذن فالرواية تثبت لنا أن هناك غياب كامل لأبي بكر من أحداث الموت.
وأنه لم يقضى معه الوقت الكافي لإجراء حديث معه بذلك الشكل، والصلة
بالمسلمين لغاية سبعة عشر صلاة. فهناك باختصار قرائن تثبت غياب أبي بكر
عن كل ما جرى في بيت النبي (ص) وأنه لم يصل الناس سبعة عشر صلاة
حتى وفاة النبي (ص) وهي:

١ - أبو بكر كان من المعسكرين بالجرف منذ يوم التجهيز الخميس إلى
الاثنين، أي عند رجوع الناس من الجرف.

٢ - في تلك اللحظات المعدودة التي بقى من يوم الاثنين، كان أبو بكر
بالسُّنْح.

إن وجود أبي بكر في حضرة الرسول (ص) يصل إلى المسلمين، يعني أن أبي
بكر لم يكن حاضراً بالجرف.

وهذا يدل على أنه كان من الذين تخلعوا عنه. فكيف يسمح له الرسول
(ص) بذلك وهو قد لعن كل مخالف عنه. فتأمل.

لقد أورد ابن خلدون خبر صلاة أبي بكر. وانتهى وجهاً من وجوه الرواية التي
تعددت حبكاتها بشكل متناقض، واختار منها ما هو منافق الرسول (ص) صلى
عن يمينه وهو يصلى عن يساره. فيصلى هو بصلاة النبي (ص) والمسلمون يصلون
بصلاه أبي بكر. وهذه بأمي وأبي، هي الفوضى الفقهية التي اتصف بها البكرية
المختلفة لهذه الواقعه. إذ كيف يأتى أبو بكر بالرسول (ص) من جهة اليسار.

وكيف أن المسلمين عزفوا عن الاتّمام برسول الله (ص) وصاروا على هذه الواسطة الثقيلة والمملة. بأي مقياس فقهي هي شرعية هذه الصورة من الصلاة. أما فيما يخص متن الخبر فحدث ولا حرج. لقد ورد بطرق مختلفة جداً ومتناقضة، فمرة يذكرون أن عائشة قالت لبلال مر أبا بكر فليصل بالناس، وقالت حفصة مروا عمر فليصل بالناس. مرة يذكرون أن عمر صلى ثم سمع رسول الله صوته، فغضب وقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. وغيرها من الطرق المتعارف عليها عند محدثي العامة. والتي تتناقض في وجوهها إلى حد الغيان!.

لكن ابن خلدون - وتلك عادته - انتقى من ذلك الخلط المتضارب، ما يصلاح لحبكته من دون أن يثير بحوافر التدليس نقع الشبهات. وكانت عائشة كما ثبت في الأخبار هي راوية هذا الحديث إضافة إلى ما ادعته من وفاة رسول الله ورأسه في حجرها، أو بين سحرها ونحرها، وكان ابن خلدون على علم بكل هذه الأخلاقات. لكن منطق الانتقاء ضروري لكل من هم بحبك الأحداث التاريخية وتزويرها.

الملاحظة الثانية

لا مجال لمناقشة الأسباب التي دعت عائشة إلى ادعاء وفاة الرسول (ص) في حجرها فإن عداوتها للإمام علي (ع) وهي من أثبتت عليه الوفا من المنافقين وقد حصى عليها التاريخ تلك الضغائن الكثيرة لبني هاشم، لكن قضيتنا هنا ترتبط بالمؤرخ المحرف للأحداث.

فابن خلدون جاء بهذه الرواية كعادته في الانتصار لتيار البكرية. ودعنا نرى - هنا هل إن وفاة الرسول (ص) كانت كذلك في واقع الأمر؟. قالت أم سلمة: "والذي أحلف به إن كان علي لأقرب الناس عهداً برسول الله (ص) إلى أن قالت: فأكب عليه رسول الله (ص) وجعل يساره ويناجيه ثم قبض رسول الله (ص) من يومه ذلك فكان علي أقرب الناس عهداً به".^{٢١٠}

^{٢١٠} مستدرك الحاكم (١٣٨/٣)

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري إن كعب الأحبار سأله عمر فقال: ما كان آخر ما تكلم به رسول الله (ص) فقال عمر: سل عليا فسألته كعب فقال قي. أنسنت رسول الله (ص) إلى صدره فوضع رأسه على منكبي فقال: الصلاة، الصلاة، قال كعب كذلك آخر عهد الأنبياء وبه أمروا وعليه يبعثون. قال كعب فمن غسله يا أمير المؤمنين، فقال عمر سل عليا، "فسألته فقال: كنت أنا أغسله".^{٢١١}

وقيل لابن عباس: أرأيت رسول الله (ص) توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال: نعم توفي وإنه لمستند إلى صدر علي، فقيل له: إن عروة يحدث عن عائشة أنها قالت: توفي بين سحري ونحري، فأنكر بن عباس ذلك، قائلا للسائل: أتعقل؟ والله لتوفي رسول الله (ص) وإنه لمستند إلى صدر علي وهو الذي غسله.^{٢١٢}

وفي رواية أخرى عن أم سلمة قالت: والذي أحلف به إن كان علي لأقرب الناس عهدا برسول الله (ص) عدناه غداة وهو يقول: جاء علي؟ جاء علي؟ مرارا فقلت فاطمة كأنك بعثته في حاجة قالت: فجاء بعد، فظلت أن له حاجة، فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب، قالت أم سلمة: "وكنت من أدناهم إلى الباب، فأكب عليه رسول الله (ص) وجعل يساره ويناجيه، ثم قبض (ص) من يومه ذلك، فكان أقرب الناس به عهدا".^{٢١٣}

وحسبك من ذلك ما دل عليه الحال في حياة الرسول (ص) إذ كان له مجلس خاص مع علي (ع).

وقد ذكروا أنه كان كثيرا ما يخلو بعلي يناجيه. وقد دخلت عائشة عليهما وهما يتناجيان فقالت: "يا علي ليس لي إلا يوم من تسعه أيام أفما تدعني يا ابن أبي طالب ويومي. فأقبل رسول الله عليها وهو محمر الوجه غضبا".^{٢١٤}

^{٢١١} طبقات ابن سعد (٢٦٢/٢)

^{٢١٢} طبقات ابن سعد (٢٦٣/٢)

^{٢١٣} المستدرك (١٣٨/٣) والتذكرة (٤٦)

^{٢١٤} شرح النهج (٢١٧/٦)

وقال الإمام علي (ع): "كان لي من رسول الله (ص) مدخلان: مدخل بالليل، ومدخل بالنهار. فكنت إذا أتيته وهو يصلني تتحنح".
كيف بعد كل هذا الحرص على مناجات علي (ع) وهو لا يزال بين أظهرهم.
كيف يزهد في وجوده، وهو مقبل على الغياب. هل يعقل ذلك عند كل ذي لب، رشيد!.

وما كان ذلك جهلا من ابن خلدون في حفظ الأحداث. ولا غباء منهم في انتقاء الأخبار، إنها حبكة مدبرة ونزعية مستترة. وذلك عندما ذكر أبي بكر في دفن الرسول (ص) فقال:

واختلفوا أيدفن في مسجده أو بيته، فقال أبو بكر: سمعته (ص) يقول: "ما قبض النبي إلا ويدفن حيث قبض. فرفع فراشه الذي قبض عليه وحرف له تحته" ^{٢١٥}.

وهذه واحدة من كبريات الهناء في مشروع التدليس الخلدوني وقد سبق أن ذكرنا عدم حضور أبو بكر وعمر في تغسيل الرسول (ص) ودفنه وقد جاء في الأخبار ما يسند ذلك.

إذ بينما علي (ع) دائب في جهاز رسول الله، فمضيا - عمر وأبو بكر - مسرعين نحوهم فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثة ^{٢١٦}.
وذكر أبو ذئب الهمذاني: قدمت المدينة ولها ضجيج كضجيج الحاج إذا أهلوا بالإحرام فقلت:

مه؟ قالوا: قبض رسول الله (ص) فجئت إلى المسجد فوجده خاليا، فأتيت بيت رسول الله (ص) فأصبت بابه مرتجا، وقيل: هو مسجى. وقد خلا به أهله، فقلت: أين الناس؟ فقيل في سقيفه بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار ^{٢١٧}.

فكيف تهياً للوضاعين ومصدقيهم إن أبا بكر الذي سار إلى السقيفه مع فاروقه

^{٢١٥} تاريخ ابن خلدون (٤٦٧/٢)

^{٢١٦} تاريخ الطبرى (٢١٩/٣)

^{٢١٧} أسد الغابة (١٨٩/٥) والإستيعاب (١٦٤٩/٤)

بعد أن غلق الباب دون الرسول (ص) وانطلقا إلى السقية. كيف يحضر دفن الرسول (ص) ويقوم هو بالحفر والدفن، فهل البكرية تريد لأبي بكر أن يكون له حضور سحري في كل واقعة في السقية والدفن، في السنح والمرض، في الجرف والصلاه، هذا إسراف مبين!.

لكن الحقيقة هي أن أبا بكر و عمر انشغلوا بمجالدة الناس وقهراهم على البيعة، ولم يحضر الدفن.

وقد سبق أن ذكرنا ما جاء في أخبارهما من أن "أبا بكر و عمر لم يشهدوا دفن النبي" ^{٢١٨}.

كما جاء في الخبر أنه "لم يله إلا أقاربه ولقد سمعت بنو غنم صريفي المساحي حين حضر وإنهم لفقي بيوتهم" ^{٢١٩}.
أما الذي تولى دفنه فهو علي (ع) وأهل بيته لما جاء في طبقات بن سعد:
"ولي وضع رسول الله في قبره هؤلاء الرهط الذين غسلوه: العباس وعلي والفضل وصالح مولاه وخلى أصحاب رسول الله بين رسول الله وأهله فولوا إجناه" .

هذه كلها بداية لما سيحدث في سقيةبني ساعدة. وابن خلدون من البداية يحضر طبخته، ويذري عليها من بهارات النصب ما يعمق الجهل ويعمي الأ بصار. ويدخل التاريخ في حالة من الخاوس (caos).

^{٢١٨} انظر كتابنا هذا (ص ١٢٦)

^{٢١٩} طبقات ابن سعد (٣٠٤/٢)

خبر السقيفة

هناك ثلاثة أمور نستفيد بها مما سبق ذكره في تحليل أمر السقيفة.

أولاً: أنها مؤتمر فقد للشرعية من حيث ترتيبه على موقف مخالف، وهو التخلف عن جيش أسامة.

ثانياً: أنها لم تكن بحضور جميع الصحابة فهي إذن ليست شورى.

ثالثاً: منيت بمعارضة من قبل أعداد كبيرة من رموز الصحابة.

في ضوء هذه النقاط الثلاث التي استخدناها من خلال سردنا لأحداث

السقيفة سوف نناقش ابن خلدون وهي الآن بمثابة فرضيات لمزاولة التحليل.

جاء في نص ابن خلدون حول السقيفة "فأتوهم في مكانهم ذلك - يقصد أبو بكر وعمر وأبو عبيدة - فأعجلوهم عن شأنهم (يقصدون الأنصار) وغلبواهم عليه جماعاً وموعظة ".^{٢٢٠}

إن أول إطلالة على هذا النص الذي افتح به صاحبنا حديث السقيفة، يؤكّد على الموقف النظري لابن خلدون من مسألة الإمامة. وكذلك يؤكّد على الواقع التاريخي الذي كان سبباً في نشوء مثل هذه النظريات. إنها نظرية الإمامة القائمة على أساس الغلبة.

^{٢٢٠} تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٨ ج ٢.

قال أبو بكر: نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره، ولا ينazuع في ذلك وأنتم لكم حق السابقة والنصرة، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وقال الحباب بن المنذر بن الجموج: منا أمير ومنكم أمير، وإن أبوا فاجلوهم يا معشر الأنصار عن البلاد، بأسيافككم وإن الناس لهذا الدين، وإن شئتم أعدناها جذعة أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب.

وقال عمر: "إن رسول الله (ص) أوصانا بكم كما تعلمون، ولو كتتم الأمراء لأوصاكم بنا" ^{٢٢١}.

قبل السير في كشف آثار التلبيس في هذا النص، يجدر بنا أن نعرى أيضاً عن (٤٥) ذلك الجو الذي أودعوه خبر السقيفة. ابن خلدون يجعل خبر السقيفة بحيث يفيد القارئ بمدى تلقائية اجتماع أبي بكر وعمر أبي عبيدة. والواقع يثبت عكس ذلك. إن هناك خطة مدبرة سلفاً يتزعمها أولئك الثلاثة. ولست من يتسق أن يكون هذا الحلف قادراً بتلقائيته على الانتصار على الأنصار إن لم يكن هناك تدبير مسبق.

ذكر ابن أبي الحديد: "إن عمر لما علم أن رسول الله قد مات خاف من وقع فتنة في الإمامة وتغلب أقوام عليها، إما من الأنصار أو من غيرهم، فاقتضت المصلحة عنده تسكين الناس فأظهر ما أظهر وأوقع تلك الشبهة في قلوبهم حراسة للدين والدولة إلى أن جاء أبو بكر" ^{٢٢٢}.

وهذا الكلام يفيد في أن قضية الخلافة كانت متواجدة في ذهن عمر بن الخطاب وينتظر مجع أبي بكر ليبدأ تحركهما في هذا المجال والأمر آنذاك كان يقتضي تسكين المسلمين وبث الشبهة في أذهانهم وإشغالهم بذلك ربما للوقت ولا يعنيها (وغلبواهم عليه جماعاً وموعظة) ولعل كلمتي (جماعاً وموعظة) هي لغز زائد عند ابن خلدون وامعاناً منه في تنسيق موقف الشيختين فيما زاولوه من قمع وإرهاب للأنصار. دعنا نتابع الأمر لنرى هل فيه ما يصدق كلام بن خلدون؟!

^{٢٢١} تاريخ ابن خلدون (٤٦٨/٢)

^{٢٢٢} شرح النهج (٤٣/٢)

ذكر هذا الأخير احتجاج كل من أبي بكر و عمر بن الخطاب على هذا النحو :
 ما رامه ابن أبي الحديد من أن ذلك كان بمقتضى المصلحة في حراسة
 الدين والدولة.
 وذكر الشهيرستاني قول عمر بن الخطاب : كنت أزور في نفسي كلاما في
 الطريق: فلما وصلنا إلى السقيفة أردت أن أتكلم فقال أبو بكر: مه يا عمر،
 فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ما كنت أقدر في نفسي؟ كأنه يخبر عن غيب، فقبل
 أن يشتغل الأنصار بالكلام مددت يدي إليه فبأيته وسكت الفتنة،
 إلا أن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها
 فاقتلوه ^{٢٢٣}.

وفي نص البخاري، قال عمر: " فأردت أن أتكلم فقال أبو بكر على
 رسلك فتكلم هو، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزوييري إلا قال مثلها أو
 أفضل ^{٢٢٤} .

إذا هناك تدبير مسبق حاول عمر أن يعزوه إلى الاتفاق لإبعاد تهمة التآمر
 عليه.

ذلك التآمر الذي كشف عنه الإمام علي (ع) عندما قال له: إحلب حلب لك
 شطره ^{٢٢٥}.

وقال: لشد ما تشطرا ضرعيها ^{٢٢٦} فهناك إذن تزوير، وهناك موافقة من أبي
 بكر. وهذا أمر لا تنطلي خلفيته على الليب!.
 ثم لنعد إلى ما اعتمدته ابن خلدون من رواية. لنرى هل ما قاله عمر في
 السقيفة هو كما ذهب إليه؟!

أورد ابن خلدون نصا لا يوافق نصوص المؤرخين والمحدثين الذين اعتمدتهم

^{٢٢٣} الملل والنحل (٧) والصواعق (١٠) و تاريخ الطيري (٢٠٥/٣) و الكامل (٣٢٧/٢)

^{٢٢٤} الصواعق المحرقة (١٠) و الأنساب (٥٨٤/١)

^{٢٢٥} شرح النهج (١١/٦) و الأنساب (٥٨٧/١)

^{٢٢٦} شرح النهج (١٦٢/١)

ووثق روایاتهم، فعمر بن الخطاب لم تكن له كلمة في السقيفة على نحو هادئ يثير العقل ويحرك الحوار.

بل كان - كدأبه - فضا غليظ القلب، وحسبك ما جرى بينه والجباب بن المنذر، وسعد بن عبادة من مشادات كلامية، وصل بعضها إلى العراق والهم بامتناع السيف.

وفي الروايات التي ذكرها المؤرخون، هناك محاولة أبداها عمر للكلام، فأسكنه أبو بكر.

ثم لم يعد بعدها إلا ليجالد الآراء ويشوش على الحضور. ففي رواية الطبرى:

تكلم أبو بكر - بعد أن منع عمر عن الكلام - وحمد الله وأثنى عليه ^{٢٢٧}.
ولم يتحدث بعدها عمر حتى قال فقال عمر: "هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن - يقصد الجباب بن المنذر - والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمرهم منهم، ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينزعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته. إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة" ^{٢٢٨}.

ثم لما تكلم الجباب بن المنذر وأغلظ في القول أجابه عمر:
قال عمر: "إذن يقتلك الله" ^{٢٢٩}.

وفي نص ابن قتيبة ^{٢٣٠} قال عمر: خشيت أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام، فلما تيسر عمر للكلام، تجهز أبو بكر وقال له: على رسلك: فاستكفى الكلام، فشهاد أبو بكر" ^{٢٣١}.

^{٢٢٧} تاريخ الطبرى (٢١٩/٣)

^{٢٢٨} تاريخ الطبرى (٢٢٠/٣)

^{٢٢٩} تاريخ الطبرى (٢٢١/٣)

^{٢٣٠} الأمامه و السياسه (٢٣)

لقد خالف ابن خلدون ما اشتهر عند المؤرخين في خبر السقيفة. وانتهى
من الشاذ ما يجعل به لعمر موقفا احتجاجيا، عندما رد على المنذر. فهو لم يرد
عليه إلا بالقتل حين قال له: إذن يقتلك الله؟.
فمن أين ورد على ابن خلدون، إنه رد عليه بذلك المنطق السابق.
والحقيقة أن ذلك لم يحدث قط في السقيفة. وما كان ذلك إلا من كلام
علي (ع) حين أخبر ب موقف الأنصار فقال:

ما قالت الأنصار.

قالوا: قالوا منا أمير ومنكم أمير.

قال: فهلا احتججتم عليهم بأن النبي (ص) وصى بهم.

ثم قال: فلو كانت فيهم الإمارة ما أوصى بهم الرسول ^{٣١}.

فثم هذا التحرير للكلمة وهي سرقة تاريخية مكشوفة. ليلعب دورين
مغرضين. الأول: إعطاء عمر موقفاً مشروفاً في السقيفة. وقطع نص الإمام
علي (ع) ونسبة إلى عمر، لاختلاق سمعة مزيفة له. والثاني: تغيب دور الإمام
علي (ع) ومنطقه في دحض مزاعم المغتصبين.

ويذكر عمر أن هناك ملاحظات وقعت بين عمر والمنذر بن الحباب. ولم
يشر إلى تفاصيل تلك الملاحظات، التي ذكرنا سابقاً. وذلك محاولة منه في
إخفاءه منطق العنف في موقف عمر داخل السقيفة.

^{٣١} شرح النهج (٣/٦)

سعد الخزرجي وأساطير الجن!

ابن خلدون أحد المؤرخين الذين رفع البلاط من شأنهم وجعلهم أنواراً تشعش في سماء الفكر التاريخي والعقالنية الإسلامية. لم يكن إلا ما لاحظه دارسوه من أدرك مواطن تخلفه الفكري ورجعيته بأن عقلانيته لم تبرح بعضاً من تلك الأفكار حول العمران وأحوال المعاش.

في حديثه عن سعد بن عبادة ارتكب غلطتين لو كانت واحدة منها لكفت. الأولى: عندها اعتبر سعداً مخالفًا ومعارضاً وحيداً للسقيفة "ولم يخالف إلا

سعد إن صح خلافه، فلم يلتفت إليه لشذوذه^{٣٣٢}

الثاني: هو ما ختم به حديث السقيفة عندما ذكر مقتله عن طريق الجن!؟.

وقد سبق أن وضعنا عدد الصحابة المعارضين لما ادعاه من إجماع السقيفة. ومنهم رموزها وطلائعها الكبار الذين شهد لهم الرسول (ص) بالفضل. وحسبك من ذلك أقرباء الرسول (ص) وفي طليعتهم الإمام علي (ع) وما جرى من قمع وإجبار لانتزاع البيعة من المعارضين.

الأمر الذي انتهى بتهديد فاطمة الزهراء ومحاولة حرق الدار. وغيرها من الأحداث الخطيرة التي سكت عنها ابن خلدون.

أما ما ذهب إليه في مقتل سعد بن عبادة. فجدير بمن سلك طريق العقل في

^{٣٣٢} تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٩ ج ٢.

ثانياً: لأن قتله مباشرة قد يحدث نوعاً من القلاقل لا طاقة للشيوخين بها ذلك
أن بشير بن سعد قال لعمر حين قال ما قال:
”إنه قد لج وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل. وليس بمقتول حتى يقتل
معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه فلي sis تركه بضاركم إنما هو
رجل واحد ” .^{٢٣٣}

وكان قد بقي على ذلك الموقف حتى ولـي عمر بن الخطاب.
دعنا هنا مرة أخرى نستقصي الخبر.. نعرف من الذي نفذ جريمة القتل في
رجل حمل راية الأنصار في فتح مكة.

^{٢٣٣} تاريخ الطبرى (٢٢٢/٣) وتاريخ ابن الأثير (٣٣١/٢).

ذكر ابن سعد: "إنه جلس - أي سعد - يبول في نفق فاقتتل فمات من ساعته ووجدوه قد أخضر جلده ^{٢٣٤} . ولست أدرى، كيف انتقل الخبر عندهم. وهل عرفوا إنه بال في الماء أم لا. وهل شهدوا الجنبي الذي قتله، وما قال في قتله. إذن لا بد من وجود راوي قد نقل لهم تفاصيل الواقعه. الناقل بلا شك - كان - هو قاتل سعد! .

وذكر المسعودي حادثة قتل سعد بن عبادة كالتالي: " وخرج سعد بن عبادة ولم يبایع فصار إلى الشام، فقتل هناك في سنة خمس عشر، وليس كتابنا هذا موضعاً لخبر مقتله ^{٢٣٥} . إذن فقتل سعد بن عبادة كان في طريقه إلى الشام. ولكن السؤال الذي يطرح هنا بإلحاح: من سيره إلى الشام. وهل هناك من كان على علم بمسيره إلى الشام؟ .

ذكر ابن سعد في طبقاته: لما ولي عمر الخلافة لقيه في بعض طرق المدينة. فقال له: إيه يا سعد؟ . فقال له: إيه يا عمر؟ . فقال له عمر: أنت صاحب المقالة؟ .

قال سعد: "نعم أنا ذلك، وقد أفضى إليك هذا الأمر كان والله صاحبك أحب إلينا منك ^{٢٣٦} . وقد أصبحت والله كارها لجوارك.

^{٢٣٤} طبقات ابن سعد (٦١٧/٣) و مختصر تاريخ دمشق (٢٤٦/٩) و الإستعاب (٥٩٩/٢) و العقد الفريد (٢٥٩/٤-٢٦٠) و شرح النهج (١١١/١٠ و ٢٢٣/١٧) و الانساب (٥٨٩/١)

^{٢٣٥} مروج الذهب (٣٠٧/٢)

^{٢٣٦} أقول: هذه الكلمة لا تفيد اعترافه ببكر ، اذ كان الأمر كما قال ، لباعيه في حياته .

فقال عمر: من كره جوار جار تحول عنه.

فقال سعد: ما أنا غير مستسر بذلك وأنا متتحول إلى جوار من هو خير

منك، فلم يلبث إلا قليلاً حتى خرج إلى الشام في أول خلافة عمر.. الخ^{٢٣٧} .

وجاء في تبصرة العوام^{٢٣٨} ، إن خالداً كان في الشام فأعان على قتله.

الآن وقد ظهرت المؤامرة على حقيقتها. هل نتورع عن اتهام عمر. وهو من علم بمسير سعد. وهو الذي أوكل قتله إلى أحد أنصاره بالشام. ترى هل بقي أثر لمؤامرة الجن على سعد بن عبادة المسكين. ثم ماذا؟.

هناك ما يشفى الغليل ويريح البال في خبر مقتل سعد. تظهر واضحة لكل لبيب يتفهم ويعي المنطوق في ضوء مفهومه. والظاهر في وعي الباطن. والحضور في لوحة الغياب!

ذكر البلاذري، إن سعداً لم يبايع أباً بكر وخرج إلى الشام فبعث عمر رجالاً، وقال:

ادعه إلى البيعة واحتل له، فإن أبي فاستعن الله عليه، فقدم الرجل الشام فوجد سعداً في حائط بحوارين فدعاه إلى البيعة.

فقال؟ لا أبايع قريشاً أبداً.

قال: فإني أقاتلك.

قال: وإن قاتلتني.

قال: أفارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟.

قال: أما من البيعة فإني خارج، فرماه بسهم فقتله^{٢٣٩} .

وهذه واحدة من النماذج التي تظهر نزعة التلبيس في تاريخ ابن خلدون!

^{٢٣٧} طبقات ابن سعد (٦١٦/٣) و السيرة الحلبية (٤٨٣/٣) و مختصر تاريخ دمشق (٢٤٥/٩) و شرح النهج (١٠/٦)

^{٢٣٨} تبصرة العوام (٣٢)

^{٢٣٩} أنساب الأشراف (٥٨٩/١)

خلافة عمر

جاء في تاريخ ابن خلدون: "ولما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر، رضي الله عنهما بالأمر من بعده، بعد أن شاور علياً وطلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم، وأخبرهم بما يريده فيه، فأثنوا عليه رأيه فأشرف على الناس وقال: إني قد استخلفت عمر لو آل لكم نصحاً فاسمعوا له وأطعوها ودعوا عثمان فأمره فكتب" ^{٤٠}.

افتتح ابن خلدون عهد عمر بن الخطاب بهذه الفقرة. وجعلها بحيث تبدو مقنعة شافية، بعد أن أودعها فتواً وثلاً أفسدت المقصود الواقعي لهذا النص التاريخي، ذلك عندما لم يشر إلى ما شهدته تلك اللحظة الحرجة من استخلاف عمر بن الخطاب، من مشادات كلامية، تبين إلى أي حد وصلت قناعة الصحابة برفض هذا الرجل، وتبيّن أيضاً، الشق الثاني للعبة السقيفة التي أشار إليها من قبل علي (ع) حين قال: إحلب حلب لك شطره. إن السقيفة يمكننا قراءتها بشكل واضح على هذه الصفحة الاستخلافية المهمة، لأنها تعبير واضح عن منهجها، وامتداد حقيقي لها.

ولعمري، هذا ما دفع ابن خلدون إلى التجافي عن عرض وقائع استخلاف أبي بكر لعمر، تجنبًا للوقوع فيما يعزز طرح الناقدين، وإمعاناً منه في إكمال سبك قراءاته المنحولة.

^{٤٠} تاريخ ابن خلدون، ص ٤٩٤ ج ٢.

في الفقرة التي أوردناها عن ابن خلدون، نفهم الأمر على أساس مضلل نظراً لسرعة العرض والقفز على الواقع الساخنة. وجاء فيها:

١ - عهد أبو بكر إلى عمر بالأمر من بعده بعد أن شاور علياً وطلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم.

٢ - فأثنوا على رأيه - بلا استثناء -.

نبدأ بطرح هذا الإشكال على نص ابن خلدون. ونمضي بعد ذلك في مناظرته.

إن النص في شقه الأول يدعي أن أبو بكر شاور قبل العهد إلى عمر كل من علي وطلحة وعثمان و.....

فهل تم ذلك فعلاً. وهل شاور علياً ولو افترضنا مشاورته إياه فماذا كان موقفه؟؟.

كما ادعى إن الذين أشاروا على أبي بكر كانوا قد أثروا على رأيه فهل هذا صحيح؟.

في البدء لا بد من الإشارة إلى ملاحظة أساسية هي إنه لم يشتهر على (ع) إنه أشار على أبي بكر في أمر عمر. وكيف يشير عليه بذلك وهو نفسه يشعر باغتصابه بالأمر من علي (ع).

وكيف يطلب منه المشورة وهو من كان في مقام المنازع له. وهو لم يباع إلا بالإكراه.

وعلي بقي طيلة الفترة التي وليها تيار الاغتصاب من لدن أبي بكر إلى عثمان، معرضًا عنهم، مبدياً رأيه في فلتاتهم، ولعل ما جرى بين عمر وابن عباس، دليل على ذلك الإعراض. إذ سأله عمر بن عباس قائلاً: يا عبد الله، عليك دماء البدن إن كتمتنيها، هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله (ص) نص عليه؟ قلت: نعم.^{٢٤١}

^{٢٤١} شرح النهج (٢٠/١٢).

وحسبك ما جاء في كلامه - عليه السلام - كما نقل في نهج البلاغة:
"حتى مضى الأول لسيله - أي أبو بكر - فأدلّى بها إلى ابن الخطاب بعده.
شتان ما يومى على كورها
فيما عجبنا! بينما هو يستقىلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته! لشد ما
تشطرا ضرعها! فصييرها في حوزة خشناه يغلظ كلمها، ويخشى مسها، ويكثر
العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبية، إن أشق لها خرم، وإن
أسلس لها ت quam، فمني الناس لعمر الله بخط وشمام، وتلون واعتراض
فصبرت على طول المدة، وشدة المحنّة".^{٢٤٢}

إن كلام الإمام علي (ع) فيه بيان شافي لموقفه من تيار الاغتصاب. وذلك
من بدايته إلى نهايته. وكان موقفه هو الصبر على طول المدة وشدة المحنّة.
وحاشا جنابه أن يكون مشيراً صغيراً يقرن بمن هو دونه في بعد الصيت وعلو
الهمة والشأن.

وحاشاه أن يكون محض مشير في حضرة من قد غلبوه على الأمر واستلبوه
منه بالغلبة.

وحسبك من معرفة موقفه من بيعة أبي بكر. أن تدرك ما قاله في حق عمر.
"صييرها في حوزة خشناه يغلظ كلمها، ويخشى مسها ويكثر العثار فيها
والاعتذار منها".

فهو وصف يعزّز موقف الصحابة من عمر أثناء العهد له بالأمر. هذا ناهيك
عن أن أمر الخلافة يخرج بخصوص في مقام استجواب علي (ع) في أمر العهد
والبيعة. إذ هي في عقيدته نص وعهد إلهي لا تدخل في وسع الرأي أو الغلبة.
ولو راجعنا التاريخ، وخصوصاً تلك المصادر المعتمدة عند ابن خلدون لوجدنا
بأن المُشيرين عليه في الأمر كانوا هم عثمان وعبد الرحمن بن عوف وهؤلاء
هم الذين دعاهم. وأما طلحة كان من دخل بعدهم بلا مشورة. ولا مكان لعلي (ع)
بعدهما. إلا تمادياً من الوضاعين والمحرفين. لا ظهر شديد يحمل دليليه ولا أساس

^{٢٤٢} شرح النهج (١٦٢/١).

متين يقيم ادعاءه.

ولنمض مع ابن خلدون لنرى كيف كانت طريقة الشورى. وهل ثبت أن أثروا على رأيه؟ أم أن الأمر لم يكن سوى محضر تعقل وإسراف من ابن خلدون نفسه؟!

ذكر ابن قتيبة "إن عمر قد خرج بالكتاب وأعلمهم: فقالوا: سمعاً وطاعة. فقال له رجل: ما في الكتاب يا أبا جعفر؟ قال: لا أدرى، ولكنني أول من سمع وأطاع. قال: لكنى والله أدرى ما فيه: أمرته عام أول وأمرك العام ^{٢٤٣}". ولندع رواية ابن قتيبة وهو من رفض بن خلدون الأخذ عنه في هذا المجال، لأنه لن يجد عنده ما هو مطابع لتعمله ولا قابل لملطفاته، وإن كان ابن قتيبة ممن مدحه أهل الرجال وأصحاب الترافق كصاحب الفهرست، وممن مارس القضاء بدينور من دون تزلف وشهاد له بالعدالة. ولكن دعنا نعود إلى من وثّقهم ابن خلدون وألزم نفسه بالأخذ عنهم، كابن حرير الطبرى. لنقف عند "حقيقة ما جرى من هذه المشورة المفتعلة".

جاء في الأثر إن أبا بكر لما نزل به الموت دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عمر قال: إنه أفضى من رأيك إلا أن فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذاك لأنه يراني رقيقة، ولو قد أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه، وقد رمقته إذا أنا غضبت على رجل أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه. ثم دعى عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر، فقال: سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله. فقال لهما: لا تذكروا مما قلت لكم شيئاً، ولو تركت عمر لما عدوك يا عثمان، والخيرة لك ألا تلي من أمرهم شيئاً، ولو ددت أني كنت من أمركم خلوا، وكتت فيمن مضى من سلفكم. ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر، فقال: إنه بلغني أنك يا خليفة رسول الله استخلفت عمراً، وقد رأيت ما يلقى الناص منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت غداً لاق ربك، فيسألك عن رعيتك!.

فقال أبو بكر: اجلسوني ثم قال: أبا الله تخويفي! إذا لقيت ربى فسألني قلت:

استخلفت عليهم خير أهلك. فقال طلحة: أعمـر خـير النـاس، فـاشـتـد غـضـبـه، وـقـالـ:

”إـيـ وـالـهـ، هـوـ خـيرـهـ وـأـنـتـ شـرـهـ، أـمـاـ وـالـهـ لـوـ وـلـيـتـكـ لـجـعـلـ اـنـفـكـ فـيـ قـفـاـكـ، وـلـرـفـعـتـ نـفـسـكـ فـوـقـ قـدـرـهـاـ، حـتـىـ يـكـوـنـ اللهـ هـوـ الـذـيـ يـضـعـهـاـ!ـ أـتـيـتـيـ وـقـدـ دـلـكـ عـيـنـكـ، تـرـيـدـ أـنـ نـفـتـنـيـ عـنـ دـيـنـيـ، وـتـزـيـلـنـيـ عـنـ رـأـيـيـ!ـ قـمـ لـاـ أـقـامـ اللهـ رـجـلـيـ!ـ أـمـاـ وـالـهـ لـئـنـ عـشـتـ فـوـقـ نـاقـةـ، وـبـلـغـنـيـ إـنـكـ غـمـصـتـهـ فـيـهـاـ، أـوـ ذـكـرـتـهـ بـسـوـءـ، لـأـلـحـقـنـكـ بـمـحـمـضـاتـ قـنـةـ، فـقـامـ طـلـحـةـ فـخـرـجـ“^{٤٤}.

ما يفهم من هذا النص. وما يظهر من ثناياه، أن أبي بكر كان متشبهاً برأيه في عمر بن الخطاب، ولنرجع مرة أخرى إلى نص ابن خلدون: ”بعد أن شاور علياً وطلحة وعثمان وعبد الرحمن وغيرهم. فأثنوا عليه“. فقد تبين لنا أن الأمر كان على خلاف ذلك الادعاء فعلي (ع) لم يشر بشيء. وكان موقفه الرفض للأول والثاني كما سبق من كلامه في النهج. وإن طلحة أجاب بالرفض حتى أثار حفيظة أبي بكر، وحصل بينهما ما شاء من سب وقبح. وأما عبد الرحمن فقد كان ثناوه عليه مشوباً بموجدة على عمر. إذ قال: ”إنه أفضل من رأيك إلا أن فيه غلطة“. وكان عثمان هو الذي أثني عليه نزولاً عند رغبة أبي بكر، وهو في هواه. أما عموم الصحابة فقد رفضوا كما سبق ذكره، وهابوا خلافته وقالوا فيه ما قاله طلحة.

فكيف بعد كل هذا يدعى ابن خلدون، إن الثناء كان عفوياً من الجميع. وجعل في الأمر من التلبيس ما يعكر صفو الحقيقة. ويكسر شوكة الصواب. ولا بد من الوقوف عند خلافة عمر، وكتابة العهد، لينجلي لنا بعد تبيان مجمل اللعبة، أن نصوص ابن خلدون حولها مدخلة إلى المدى الذي يبدو منها التعسف الذميم والاعنات الممل!

لقد سبق أن رأينا ما كان عليه الحال عند وفاة الرسول (ص) والتلبيس الذي قاموا به ل يجعلوا من وفاة الرسول (ص) وفاة صامتة. وفاة رجل لا مسؤول، ولا هم له فيما يخص مستقبل أمهاته من بعد موته. لقد توفي وهو ساكت عن العهد.

^{٤٤} شرح النهج (١٦٥/١) و تاريخ الطبرى (٤٣٣/٣) و مصنف ابن أبي شيبة (٤٨٥/٧)

وحين أراد ذلك ألقمه عمر بتهمة الهجر. غير أن المقام عند وفاة أبي بكر اختلف تماماً. فأبُو بكر أبصر بالأمور، وأنه لا بد من العهد. وذلك درأ للخلاف من بعده. بعد أن أدعوا أن كتاب الله بين أيديهم ويفكيمهم عن عهد الرسول (ص) من بعده بالأمر. لقد تصدى عمر أثناء مرض الرسول (ص) لقمع كل من رام إحضار الكتاب لرسول الله (ص) كما تقدم. وسنته في ذلك أن كتاب الله بين أيدينا ولا حاجة للعهد بعد ذلك، وأن الرسول يهجر من جهة أخرى.

هذا الموقف لم يعد نفسه يوم وفاة أبي بكر، لم يقل إن كتاب الله معنا ولا حاجة لنا بعهد أبي بكر، فعهد رسول الله (ص) أولى من ذلك وقد أعرضنا عنه، كما لم يقل في أبي بكر ما قاله في رسول الله (ص) لقد كتب أبو بكر العهد إلى عمر وهو في لحظة من الاغماء كما ذكر المؤرخون.

فقد ذكر الطبرى، "إنه دعى أبو بكر عثمان فأمره أن يكتب عهداً، فقال: أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد عبد الله بن عثمان إلى المسلمين. أما بعد، ثم أغمى عليه، وكتب عثمان: قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، وأفاق أبو بكر، فقال: أقر أقرأه، فكُبر أبو بكر، وسر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشىتي! قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله" ^{٤٤٥}.

هذا هو الجو الذي كتب فيه العهد، جو الاغماء والهجر الحقيقى. ولكن عمر بن الخطاب تأدب بهذه المرة مع رفيقه. واستخدم أحسن الألفاظ وأسوغها وحث الناس على طاعة أبي بكر وتقدير ما عهد به إليه. وقد ثبت عنه يومها ما جاء في الأخبار: "إن عمراً كان جالساً والناس معه بيده جريدة ومعه شديد مولى لأبي بكر معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر، وعمر يقول:

"أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله أنه يقول: إني لم آلكم نصحاً" ^{٤٤٦}.

وقد ثبت أيضاً أن عمر اعتبر خلافة أبي بكر فلتة. وذلك لأنها لم تكن بمشورة

^{٤٤٥} تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٢٩.

^{٤٤٦} تاريخ الطبرى (٤٢٩/٣).

من المسلمين، وهو هنا يتقبل عهد أبي بكر له بالأمر من دون أن يراجعه في ذلك أو يعتبره فلتة من جنس تلك الفلتة التي ذكرها.

كيف تقبل العهد من دون مشورة!.

إنني لست مرتاحاً لهذه الحبكة المفضوحة، ولعمر الله، إن المؤامرة لبينة حتى الذي غرارة صغير، فهل ذلك مما ينطلي على أولي الألباب، وهل ابن خلدون يجهل ذلك أم أن الأمر محض تجاهل، ومن قبيل التعمي والتغاضي المقيت؟!.

إن عمر بن الخطاب لم يكن من حضر في بداية الأمر، ولم يشهد ما راج بين الصحابة وأبي بكر في ذلك الشأن، فهو مطمئن الجناب من هذا الأمر، فالمسألة اليوم ليست كما كانت عليه في سقيفةبني ساعدة. ولم يجن عمر ويتوعد بالقتل من قال بوفاة الرسول (ص) ولم يتهم بالهجر أبا بكر حين عهد له بالأمر، ولم يهreu لمجالدة الصحابة على رأيه في الأمر.

إن ابن خلدون لم يستعرض كامل الأحداث، ولم يشر إلى ملابسات العهد كما كتبه عثمان. ولا إلى قضية الاغماء، وكل ذلك تجنبها منه لعدم التعرض للاستفهام.

عثمان والفتنة

هناك ثلاث محطات أساسية تطرق إليها ابن خلدون في حديثه عن خلافة عثمان. وهي تلك التي عنون لها بـ(ب) بدء الانتفاض على عثمان، وحصار عثمان ومقتله).

كيف تناول ابن خلدون تلك الملابسات، وأي قدر من الصراحة ضمنها نصوصه حولها؟.

من ألب على عثمان ومن قتله ولماذا. من هم أنصاره ومن هم معارضوه وأعداءه؟.

كيف تمت عملية القتل ومن تولاه؟.

أسئلة كثيرة تضع تاريخ ابن خلدون أمام محك الحقيقة!.

هنا ترکیز علی نقطتين في استعراض ابن خلدون لأحداث ما يسمونه بالفتنة الكبيرى.

١٠- إن الذين ثاروا على عثمان وقتلواه كانوا يشكلون سفهاء القوم وغوغائهم.

٢- إن الثورة على عثمان كانت من وحي عبد الله بن سباء.

وَمَا يَدْلِ عَلَى الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى، هُوَ قَوْلُ ابْنِ خَلْدُونَ "كَانَتْ عِرْوَةُ الْجَاهِلِيَّةِ تَبْنِيَضُ وَوَجْدُوا الرِّيَاسَةَ عَلَيْهِمْ لِمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَسَوَاهِمٍ فَأَنْفَتُ

نفوسهم منه، ووافق أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمسار، والمؤاخذة لهم باللحوظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات، والتجمني

^{٢٤٧} بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان ".

^{٢٤٨} لا وقوله: "ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم ".

أما ما يؤكّد المسألة الثانية، فهو قوله:

"إلا عماراً فإنه استماله قوم من الأشرار، انقطعوا إليه، منهم عبد الله بن سبا

^{٢٤٩} ويعرف بابن السوداء ".

"وكان ابن سباً يأتيه - أي إلى أبي ذر - فيغريه بمعاوية " ^{٢٥٠}.

"وتأخر عمار ابن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه" ^{٢٥١}.

"وكان بدؤه فيما يقال شأن عبد الله بن سباً المعروف بابن السوداء" ^{٢٥٢}.

والمعنى الإجمالي من هذا الكلام إن ابن خلدون يريد أن يثبت عبر التلبيس والتدليس إن الثورة على عثمان كانت من وحي عبد الله بن سباً لجماهير من الغوغاء وإنها بالنتيجة لم تكن ثورة شرعية وإنما كانت مؤامرة مدبرة وفوضى مجونة استغل فيها المتآمرون سوقة الناس ودهمائهم، وفساق القوم وسفهائهم. وقد سبق أن أفضنا في هذه القضية في كتاب "الإنقال" ويكفي ما ثبته العالم النحرير والمحقق الرئيس السيد مرتضى العسكري في سفره النفيس "عبد الله بن سباً" فقد أثبت بكمال الوسع ضعف هذه الرواية التي انفرد بها سيف بن عمر التميمي والذي أخذها عنه الطبرى... وندع القارئ يواجه بنفسه تفاصيل تحقيق الأستاذ الكبير.. ونتوقف نحن عند ابن جرير الطبرى الذي منه أخذ ابن خلدون رواية عبد الله بن سباً من دون النظر في مداخلتها، أخذها بعد أن وضع

^{٢٤٧} تاريخ ابن خلدون (٥٦١/٢)

^{٢٤٨} تاريخ ابن خلدون (٥٧٤/٢)

^{٢٤٩} تاريخ ابن خلدون (٥٦١/٢)

^{٢٥٠} تاريخ ابن خلدون (٥٦١/٢)

^{٢٥١} تاريخ ابن خلدون (٥٦٧/٢)

^{٢٥٢} تاريخ ابن خلدون (٥٦٤/٢)

عقله في القفص، وانقاد إليها بسذاجة المقلدين، الذين طالما عاتبهم ابن خلدون على التلقي غير الوعي، واللامتحن، الذي لا يتم فيه التمحيق للخبر، قال ابن خلدون:

”هذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية وما كان فيها من الردة والفتورات والحروب، ثم الاتفاق والجماعة أوردتها ملخصة عيونها ومجامعها من كتب محمد بن جرير الطبرى، وهو تاريخه الكبير، فإنه أوثق ما رأينا في ذلك وأبعد عن المطاعن، والشبه في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين“^{٢٥٣}.

إذن، ابن خلدون أخذ هذه الرواية عن الطبرى. ونلاحظ أنه لم يأخذ عنه الروايات التي تدين عثمان أو الخلفاء. فهو إذن ينتقى. وفي انتقائه ذاك يعبر عن إعنات مفرط، وانتحال للأخبار موقع في التبليس. وقد سبق أن رأينا كيف طوى كشحا عن تلك الروايات الكثيرة عند الطبرى في أمر وفاة الرسول (ص) والسفى، ورأينا كيف كان من دأبه أن يروي الأساطير في تعزيز مذهبة التاريخي، نظير ما جاء في مقتل سعد بن عبادة من قبل الجن، وهو بذلك يؤكّد على الطبيعة السحرية لمنهجه التاريخي. ومثل تلك الأساطير التي اعتمدتها لما تنطوي عليه من تعطيم على انحراف خلافة عثمان وعلى مجريات الأحداث.

ولا يهمنا هنا مناقشة صميم الرواية. فيكفي أن يراجع القارئ ما أثبته الأستاذ العسكري. وإنما أريد أن أؤكّد على تهافت ابن خلدون في سرده لهذه الرواية بشكل يثير القرف ويبعث على الغيشان.

إنه مرة يؤكّد أنه - أي ابن سباء - ذهب إلى البصرة حيث حكيم بن جبلة.. وكان هذا الأخير حسب شهادة ابن خلدون ممن أخرج ابن سباء إلى الكوفة. ومنها ذهب إلى مصر حيث التقى بعمار.

من خلال هذه القصة يعتقد ابن خلدون بأن أتباع ابن سباء الرموز كانوا هم عمار وأبو ذر.

وذلك لأن هؤلاء كانوا هم في طليعة الثورة على عثمان. ومن هنا سنبدأ

^{٢٥٣} تاريخ ابن خلدون (٤٥٧/٢)

مناظرنا لابن خلدون:

أولاً: اعتراف ابن خلدون بمشيغ حكيم بن جبلة لعلي (ع) وإخراجه لعبد الله بن سبأ، دليلاً واضحاً على أن حكيم بن جبلة من رفض أفكار عبد الله بن سبأ. غير أن التاريخ يثبت أن حكيم بن جبلة كان من الثوار الكبار ضد عثمان. ومن الذين جاؤوا بوفد البصرة الذي شارك في حصار عثمان. ومن جهة أخرى. أن الوفود كانت تتألف من الوفد المصري والكوفي والبصري. وكلهم كان على موقف واحد. وعلى مطلب مشترك. وكلهم من المتشييعين لعلي (ع) "ونزل معهم أناس من أهل مصر وكان هو لهم في علي ^{٢٥٤} ." نستخلص من ذلك كله، أن حكيم بن جبلة لم يكن حسب ما ذهب إليه ابن خلدون موافقاً على مطالب الوفود إذ زعم أنه رفض تحريض ابن السوداء، وأن هذا الأخير هو من كان وراء حركة الأمصار. ولو كان كذلك - إذن لزم عدم مجئه في وفد كامل لقتل عثمان.

فهناك تناقض بين فيما ادعاه ابن خلدون ويثبت أن ابن السوداء فشل في إقناع حكيم بن جبلة وأهل البصرة. وليس ثمة ما يقنعهم به إلا أمرين. التشيع لعلي، والثورة على عثمان. فأما الأولى فكانت من شأن حكيم بن جبلة وأهل البصرة. وذلك بشهادة بن خلدون. وأما الثانية، فلو كانوا رفضوها، إذن لما جاؤوا بوفدهم لقتل عثمان.

يقول ابن خلدون بعد ذلك " وحدث بالبصرة مثل ذلك من الطعن ^{٢٥٥} ." فإذاً، التحريض على عثمان لم يكن من اختصاص ابن سبأ الأسطوري. إن التناقض هنا واضح جداً. لمن تأمل ثانياً الخبر.

ثانياً:

ابن خلدون الذي بذل الوسع في تعظيم الأميين، ورفض مذاهب الشيعة إذ

^{٢٥٤} تاريخ ابن خلدون (٥٦٨/٢)

^{٢٥٥} تاريخ ابن خلدون (٥٦٤/٢)

رفضها لغلوها في استنقاص الصحابة. ها هو الآن يحط من قدرهم. وينزل من شأنهم كأشد ما يكون من الاستنقاص وكأحط ما يكون الاستنزال. فهو يتهم صحابة من ذوي الفضل والسابقة. وممن يشهد لهم الرسول (ص) بالعظمة وعهد لهم بما سارت به الركبان وغنت به الشعرا.

ها هو يجعلهم أكثر دونية وصغاراً، ويصورهم على أشكال تقع دون البله، وأقل تبصراً من الغرير، فيجعل من عمار بن ياسر ذي السابقة والبلاء ممن يستميلهم اليهودي المتزندق، ومن أبي ذر الغفاري العظيم، من يغريهم السفهاء والدخلاء بالتعرض للأمراء، وકأن ديننا ليست فيه فكرة عن مناهضة الظلم، ولا وازع لمحاربة الفساد.

وأي دين هو أحرص من ديننا في طلب الاصلاح وممارسة التغيير، وحسبك من ذلك التهافت، إن ابن خلدون يذهب إلى أن حكيم بن جبلة كان قد رفض على ابن السوداء دعوته وإخراجه من البصرة، كيف يكون حكيمًا أبصر بالأمور، وأكثر تمييزاً لما بين الحق والباطل، ممن قام الإسلام على إخلاصهم، و Mataوا على صدق في المواطن.

ثم بالله عليك، ماذا سوف يعلمهم ابن السوداء، وكيف يغري أبي ذر ويستميل عماراً؟!!.

ابن خلدون يذهب إلى أن ابن سبا أغنى أبي ذر بمعاوية، إذ قال:
" وكان ابن سبا يأتيه فيغريه بمعاوية " ^{٢٥٦}.

" وجاء به عبادة إلى معاوية وقال: هذا الذي بعث عليك أبي ذر. " كما زعم أنه علم عمارا القول بالإمامية والرجعة.

إن هذا لعمر الله هو صميم النيل من الصحابة، وإنه لازدراء ما بعده ازدراء، فهدي محمد لم يستطع أن يوفر أدنى حصانة دينية وعلمية لعمار وهو من أعمدة الدعوة وأركانها، حتى يأتي يهودي فيستميله، كاستمالة الحدث الصغير. وإن أبي ذر الغفاري الذي تأله قبل الدعوة. وجاء طوعاً يبحث عن الإسلام،

^{٢٥٦} سبق ذكره.

وساهم بكل إخلاص في حروبها كلها. أكان في حاجة إلى يهودي يعلمه الثورة على الظلم. وهل كل ما قام به معاوية لم يكن كافيا لإشارة الوازع الديني في أمثال أبي ذر وعمار. فهل بعد هذا كله يليق بابن خلدون أن يدعي أنه اعتمد على تاريخ فيه بعد عن المطاعن والشبه في كبار الأئمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين !!

ثالثا:

إن ابن خلدون وهو يمارس تدليسه هذا على القارئ كان على مقربة من فهم الأمور. فما يعز على محلل العمران ومفكك التاريخ أن تنطلي عليه مثل هذه القضايا إنه يعترف بأن هؤلاء الثوار كانوا على علاقة وثيقة بالإمام علي (ع) وهم من سمع رأيه في المرة الأولى فراوحوا الأمصار. وهم الذين بايعونه ودعوا لإمامته. وكان جديراً بابن سباء وهو رمز الدعوة إلى الولاية لعلي (ع) وهو الذي علم عمارة القول بالإمامية، وعلم مثل ذلك لأبي ذر وهو الذي انتقل بين الأمصار المتمردة الكوفة والبصرة ومصر وهي مسقط رأس الوفود لكان إذن جديراً أن يتقدم شيعة علي (ع) في زمانه ولكن علي (ع) قد ولاه فيمن ولاهم على الأمصار ولكن له صيت بعيد وشأن يذكر. لما قدمه من جهود في الدعوة لإمامية علي (ع) ولكن التاريخ - المبتدل - لا يجد ما يقوله لنا عن موقع عبد الله ابن سباء في عهد علي (ع) ولا أين كان موقعه يوم اخترق الدار على عثمان. إن التاريخ المبتدل يحتفظ لنا بصورة خفية عنه، سواء في عهد عثمان أو في عهد علي (ع) فهو في كلا العهدين خفي ومتآمر، فإن كان هناك ما يدعوه في عصر عثمان إلى التستر فماذا يمنعه الآن بعد مقتله، ولأنه كان بقي بمصر.. فأي مانع للأمويين في أن يقتلوه وقد تمكنا من قتل ولها يومذاك، ولكن قتلته العثمانية مثلما قتلوا محمد بن أبي بكر. وقد لفق بعض المؤرخين ما حدث من إحراق علي (ع) لهم على ما ذهبوا إليه من تأليهه، ولكنه لم يحرق بن سباء، لأن بعضه من أصحابه اعترض عليه ونصحه بتركه، إن أسطورة الحرق هذه، لم تكن سوى محاولة في تقريب عبد الله بن سباء من دائرة الواقع، غير أنه كان ينفلت من قبضة الواقع، انفلات الرئق، فكيف يحرق علي (ع) أحداً من كان، وهو الذي اعترض على حرق أبي

بكر لفجاءة، وكيف يحرق كل السبئين ويبقى على زعيمهم ويطلق له العنان، وكيف ينال منهم ويحرقهم وهو يعظم ويجلل أحد رموز السبئية على حد تعبير المؤرخين، وهو عمار بن ياسر، بل لقد ولاه وأعزه وكان ساعده الأيمن، ولست أدرى إن كان عبد الله بن سباً حقيقة معاصرة لتلك الأحداث، كيف لا يتعقبه معاوية بعد أن أثبتوه أن عبادة جاء به إلى معاوية، كيف لم يقتله أو يبعث من يقتله، ولم نعثر على قوله لمعاوية ولا للعثمانية فيه على الرغم من أنه رقم واحد في الأحداث التي عصفت بعثمان على حد تعبيرهم، وبعد أن كان معاوية يترصد كل أعداء وقاتلني عثمان، وكان يقول اقتلوهم تحت كل حجر ومذر. إن الاضطراب في هذا الخبر يكشفه المحقق لأول وهلة، فابن سباً هذا رجل لم يدقق فيه المخبرون، ولم يعطوا أدلة قاطعة تمكن المطلعين من معرفة حقيقة نسبة وطبيعة نشاطه، ماذا قال عنه أرباب السير ورواد التاريخ والتراجم، أكان حداداً أم نجاراً، أكان طويلاً أم قصيراً، نحيلأ أم مربوعاً، بل كل ما في الأمر إن أهل الملل والنحل دأبوا على تلقيف الحكايات تلقيف الصبية للكرة، من دون أعمال العقل فيها والنظر، فهمهم إضافة اسم جديد لفرقة يسودون بها أسفارهم، ويكتشلون، بالشاذ والغريب، روایاتهم.

إنه لمن العار يناس، أن يتم التعسف على التاريخ بهذا الشكل المهول المريع .. إن التأليه لم يكن في عهد علي (ع) في أكثر التقادير، لم يكن أحد يدعى أن علياً (ع) إليها، إنها تهمة في ظني نشأت متأخرة، وبالضبط في العصرين الأموي والعباسي، لقد اعترفوا من حيث لا يشعرون إن التشيع لعلي (ع) في العصر الأول لم يكن يعني أكثر من الولاء السياسي.

حتى عصر الإمام الصادق (ع) الإمام السادس من أئمة أهل البيت فأخذ التشيع صبغته الایديولوجية والمذهبية^{٢٥٧} وفي نفس الوقت يعتبرون التشيع من وحي

٢٥٧ اعتبر كثير من المحققين والكتاب، أن التشيع الأول، يأخذ طابعاً سياسياً. يقول في ذلك مثلاً، د. إبراهيم بيضون: والسبئية أسطورة كانت أم حقيقة، هي على هامش التشيع ومتناقضه في الصميم مع الفكر الشيعي، بخلفيته السياسية البحتة، الدولة الأموية والمعارضة ص ٤٥ الطبعة الثانية بيروت وذكر صاحب التاريخ الإسلامي (محمود شاكر) حول الخلفاء الراشدين والعهد الأموي: (بل لم تكن كلمة الشيعة تحمل أكثر من معنى التأييد والمناصرة. ولكنها غدت مع الزمن فكراً خاصاً وعقيدة خاصة، ونسب إلى الأوائل أقوال لم يقولوها وأخبار لم يعرفوها، وأفكار لم تخطر على

عبد الله ابن سباء الذي عاش في عصر عثمان؟!.

ولمزيد من الإيضاح، إن عمارة عندما بعثه عثمان إلى مصر، لم يستمله أحد، وإنما بقي هناك على اتصال بكل من محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة، وكانا من أقوى المحرضين على عثمان، وهما رئيسا الوفد المصري، إن تداخل خطة العمل بين كل من الوفود الثلاثة، ووحدة الطرح لكل رموز المعارضة كعمار، والأستر، وحكيم بن جبلة ومحمد بن أبي بكر وابن أبي حذيفة، والإمام علي (ع) هو ما يجعل أسطورة السبئي لا مسوغ لها إلا في أذهان المدلسين، فهي في تهالها ووهنها كبيت العنكبوت، وهي أوهن البيوت. ونعود بعد ذلك، كي نطلع على الوضع السياسي الذي أثار غضب الثوار وجلب الحق على عثمان، ففي تاريخ ابن خلدون لم يكن عثمان إلا منفذًا لتعاليم الدين، ولم يكن على ما ادعاه الخصوم، ولهذا اتهم الثائرين عليه وقاتلته بالسفاهة.

يقول:

”ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم ”^{٢٥٨}.

وعلى هذا الأساس يكون كل من عمار وأبي ذر وبن مسعود والذين تضرروا من سياسة عثمان وانتقدوها، وكفروه سفهاء، ويدخل في ذلك عائشة عندما دعت إلى قتله في بداية الأمر.

قائلة: ”اقتلو نعثلا فقد كفر“، ويدخل في ذلك حسب هذا المبني الإمام علي (ع) الذي لم ينصره بل هو الذي حسب شهادة عثمان نفسه، قد جرأ عليه الثوار.

بالهم أبدا). وثبت عندي إن الجابرية تلقفها من محمود شاكر، عندما قال: يجمع المؤرخون على أن التشيع لعلي ابن أبي طالب وأبنائه من بعده لم يتجاوز مستوى الولاء السياسي ص ٣٣٤ - ٣٣٥ بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي.

^{٢٥٨} تاريخ ابن خلدون ص ٥٨٤ ج ٢.

٢٥٩: يقول ابن خلدون

”فأتاه عثمان إلى منزله ليلاً يستلنه وبعده الثبات على رأيه معه، فقال: بعد أن أقام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذينهم؟ فخرج عثمان وهو يقول خذلني وجرأت على الناس”).

وحتى كان أبو هريرة الدوسى الذى عرف بملازمة الأمويين على ملء بطنه، ينقل له ابن خلدون موقفاً عقرياً، يقول: يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونى إلى النار، وقاتل.

وأني لا تسأل كيف قاتل أبو هريرة وهل هو من طينة البواسل ومتى رفع أبو هريرة رمحاً أو مسلكاً قوساً، كيف يدعون من اشتهر بكذبه على رسول الله (ص) الصحابة الكبار إلى النجاة، وهم يدعونه إلى النار، فهل يعقل أن يدعون الدوسى علياً، وعماراً، والأشتر، ومحمد بن أبي بكر إلى النجاة!.

وفي ظني أن الذي دعاهم لاختلاق ذلك الموقف، ما قاله الرسول (ص) عن عمار بن ياسر:

”مالهم وعمار يدعونهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار وذاك الأشقياء الفجار“^{٦٠}
وعمار هذا كان قد كفر عثمان وحرض على قتله.

لقد حاول ابن خلدون أن يقلل من شأن تلك المآخذ التي أوردوها على عثمان، كإخراجه أبا ذر إلى الربذة، حاول ابن خلدون كعادته أن يرى عثمان من ذلك كله. وإن اقتضى الأمر الازدراء بأبي ذر، واستصغار بصيرته وعلمه. والآن لماذا أخرج عثمان أبا ذر الغفارى إلى الربذة؟.

ابن خلدون يجيب على الفور، بعد أن يحبك قصة كاملة، كالتالي:
١- إن أبا ذر ”يأخذ بالظاهر في ذم الادخار وبكتز الذهب والفضة و كان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاودية، ويعيب قوله: المال مال الله ويوهم إن في ذلك احتجانه

^{٢٥٩} تاريخ ابن خلدون (٥٧١/٢)

^{٦٠} البخاري (٤٣٦ ح ١٧٢/١) وقعة صفين (٣٢٣) كنز العمال (٣٣٥٣١ ح ٧٢٢/١١) و التذكرة (٩١) و

مناقب الخوارزمي أبن سعد (٢٥١/٣ و ٢٥٢)

للمال وصرفه على المسلمين حتى عتب أبو ذر في ذلك معاوية فاستعتب له وقال:
سأقول ما للMuslimين وأتى ابن سبأ إلى أبي الدرداء وعبادة بن الصامت بمثل
ذلك فدفعوه، وجاء به عبادة إلى معاوية وقال:
هذا الذي بعث عليك أبو ذر ^{٢٦١}.

٢ - ثم استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة وقال: "إن رسول الله (ص)
أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعا فأذن له ونزل الربذة وبنى بها مسجدا
وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه صعلوكيين وأجرى عليه رزقا، وكان
يتعاهد المدينة.

فعد أولئك الرهط خروج أبي ذر فيما ينقمونه على عثمان مع ما كانوا يعدون
عليه من إعطاء مروان خمس مغامن إفريقيا، وال الصحيح أنه اشتراه بخمسمائة ألف
فوضعها عنه ^٢.

من خلال الفقرتين، يتبيّن أن أبو ذر كان رجلا ظاهريا لا يأخذ بباطن الأمور.
 فهو إذن ينقصه العلم بالأحكام والدراءة بقضايا الشريعة. وأن عبد الله بن سبأ
أغري أبو ذر وأوهمه بما يجعله يعاتب معاوية فاستعتب له هذا الأخير. وإنهم
أتوا بعبد الله بن سبأ إلى معاوية قائلين له: هذا الذي بعث عليك أبو ذر ثم إن
خروج أبي ذر إلى الربذة، كان اختيارا منه وذلك بعهد من رسول الله (ص)
وأقطعه عثمان ما يكفيه من الإبل وأعطاه ما يفضل عنه من الرزق فهو لم يكن
ذًا حاجة وإن اتهام عثمان بإخراج أبي ذر كان من ادعاء ذلك الرهط.

لنبأ بطرح رأينا حول هذه العبارة ونفكّها لنقف عند حقيقتها.

أولا: إن أبو ذر بشهاده الرسول (ص) كان أصدق لهجة.. كما جاء في الرواية
الشهيرة:

"ما أقلت الغبراء ولا أظلمت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر".
 فهو من أتوا الفطنة والعلم والصدق. ولا أدل على ذلك من التزامه وسلوكه
الذي يعكس ذلك العلم الكبير والقطنة النافذة.

^{٢٦١} تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٦٢

لقد اعتبر (رض) مفاسد الأمويين يومها خطراً على الإسلام وصدق فراسته فهو لم يكن كما ادعى مؤرخ المغرب، رجلاً ظاهرياً ولا أدل على علمه أيضاً، والتزامه، ما جرى بينه وعثمان في حضرة كعب وإن كانت تلك الحادثة تدل على شيء فإنما على مدى قوّة بصيرة أبي ذر، وحسبه من علم الباطن، أن رد بأعنف العنف اليهودي المندس عن الافتاء في دين الله. وأن تكون دعوته مما حملها المحررون عبر تاريخ.

ولا يزال أبو ذر الغفارى يمثل أروع نموذج لثورة الفقراء حتى جعله البعض الاشتراكي الأول في تاريخ الإسلام!.

ودعنا هنا، نعرض بعض الإحصائيات عن الممتلكات الضخمة التي كانت تدور بعين أبي ذر وتشير رفضه لنرى هل مثل ذلك الحجم من الثروات في أيدي عثمان. وذلك الشكل من الفقر الذي تعانيه الطبقات السفلية من الناس.

شيء طبيعي بالنسبة لذوي الضمائر الحية والروح المسئولة.

لترى هل فعلاً كان أبو ذر يتضرر من عبد الله ابن سبأ أن يعلمه الثورة على الآثرياء. أم أن ذلك من تعاليم الإمام علي (ع) حين كان لا يفتر عن الإشارة إلى هذا الوضع وهو صاحب الكلمة الشهيرة:

”ما رأيت نعمة موفورة إلا ويجانبها حق مضيع“ وهو من قال بعدها:

”الله الله في الطبقات السفلية من الناس“ ^{٢٦٢}.

”ذكر عبد الله بن عتبة إن عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بواudi القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً كثيراً وإبلًا“ ^{٢٦٣}.

هذه هي ثروة عثمان الشخصية ناهيك عما أقطعه لبطانته، وما اغتصبه من

^{٢٦٤} بيت مال المسلمين.

^{٢٦٢} شرح النهج (٨٥/١٧)

^{٢٦٣} مروج الذهب (٣٤١/٢ - ٣٤٢)

^{٢٦٤} مروج الذهب (٣٤٢/٢) وراجع عثمان و الفتنة الكبرى من كتابنا الانتقال ص ١٩١.

وللبيب أن يتسائل، هل بعد هذا كله كان أبو ذر ضحية تمويه. وصدق طه حسين، حين استشرف الأمر قائلاً: " ومن هذا التلقين إلى أن يقال أنه الذي لقن أبا ذر مذهبة كله في نقد الأماء والأغنياء وتبشير الكاذبين للذهب والفضة بمكاو من نار، وما أعرف إسراف يشبه هذا الإسراف ".^{٢٦٥}

وي neckline السحر على الساحر في عملية العرض المغرضة ليكون ابن خلدون أحياناً عراب فضيحته فقد ذكر أنهم أتوا به إلى معاوية، وإنه لمن الحظ تأييد هذه الأكذوبة فمعاوية الذي ضاق بأبي ذر الغفارى حتى أخرجه من الشام وشكاه إلى عثمان. كيف لا ينسى بنت شفة أمام عبد الله بن سبأ وهو الذي أثار أبا ذر على معاوية حسب زعمهم.

ثم كانت الطامة الكبرى والبطشة الأخرى، كما نسجها المنوال الردى عندما اعتبر ابن خلدون خروج أبي ذر إلى الربذة محض اختيار. ولا بد هنا من الاعتراض على ابن خلدون، ونقول له إن أبا ذر خرج ثلاط مرات وليس مرة واحدة، أخرج المرة الأولى من المدينة إلى الشام، وأخرج في الثانية من الشام إلى المدينة، وفي الثالثة من المدينة إلى الربذة وكان عثمان هو من أجربه على كل ذلك.

لقد نفي إلى الشام عندما شakah مروان، ورجع إلى المدينة بطلب من عثمان بعد أن شakah معاوية ومن المدينة هجر إلى الربذة بعد أن ضاق به عثمان ذرعاً، وسوف نتعرض فقط للصورة التي تم تهجير أبي ذر عليها من المدينة إلى الربذة، والطريقة التي جاء بها إلى المدينة من الشام.

عندما ضاق معاوية بأبي ذر الغفارى بالشام واستنجد عليه بعثمان طلب منه هذا الأخير أن يشخصه إليه في أغلظ مركب وأوعره^{٢٦٦}.

ذكر المسعودي: " إن معاوية كتب إلى عثمان: إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك، فكتب إليه عثمان بحمله، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة

^{٢٦٥} إسلاميات ط حسين ص ٧٦١، ط الأولى ١٩٦٧.

^{٢٦٦} مروج الذهب ج ٣٤٩ ح ٢.

يطرون به، حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواطن أفحاذه وكاد أن يتلف، فقيل له: إنك تموت من ذلك، فقال: هيئات لن أموت حتى أنفني، وذكر جوامع ما ينزل به بعد، ومن يتولى دفنه، فأحسن إليه في داره أيام، ثم دخل إليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء.

وكان في ذلك اليوم قد أتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف من المال، فشرت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الرحمن خيرا، لأنه كان يصدق، ويقرى الضيف، وترك ما ترون، فقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين، فشال أبو ذر العصا، فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال: يا ابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت النبي (ص) يقول: "ما يسرني أن أموت وأودع ما يزن قيراطا" فقال له عثمان: وارعني وجهك، فقال: أسير إلى مكة، قال: لا والله، قال: فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت؟ قال: إني والله، قال: فإلي الشام، قال:

لا والله، فاختر غير هذه البلدان، قال: لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتني في دار الهجرة ما أردت شيئا من البلدان، فسأرني حيث شئت من البلاد، قال؟ فإني مسيرك إلى الربذة".

أما ما ادعاه ابن خلدون من أن عثمان أعطى أبا ذر ما يكفيه من رزق، فهذا ما لا يشتد له ظهر أيضا، لما علمتنا من أن أبا ذر كانت له حساسية كبيرة من المال الحرام، وأنه ما ثار إلا على هذا التبذير والترف، والتصرف اللامسئولي في أموال المسلمين، والثابت في الرواية هو أن أبا ذر مات هو وأبناءه من شدة الجوع، حتى أن زوجته لم تجد له كفنا، وكان بعض السيارة قد دفنه بعد ذلك ^{٣٧}.

ذكر صاحب المروج: "قال عثمان: فإني مسيرك إلى الربذة، قال: الله أكبر، صدق رسول الله (ص) قد أخبرني بكل ما أنا لاق، قال عثمان: وما قال لك؟ قال: أخبرني بأنني أمنع عن مكة والمدينة وأموت بالربذة، ويتولى مواراتي

نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز، وبعث أبو ذر إلى جمل له فحمل عليه أمرأته، وقيل: ابنته، وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير إلى الربذة. ”.

إن إخراج أبي ذر إلى الربذة من قبل عثمان وتضائق التيار الأموي به، هو من المشهورات في التاريخ الإسلامي، ولو كان اختيارا منه الخروج إلى الربذة، إذن لما أغلظ عثمان على من شيعه في الطريق بأشد مما تكون الغلظة. ولما حدث بينه والإمام علي (ع) في شأنه من تلك المشادات.

كان ابن خلدون يحاول من وراء ذلك تبرئة عثمان وتخطئة معارضيه مرة متهمها إياهم بالسفسه ومرة بقلة العلم وأخرى بسوء الفهم، وينسى إنه كم مرة اعترف هو نفسه بمقاصد عثمان من حيث لا يشعر وعرض ما يؤكّد ذلك الوضع السئ وتلك الصورة البشعة التي كانت عليها خلافة عثمان. ^{٢٦٨}.

قال ابن خلدون:

” وقيل: إن عليا لما رجع عن المصريين أشار على عثمان أن يسمع الناس ما اعتزم عليه من النزوع قبل أن يجيء غيرهم ففعل وخطب بذلك، وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أول من اتعظ، استغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فليأت أشرافكم يروني رأيهم، فوالله إن ردني الحق عبد لأستن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد، وما عن الله مذهب إلا إليه فوالله لأعطيكنكم الرضى ولا أحتجب عنكم. ثم بكى وبكي الناس ودخل منزله ”.

إذن، فإن ابن خلدون يذكر أن عثمان اعترف بالذنب، وأنه استغفر الله وتاب وأعطى للناس من نفسه التوبة ” ونقول لابن خلدون على من تكون هذه التوبة إن كان معارضوه من يجبر في حقهم التوبة والاستغفار. وعلى من استغفر عثمان، وبما اتعظ. أو لا يدل ذلك على أنه أتى من كبائر الإثم والذنوب ما أمسى ظاهرا للجميع. فكيف يبرئ بن خلدون من اعترف بالذنب وأقر بالخطيئة. وعليه، فإن أبو ذر كان قد أخرجه عثمان قهرا. ويدل على ذلك ما رواه الواقدي: ” إن أبو الأسود الدؤلي قال: كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب

^{٢٦٨} تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٧١.

خروجه، فنزلت الربعة، فقلت له: ألا تخبرني، خرجت من المدينة طائعا، أم أخرجت؟ فقال: "كنت في ثغر من ثغور المسلمين، أغنى عنهم فأخرجت إلى المدينة، فقلت: أصحابي، ودار هجرتي، فأخرجت منها إلى ما ترى". وفي يوم الدار حيث اقتحم الثوار بيت عثمان، ودخل محمد بن أبي بكر على عثمان.

قال ابن خلدون: "دخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلا بما لا حاجة إلى ذكره، ثم استحيا وخرج. ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم" ^{٢٦٩}. وليت شعري - هذه المرة - أي حوار طويل هذا الذي جرى بين الاثنين، وعلى أي أساس رأى ابن خلدون عدم الحاجة إلى ذكره، وكيف أن محمد بن أبي بكر استحيا وخرج؟!.

وهلا استحيا وهو يسير إليه من مصر إلى المدينة في وفد كبير. دعنا ننقل ذلك الحوار الطويل لنرى هل فعلا لا تدعونا الحاجة إلى ذكره أم لا. لما دخل محمد بن أبي بكر على عثمان قال له هذا الأخير: ويحك! أعلى الله تغضب! هل لي إليك جرم إلا أني أخذت حق الله منك؟ فأخذ محمد بلحيته، وقال: أخراك الله يا نعثل!.

قال: لست بنعثل، ولكنني عثمان وأمير المؤمنين، فقال: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان!.

قال عثمان: يا ابن أخي، دعها من يدك، فما كان أبوك ليقبض عليها، فقال: لو عملت ما عملت في حياة أبي ليقبض عليها، والذي أريد بك أشد من قبضتي عليها. فقال: استنصر الله عليك وأستعين به، فتركه وخرج، وقيل: بل طعنه في جبينه بمشقص كان في يده ^{٢٧٠}.

ومن هنا تبين كيف أن الفائدة عممت عند ذكر الحوار، وأن محمدا لم يخرج مستحيا كما تخيله ابن خلدون، وإنما عنده وضربه وأخلي بذلك الطريق للثوار كي

^{٢٦٩} تاريخ ابن خلدون (٥٧٤/٢)

^{٢٧٠} شرح النهج (١٥٧/٢)

يشرعوا في قتله، ولا أدل على ذلك مما ذكرنا من شكوى بنت الفرافصة ما فعل
محمد بن أبي بكر، عندما سألهما علي (ع) كما تقدم، ولو كان استحيا وخرج
كما زعم، لما شكت الكلبية، ولكن من الشاكرين له. ولما كانوا انتقموا منه
شر انتقام حين ظفروا به وأحرقوه انتقاما ليوم الدار، ولقاء ما صدر عنه من عنف
في قتل عثمان. ولقد ذكر ابن خلدون في مورد آخر، وفي لحظة تبرير جديد
إن ابن حديج كان قد منع محمد ابن أبي بكر الماء جزاء بما فعل بعثمان، ثم
أحرقه في جوف حمار.

أفلا يدل ذلك على أن موقف محمد العنيف من عثمان، كان مما اشتهر به
في زمانه!.

لقد امتنع ابن خلدون عن نقل تفاصيل الحوار الذي دار بين الاثنين، حتى
يتتسنى له القول:

”ثم استحيا وخرج“.

ويبقى أن نطرح سؤالا على ابن خلدون عن موقع وموقف عائشة من مقتل
عثمان.

ابن خلدون، لم يذكرها بشيء. وقصاري ما جادت به قريحته في هذا المجال
قوله: اثم خرجت عائشة إلى الحج ودعت أخاها فأبى فقال له حنظلة الكاتب:
تدعوك أم المؤمنين فلا تبعها، وتتبع سفهاء العرب فيما لا يحل؟ ولو قد صار
الأمر إلى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف ^{٢٧١}.

وفي مورد آخر قال: وكان سبب اجتماعهم بمكة أن عائشة كانت خرجت إلى
مكة وعثمان محصور كما قدمناه، فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة، فلقيت في
طريقها رجلا من بني ليث أخوها، فأخبرها بقتل عثمان وبيعة علي فقالت: قتل
عثمان والله ظلما ولأطلبين بدمه فقال لها الرجل ولم أنت كنت تقولين ما قلت؟
فقالت: إنهم استتابوه ثم قتلواه وانصرفت إلى مكة ^{٢٧٢}.

^{٢٧١} تاريخ ابن خلدون (٥٧٤/٢)

^{٢٧٢} تاريخ ابن خلدون (٥٧٩/٢)

هذا تلبيس يهدف إلى وضع مقدمة مضللة لحادثة الجمل. وإذا كان ابن خلدون قد اعتقد في أمر الجمل على ابن جرير الطبرى، فإنه لم يأخذ عنه موقف عائشة من مقتل عثمان. لقد انتهى ما يمكنه من سبك كلامه من دون أن يهدى صرح التلبيس فيما يتحله من مواقف وأحداث. يقول:

”وهذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبرى اعتمدناه للوثيق به لسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين“^{٢٧٣}.

لقد عمل ابن خلدون على انتقاء الروايات التي من شأنها، التشويش على القارئ، فجعلها بحيث يختفي منها موقف عائشة من مقتل عثمان، حين قال: فقال لها الرجل ولم أنت كنت تقولين ما قلت؟ وماذا قالت عائشة؟... ابن خلدون يسكت!.

لكن الطبرى وهو المعتمد عند بن خلدون، ينقل ما كانت تقوله عائشة في عثمان. وهو قوله: اقتلوا نعثلا فقد كفر.

هذه الكلمة هي التي دفعت ابن خلدون إلى تعويضها بن تقولين ما قلت؟ وسوف نقل ما دار بين الرجل وعائشة، بمزيد من الإيضاح. ذكر ابن خلدون، إن رجلا من بني ليث أخواها لقيته في طريقها، وكان ذلك منه تلبيسا في القضية. وحتى يبعد القارئ عن الاسم الذي ذكره المؤرخون، كي لا يقفوا على تفاصيل الكلام.

فالرجل الذي قال عنه ابن خلدون، من بني ليث أخواها. هو ما عرفه المؤرخون بعبيد بن أم كلاب. وهو رجل ينسب إلى أمها. وهو عبيد بن أبي سلمة الليثي.. وباسم بن أم كلاب اشتهر، وكذلك ما دار بينه وبين عائشة من كلام، وذكر ذلك كل من الطبرى وابن الأثير وآخرون.

والحوار الذي جرى بينهما كان كالتالى:

صاحت أم المؤمنين، ردوني، ردوني. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن بدمه! فقال لها ابن أم كلاب: ولم؟ فوالله إن

^{٢٧٣} تاريخ ابن خلدون (٥٩٤/٢)

أول من أمال حرفه لأنت، فلقد كنت تقولين: اقتلوا نعشلا فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوا، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير من قولي الأول، فقال لها ابن أم كلاب:

ومنك الرياح ومنك المطر	فمنك البداء ومنك الغير
وقلت لنا إنه قد كفر	وأنت أمرت بقتل الإمام
وقاتله عندنا من أمر	فهبنا أطعناك في قتله
ولم تنكسف شمسنا والقمر	ولم يسقط السقف من فوقنا
يزيل الشبا ويقيم الصعر	٢٧٤ وقد بايع الناس ذا تدرا
ومامن وفي مثل من قد غدر	وويلبس للحرب أثوابها

وكان ابن خلدون يهدف من وراء ذلك إلى غاية ذميمة. أن يجعل سبب اجتماع الثلاثة بمكة هو أن عائشة قد خرجت إلى مكة، وعثمان محاصرا، حتى ورد عليها هذا الرجل وأخبرها بالأمر.

ونرى من الواجب فك هذا التهافت، وتوضيح هذا التضليل، فعائشة خرجت وهي تعلم بمقتل عثمان، وكانوا قد كلموها في الأمر فرفضت، وكان مروان قد جاء إلى عائشة، فقال: "يا أم المؤمنين، لو قمت بين هذا الرجل وبين الناس؟ قالت: قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحج.

قال: فيدفع إليك بكل درهم أنفقته درهمين، قالت: لعلك ترى إني في شك من صاحبك؟ أما والله لو ددت أنه مقطع بغرارة من غرائري، وإنني أطيق حمله، فأطروحه في البحر".

وكان عائشة شديدة عليه أيام خلافته. ومن المحرضين عليه أيضا. حتى ورد عنها بينما عثمان يخطب إذ دلت قميص رسول الله (ص) ونادت: "يا معاشر المسلمين، هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته، فقال عثمان رب

^{٢٧٤} ذو تدرا: أي ذو عدة وقوة

^{٢٧٥} طبقات ابن سعد (٨٨/٥) والكامل (٢٠٦/٣) والفتح (٢٤٩/٢) و تذكرة السبط (٦٦) و تاريخ

الطبرى (٥٤٩/٤)

^{٢٧٦} اليعقوبي (١٧٥/٢)

اصرف عنك كيدك إن كيدك عظيم ^{٢٧٧} .

هذا هو موقفها منه وإنها لم ترجع عن ذلك إلا بعد أن قيل لها إن عليا (ع) قد بويع، فقالت عندها: "والله ليت هذه أنتبعت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ^{٢٧٨} ، ومن أقوالها في ذلك: يا أيها الناس إن عثمان قتل مظلوما والله لأطلبين بدمه، ^{٢٧٩} وكانت تقول: يا معشر قريش إن عثمان قد قتل، قتله علي ابن أبي طالب، والله لأنملة - أو قالت - لليلة (ليوم) من عثمان خير من علي الدهر كله ^{٢٨٠} .

والمستفاد من أخبار المؤرخين.. إنها لم تقل ذلك إلا بعد أن علمت بيعة علي .. من قول عبيد بن أم كلاب، السابق ^{٢٨١} ، وقبل ذلك كانت بمكة، وأخبرت بقتله من دون سماع بيعة علي. قالت: أبعده الله، ذاك بما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد ^{٢٨٢} .. وكانت تقول: أبعده الله، قتله ذنبه، وأماده الله بعمله، يا معشر قريش لا يسونكم قتل عثمان كما سام أحمر ثمود قومه، إن أحق الناس بهذا الأمر ذو الإصبع - تقصد طلحة ^{٢٨٣} - ثم أقبلت مسرعة إلى المدينة، وهي لا تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر، وكانت تقول ^{٢٨٤} : بعده النعش وسحقا، إيه ذا الإصبع، إيه أبا شبل، إيه ابن عم لكانني أنظر إلى إصبعه وهو يباع له حشو الإبل ودعدعواها ^{٢٨٥}

ولما انتهت إلى "سرف" قرب مكة في الطريق إلى المدينة، لقيها عبيد بن أم كلاب ^{٢٨٦} فحدث بينهما ما قدمناه.

^{٢٧٧} تاريخ البغوي (١٧٥/٢)

^{٢٧٨} الكامل (٢٠٦/٣) و تاريخ الطبرى (٤٥٩/٤)

^{٢٧٩} تاريخ الطبرى (٤٥٩/٤)

^{٢٨٠} الفتوح (٢٤٨/٢)

^{٢٨١} انظر كتابنا هذا (ص ١٧٥)

^{٢٨٢} شرح النهج (٢١٦/٦)

^{٢٨٣} شرح النهج (٢١٦/٦)

^{٢٨٤} شرح النهج (٢١٥/٦)

^{٢٨٥} الدعدة: الزجر

^{٢٨٦} تاريخ الطبرى (٤٥٩/٤) و طبقات ابن سعد (٨٨/٥)

والآن تبين لك عزيزي القارئ.. كيف أن عائشة كانت تريد الأمر لابن عمها، تعصباً لبني تيم بن مرة.. وإنها لم تعدل عن قولها إلا بعد أن نزل عليها خبر المبايعة لعلي (ع) كالصاعقة.. فأرعدت وأمطرت.

لقد كان علي (ع) شجاً في حلقها.. قدِي في عينها.. وقد أسرها موته حين حزن لذلك المؤمنون، وعبرت عن ضعفها حين وصل إليها خبر مقتله قائلة :

كما قر عيناً بالإياب المسافر

وقد سألت عمن قتله؟ فقيل: رجل من مراد، قالت:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى
فإن يك نائياً فلقد نعاه
نعاة ليس في فيها التراب ^{٢٨٧}

قال: لما أن جاء عائشة قتل علي سجدت ^{٢٨٨}

وليت شعري ما الذي يمنع ابن خلدون من أن يشير إلى ما قامت به عائشة من مخالفات لشرع الله وخروجها من بيتهما بعد أن أمرت بزلزومه.. لقد خرجت بألف من الرجال وردها علي (ع) بأربعين من نساء البصرة.. إنها عقيرية ابن خلدون.. فيلسوف التاريخ وعالم العمران.

^{٢٨٧} تجارب الأمم / ابن مسکویه (ج ١ ص ٣٨٣) . و طبقات ابن سعد (٤٠/٣) و الكامل (٣٩٤/٣) . و تاریخ الطبری (١٥٠/٥) ^{٢٨٨} مقاتل الطالبین (٥٥) .

ابن خلدون.. ومعاوية بن أبي سفيان!

لأحد من المؤرخين يشك في درجة انحراف معاوية بن أبي سفيان.. وفي تلك الطعون التي أحصاها عليه المؤرخون.. وكثيراً منهم اتهمه في الدين وحكم بفسقه.. وكيف لا يفسق من قاتل علياً (ع) وقتل عماراً، وحجراء.. وخفق الأمة بسياسةبني هند وأبناء العاصم، بعد أن حولها إلى ملك عضوض، وإذا كان الصحابة حسب ما ذكرناه سابقاً يعرفون المنافق ببغضه علياً (ع) فكيف بمن حاربه وجعل سبه ولعنه سنة لا تتم من دونها الصلاة ولا تقوم بدونها المنابر.. وعند بن خلدون كعادته في تبرير السلطة وإخفاء الطعون، يقول في شأن

معاوية:

” وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة، ولا ينظر في ذلك إلى حديث الخلافة بعدي ثلاثون، فإنه لم يصح، - والحق - إن معاوية في عداد الخلفاء ”.

ورغم إن ابن خلدون يعتقد أن الخلافة في عهده كانت غلبة إلا أنه لم يجد في ذلك ما ينقض حكم الشرع، ” فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبهون بعضهم ببعض، وحاشا لله أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده، فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانية ممن تلاه في المرتبة كذلك، وكذلك من بعدهم من خلفاءبني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة

وعلى ذلك الأساس يكون معاوية من الخلفاء الراشدين، الذين سنتهم فرض على جميع المسلمين.

وإن الخلافة التي تأتي عن طريق المغالبة والعصبية ليست ملكا، كما يدعى أهل الأهواء، بل هي شرع له نظائره في سيرة الأنبياء.^{٢٩٠} واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتية والمعبر عنها بالكسرورية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكه فلا ينافي الخلافة والنبوة، فقد كان سليمان بن داود وأبواه نبيين وملكين وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربهما عز وجل، ومعاوية لم يطلب الملك ولا أبهته للاستكثار من الدين، وإنما ساقه أمر العصبية مطبعها لما استولى المسلمون على الدولة كلها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعوه الملوك إليه قومهم عندما تستعمل العصبية وتدعوا لطبيعة الملك.^{٢٩١}

ليس التهافت فيما يقوله ابن خلدون فحسب، وإنما البطشة الكبرى عندما تكون ذهنية الجبر والتزعة الحتمية متحكمة في سرده الأحداث وتقييمه للواقع، نزعة التصويب التي بلغت قمة الاسراف في تاريخ بن خلدون، إن خبرة طويلة في مزاحمة البلاط، وسفر طويل في دهاليز التآمر والتزلف، وفشل قاتل لبلوغ المأرب آل عليا، كل ذلك كان مما لصق بذهن بن خلدون ومن خلاله نظر إلى التاريخ، فخلط وتأه دون ضوابط.

إن منطق بن خلدون في تبرير السلطة والخلافة كما أحصاها عليه دارسو تاريخه من المستشرقين وغيرهم، استوعبوا هذه التزعة في تاريخه... ونلاحظ ذلك فيما تقدم من كلامه عندما اعتبر "الخلافة بعدي ثلاثة" حديثا لم يصح، وحاجته في ذلك غير منطقية، فهي مما يكشف عنه السياق... والسياق هنا هو تلك المحاولة الكبيرة في سبک تبرير يشد ظهر خلافة معاوية، بما يشوه حكم الله ويطعن في خاصرة الشريعة.

^{٢٨٩} تاريخ ابن خلدون (٦٢١/٢)

^{٢٩٠} تاريخ ابن خلدون (٦٢١/٢)

ولذلك لم يكن يجد حجة مناهضة في تبرير عدم تضارب الملك مع النبوة والخلافة في مثال ملك معاوية، بل ارتكز على ضرب متهالك من القياس، القياس مع الفارق! ”أما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة والنبوة، فقد كان سليمان بن داود وأبواه صلوات الله عليهمما نبيين وملكين وكنا على غاية الاستقامة“.

فابن خلدون كان يجهل أو يتجاهل أن هذا قياس لا أساس ينھض به في مقام الحجية، لأن ملك داود وسليمان هو مما آتاهم الله إياه من دون غلبة أو عصبية، وإنه لم يكن في مقاومة أناس ربيين، أو سفك الدماء المؤمنة، أو سب الرموز الدينية، ومعاوية بن أبي سفيان، ممن أجرى أودية من الدماء كان ضحيتها جيل كامل من المسلمين، وإنه أقام ملكه على محاربة رموز الإيمان ومنازلة التراث الديني، وحسبك أن يعترف ابن خلدون بقيمة أهل البيت في مقام آخر حين اقتضى ذلك منمه التبرير، وقد كان معاوية شديدا عليهم، يقول ابن خلدون، متزلفا إلى الدولة الشريفية في المغرب ومدغدغا لمشاعرها: ”على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الإيمان، فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. ففراس إدريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن. ومن اعتقاد خلاف هذا فقد باع ياثمه وولج الكفر من بابه“. ولا يهمنا هنا إن كان ابن خلدون قال ذلك في لحظة الدفاع عن مآرب أخرى. لأن يركز على طهارة المنسب ورفعته في عصمة بعض الخلفاء من القيام بما ذكره المؤرخون في أحوالهم كالرشيد والمأمون. إن ذلك عندي من باب ”صلى وصام لأمر يطلبه، فلما قفى الأمر فلا صلى ولا صاما“.

ولكنها تبقى شهادة منه تؤكد على عظمة شأن أهل البيت وعصمة القرآن لهم، وهذا لم يمنعه من أن يبرر ملك معاوية الذي قام على قتال وحصار أهل البيت (ع). حتى أن ابن خلدون أنهى كلامه في كل تلك الأحداث بمدح معاوية والدعاء قائلا:

”والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم“.

لقد أسس ابن خلدون موقفه من معاوية على أساس النسب والشرع،

فالنسب وهو أنس العصبية ومناط الغلبة، والاستقامة هي ضمان اعتبار الملك خلافة.

أولاً: النسب

النسب بالنسبة لابن خلدون من المسائل الأساسية في تاريخه، بها افتح كتاب العبر، وضرب الآراء بعضها ببعض، ما بين ناف وثبت، وانتصر لعلم الأنساب، مشيراً إلى أهميته قائلاً:

” قالوا وتدعوا الحاجة إليه في كثير من المسائل الشرعية، مثل تعصيب الوراثة وولاية النكاح، والعاقلة في الديات، والعلم بنسب النبي (ص)، وإنه القرشي الهاشمي الذي كان بمكة، وهاجر إلى المدينة. فإن هذا من فروض الإيمان ولا يعذر الجاهل به. وكذا الخلافة عند من يشترط النسب فيها. فهذا يدعوا إلى معرفة الأنساب ويفك فضل هذا العلم وشرفه، فلا ينبغي أن يكون ممنوعاً ”^{٢٩١}

وفي ذلك المبحث تعرض لنسب الأمويين وأشار إلى معاوية قائلاً:

” وعقب معاوية بين الخلفاء والإسلام بين معروف يذكر عند ذكرهم ”^{٢٩٢} .

وركز ابن خلدون على نسب قريش في موضوع السقيفة، وجعله منطقاً وجداً انتصروا به على الأنصار، فلا يخفى بعد هذا إن ابن خلدون ممن يهتم بالأنساب و يجعل لها أهمية كبيرة في تمييز الأشخاص والعشائر.

ونطرح السؤال: هل هناك ما يثبت طيب مولد معاوية وطهارته؟.

النسبة هشام بن محمد الكلبي، من المعتمدين عند ابن خلدون وممن استشهد بتراجمهم، يوقفنا في مثالبه الشهيرة عند نسب معاوية قائلاً: كان معاوية لأربعة: لعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، ولمسافر ابن عمرو، ولأبي سفيان، ولرجل آخر سماه ”^{٢٩٣} .

وكان حمامه، وهي بعض جدات معاوية، كان لها رأية بذى المجاز

^{٢٩١} تاريخ ابن خلدون (٦/٢) .

^{٢٩٢} تاريخ ابن خلدون (٣٧٧/٢)

^{٢٩٣} ربيع الأبرار (٥٥١/٣) والشرح (١١١/١ و ٦٨/٤) والتذكرة (١٨٤)

يعني من ذوات الرأيات (في الزنا) ، حتى قال أحدهم لمعاوية (حمامة جدتك و كانت بغية في الجاهلية ، لها رأية توتى)^{٢٩٤} بهذا النسب.. يستقيم أمر معاوية، ويستسيغه المخيال الخلدوني، ويجعل أمره لا يخالف النبوة والخلافة.

ثانياً: الشرع

تقوم شرعية معاوية فيما خاضه من حروب، في أنه اجتهد، وهذا رأي ابن خلدون على أساس ذلك الاجتهاد تحل إشكالية الموقف المطلوب اتخاذه إزاء معاوية وأعماله، ولكن لا بد من طرح السؤال، على أي أرضية إيمانية بنى معاوية ملكه؟ وعلى أي أساس شرعي يسوغ تصويب ابن خلدون لفعاله كلها، وكان معاوية - كما أجمع المؤرخون - قد سن لعن علي على المنابر والمساجد.. هذا ناهيك عن قتله للمسلمين وإحداشه في الدين كما أخبر بذلك الرسول (ص) في الروايات المستفيضة في التنبؤ ببني أمية.. وهو في نفس الوقت تخطئ لعلي (ع) في قتاله لمعاوية، وفي اعتباره من أهل الفسق.

^{٢٩٤} العقد الفريد (٤/١٦) و الغارات (٤٢ و ٤٣)

كربيلا... نموذجا آخر

لو كانت أحداث كربلاء وحدها لكفت في فضح حقيقة الكفر الأموي، ولأبانت عن طبيعة النفاق الذي بقي ردها من الزمن يتفاعل داخل نفوس بنى أمية يتربّب لحظة الانتصار، ليعبر عن قسوته وخشونته ضد البيت العلوي.. ولم يعد بعد واقعة كربلاء ما من شأنه أن يضيّب الرؤية، ويعتم الطريق.. فالدماء التي أهرقـت في الطف كافية لإعطاء صورة حقيقة لمن شاء أن يعتبر.. ولم يبق بعد ذلك من شك في الأمر إلا عند من طبع الله على قلبه، وأرداه في غواية النواصـب وتجار الخلافة.

وإن ابن خلدون لممن حبا على الدرب يؤسس للظلم تارياً مزيفاً.. ويضع قواعد لتسويغ تراث الأمويين والعباسيين.. ولو كانت كربلاء مما جاء بالنصر الديني للإمام الحسين (ع) لما كان ابن خلدون تخلف عن مدحه وملكه، والتعريض بإعداءه.. إنها عقلية "اللال" و "الصلة مع من غالب" أولم يقلها رجل ليس من ملتـنا.. بأنه شخصية وقحة، لا تعرف إلا حقوق القوة، ولا تدرك غير الطغيان!! إـي والله، إنه الصواب!.

ولأن واقعة كربلاء، نمت عن مقتل الحسين، وهزيمة جماعته وزوال آخر منافس من آل البيت (ع) تبني العنف المقدس في كبح جماح الباطل.. فإن ابن خلدون رأى من الحق أن ينتصر لـيزيد، ويـخطـيـءـ الحـسـيـنـ (عـ)ـ بـصـورـةـ يـأـبـاهـاـ العـقـلـ السـلـيمـ وـتـمـجـهـاـ الفـطـرـ النـقـيـةـ.

فماذا قال في الحسين، وما موقفه من يزيد؟.

إن الحسين (ع) في تاريخ مكيافيلي العرب.. كان رجلاً مشهوراً.. وإن كان عادلاً ومحقاً.. وذلك عندما ظنها من نفسه بأهليته وشوكته^{٢٩٥} ... وإن كان ابن خلدون قد اعترف له بالأهلية.

"فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة "إلا أنه خطأ في ظن الشوكة" وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها".

ودليله على ذلك، "أن عصبية مصر كانت في قريش، وعصبية قريش في عبد مناف، وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس^{٢٩٦}".

وقد أسرف ابن خلدون في نسبة الغلط إلى الإمام الحسين (ع) إذ قال غير ما مرر:

١ - وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها.

٢ - فقد تبين لك غلط الحسين (ع) إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه.

٣ - وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك.

٤ - وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله.

٥ - فلا يجوز قتل الحسين مع يزيد ولا لزيد.

ابن خلدون الذي أسرف في التصويب في شأن معاوية ويزيد، هاهو يبالغ في تخطئة الحسين (ع)، وقد كان أحرى به أن يرد الأمور إلى منطقتها الحقيقي، من دون تعسف ولا افتعال، ذلك أن الأمور يومها كانت تتحرك في دائرة المسؤولية الدينية، وأن المسلم به يومها أن الخلافة أمر شرعي يتولاها من هو أحق بها، ولم يكن منطلق الحسين (ع) ظني كما يحلو لابن خلدون أن يسميه، وإن كان الأمر كذلك، فإن أباه أولى بذلك لحرصه على قتال بني أمية، فمن قال إن الإمام

^{٢٩٥} تاريخ ابن خلدون ص ٢٢٨ ج ١.

^{٢٩٦} تاريخ ابن خلدون ص ٢٢٨ ج ١.

الحسين دفع به الظن بالشوكة، وهو يعلم أن العدو يملك من أمرها ما لا يملك، ولكن خروجه كان اضطرارياً، وحتى لا يذل بيته، ويجعلها قرينة - عبر الأجيال - لتصويب خلافة الفساق، ومن جهة أخرى، كان الإمام قد استقدم من قبل أهل الكوفة، الذين أضعفوا شوكته بخذلانهم.

إن ابن خلدون وقع في التباس خطير، عندما اعتبر الاجتهد منطلقاً لثورة الحسين (ع) ويكتفي أن يرجع إلى الخلف، ليرى أن محاربة الخلافة الظالمة كانت ديدنا للبيت الهاشمي.. فأبواه قاتل معاوية.. وكذلك ابنه الحسن (ع) فأي اجتهد والحكم بفسق يزيد بن معاوية هو مما أقر به بن خلدون نفسه.. وأهليته في إدراك شرع الله كان مما أقر به أيضاً، في قوله:

وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواسم ما معناه إن الحسين قتل بشرع جده، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الأراء^{٢٩٧}.

هنا يتبين التناقض المهول الذي تاه فيه ابن خلدون.. أليس جوهر ما ينطق به هو أن من شرع جده أن ينهض يزيد لقتله وأن يسكت أصحابه على ذلك وعدم الخروج على فسقه.

هل هناك منطق يعترف بهذا النوع من التصويب المبتدئ الذي يجعل للحق أكثر من وجه:

"والحسين فيها شهيد مثاب، وهو على حق واجتهد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهد^{٢٩٨}."

ومن هو الذي على باطل، ومن هو الذي يستحق القتل؟
إن منطق القياس (القياس المبتدئ)، هو حمار المصوبة في كل المناسبات الذي يهدفون فيه إلى تبرير فسق الفاسقين وظلمهم.. ألا بئس ما يدعون!.

^{٢٩٧} تاريخ ابن خلدون (٢٢٩/١)

^{٢٩٨} تاريخ ابن خلدون (٢٢٩/١)

هناك سؤال يفرض نفسه على الباحث: إذا ثبت أن يزيد ثبت فسقه في أيام أبيه، بشهادة ابن خلدون حيث قال: "بل كان يعزله أيام حياته في سماع الغناء وينهاء عنه" ^{٢٩٩}.

فإن التهمة - إذن - توجه في الأساس إلى معاوية.. خصوصا وأن اتفاقية الصلح بين الحسن ومعاوية كانت تقتضي رجوع الخلافة إليه أو إلى أخيه الحسين (ع).

ذكر ابن خلدون أن بيعة يزيد حدثت لاعتبارات كثيرة منها:

١ - جلب مصلحة ودرأً مفسدة" والذي دعى معاوية لإيشار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ ^{٣٠٠}.

وقال: "فالأول منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته، فإياك أن تظن بمعاوية، رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد، فإنه أعدل من ذلك وأفضل، بل كان يعزله أيام حياته في سماع الغناء وينهاء عنه، وهو أقل من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة".

٢ - إن بيعته كانت باتفاق كبار الصحابة وما ثبت عن ابن عمر، هو بسبب تورعه.

قال: "ولايتهم الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته، فالأولى أن لا يتحمل فيها تبعه بعد مماته، خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد، فإنه بعيد عن الظنة في ذلك كله، لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعوه إليه، من إيشار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتهي الظنة عند ذلك رأساً، كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وإن كان معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب" ^{٣٠١}.

وقال: "وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكتهم عنه دليل على انتفاء الريب

^{٢٩٩} تاريخ ابن خلدون (٢٢٢/١)

^{٣٠٠} تاريخ ابن خلدون (٢٢١/١)

^{٣٠١} تاريخ ابن خلدون (٢٢٢/١)

فيه، فليسوا ممن تأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم أجل من ذلك، وعدالتهم مانعه منه ^{٣٠٢}.

ثم قال في شأن ابن عمر: ”وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحا كان أو محظورا، كما هو معروف عنه“.

لتوقف إذن عند حقيقة الواقع التي عاصرت لحظة العهد ليزيد، لتتبين إذا ما كانت الأمور تتم من خلال هذا الوازع ووفق هذا التدبير.

ابن خلدون ينقل في مقام آخر كلاما لمعاوية نفسه جاء فيه: ”فلم يمض إلا قليلا حتى ازداد به مرضه، فدعا ابنه يزيد وقال: يابني إنني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأمور، وأخضعت لك رقاب العرب. وجمعت لك ما لم يجمعه أحد“ ^{٣٠٣}.

تلك هي الكلمة التي قالها معاوية، وهي تعكس بعد القهري في انتزاع البيعة لابنه... فكيف تم إخضاع الرقاب ليزيد؟.

يستحسن عندنا بادئ ذي بدأ، ذكر من عارض بيعة يزيد لنسخ دعوى اجتماع كبار الصحابة وإقرارهم على تلك البيعة، وسبباً بعد الله بن عمر الذي اعتبر بن خلدون فراره محمولا على الورع المعروف عنه.

يذكر اليعقوبي إنه لما حج معاوية وحاول أخذ البيعة من أهل مكة والمدينة، أبي عبد الله بن عمر وقال: نباع من يلعب بالقرون والكلاب ويشرب الخمر ويظهر الفسوق، ما حجتنا عند الله“ ^{٣٠٤}.

وذكر الطبرى ^{٣٠٥} أن معاوية أرسل إلى عبد الله ابن عمر مائة ألف درهم فقبلها فلما ذكر البيعة ليزيد، قال ابن عمر: هذا أراد؟ إن ديني إذن علي لرخيص.

^{٣٠٢} تاريخ ابن خلدون (٢٢٢/١)

^{٣٠٣} تاريخ ابن خلدون (٢٢٣)

^{٣٠٤} البغوي (٢٢٨/٢)

^{٣٠٥} الكامل (٥٠٦/٣)

وفي هذا بيان شافي لما انتحله ابن خلدون من فرار بن عمر كان ورعا منه.
فهل ورעה هو الذي جعله يرفض الدخول في مثل هذا الأمر، أم أن المسألة قد تكون على جانب من الصواب إذا ابتنيناها على الأساسين الديني والمصلحي للخلافة، كما اعتقد ابن خلدون.

لقد اعتمد معاوية أسلوبين في إجبار الناس على البيعة، الأسلوب الأول يكمن في شراء الأصوات بالمال، كما ذكر ابن الأثير^{٣٠٦}، إن المغيرة أوفد مع ابنه موسى عشرة ممن يثق بهم من شيعةبني أمية، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، فقدموا عليه، وزينواله بيعة يزيد، فقال: معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا على رأيكم؟ ثم قال لموسى سرا: بكم اشتري أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفا، قال: لقد هان عليهم دينهم.

ومنها أيضا ما سبق أن ذكرناه في حق بن عمر عندما بعث إليه معاوية بالمال لقاء البيعة، وبهذا الأسلوب يكون معاوية قد بنى ملكه على حساب الدين، ولم يبق أي مصلحة في ما رأه معاوية، إنه يدرك قبلا، م أن الدين عائق بيعة ابنه يجب أن يشتري بالمال.

أما الأسلوب الثاني، فهو الاكراه والتهديد، وهذا ما اشتبه المؤرخون من أن معاوية كان يهدد من خالف البيعة ويجزل عطاء من بايع^{٣٠٧}.
يقول ابن الأثير: " وكان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له الناس وبايده^{٣٠٨}".

والآن إليك ما جاء في التاريخ من أحداث واكبته أخذ البيعة لزيد وترك للقارئ حرية النظر فيها ليرى إلى أي مدى كان ادعاء ابن خلدون لإجماع الصحابة وسكتهم وتحري معاوية للمصلحة العامة، مجرد ادعاء باطل. روى ابن الأثير، إن معاوية كتب إلى مروان في بيعة يزيد، فقام مروان خطيبا فقال:

^{٣٠٦} الكامل (٥٠٤/٣)

^{٣٠٧} العقد الفريد (٣٧٢ - ٣٦٨/٤)

^{٣٠٨} الكامل (٥٠٨/٣)

إن أمير المؤمنين قد اختار لكم، فلم يسأل، وقد استخلف ابنه يزيد بعده، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال: كذبت والله يا مروان! وكذب معاوية ما أخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه، ﴿والذِّي قَالَ لِوَالِدِيهِ أَفَكُمْ[﴾]، فسمعت عائشة مقالته من وراء الحجاب، فقامت من وراء الحجاب، وقالت: يا مروان! يا مروان! فأنصت الناس، وأقبل مروان بوجهه، فقالت: أنت القائل لعبد الرحمن أنه نزل فيه القرآن، كذبت والله ما هو به، ولكنه فلان بن فلان، ولكنك فضض من لعنة الله.

وذكر أبو هلال العسكري، أنه لما قالت عائشة ذلك كتب مروان إلى معاوية بذلك، فأقبل، فلما دنى من المدينة استقبله أهله، فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير، والحسين بن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فلما رآهم سبهم واحداً واحداً، ودخل المدينة، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين، ثم خرج معاوية حاجاً، فاستقبلوه ثم قال: ألا تعلمون أنني كنت قد عودتكم من نفسي عادة أكره أن أمنعكم إياها حف أبین لكم؟ إني كنت أتكلم بالكلام فتعرضون فيه، وتردون علي، وإياكم أن تعودوا، وإنني قائم فقائل مقاولاً يعارضني فيه أحد منكم إلا ضربت عنقه. ثم وكل بكل واحد منهم رجلين وقام خطيباً فقال: إن عبد الله بن عمر وابن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر قد بایعوا، فبایعوا، فابتذر الناس بیایعون حتى إذا فرغ ركب نجائبهم، ومضى إلى الشام، وأقبل الناس على هؤلاء يلومونهم، فقالوا: والله مما بایعناك ولكن فعل بنا ما فعل .^{٣٠٩}

وفي رواية ابن الأثير: فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعتذر من أنذر،
إني كنت أخطب فيكم ف يقوم إلی القائم منكم فيكذبوني على رؤوس الناس، فأحمل
ذلك وأصفح وإنی قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا
لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلی رأسه فلا يبقين رجل إلا
على نفسه.

كذلك تمت بيعة يزيد. بشراء الضمائر وإرهاب المعارضين. وكيف يوافق ما رأينا من أمر بيعة يزيد ما ذهب إليه ابن خلدون قائلاً: والذي دعى معاوية لإثمار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في المجتمع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حيئذ^{٣١٠}.

لقد أدرك معاوية كما أكدنا سابقاً، فسبق ابنه وعلم أنه لا يصلح لحمل الناس على حكم الشريعة فيزيد هو من اشتهر فسقه واستهتاره وإن العهد إليه بالأمر قد يسبب مفسدة للأمة، وخراباً لبنيانها الشامخ. لقد ذكر ابن كثير إن يزيد، اشتهر بالمعازف وشرب الخمور والغناء والصيد واتخاذ القيام والكلاب والنطاح بين الأكباس والدباب والقروود وما من يوم إلا ويصبح فيه مخموراً؛ وكان يشد القرد على فرس مسرحة بحجال، يسوق به ويلبس القرد قلنس الذهب وكذلك الغلمان وكان يسابق بين الخيل وكان إذا مات القرد حزن عليه وقيل أن سبب موته أنه حمل قردة وجعل ينقرها ففُضته^{٣١١}.

وذكر البلاذري: كان ليزيد بن معاوية قرد يجعله بين يديه ويكتنه أبا قيس، ويقول: هذا شيخ منبني إسرائيل أصاب خطيئة فمسخ وكان يسوقه النبيذ ويضحك مما يصنع وكان يحمله على أتان وحشية ويرسلها مع الخيل فيسبقها، فحمله يوماً وجعل يقول:

فليس عليها إن سقطت ضمان	تمسك أبا قيس بفضل عنانها
جياد أمير المؤمنين أتان	ألا من رأى القرد سبقت به

وذكر أبو الفرج الأصفهاني، إن يزيد بن معاوية كان أول من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنين وأظهر الفتوك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه، والأختلط وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه^{٣١٣}.

^{٣١٠} تاريخ ابن خلدون (٢٢١/١)

^{٣١١} تاريخ ابن كثير (٤٣٦/٨)

^{٣١٢} الأنساب / (ج ٤) القسم الأول (ص ٢)، مروج الذهب (٧٧/٣)

^{٣١٣} الأغابي (٦٨/١٦)

ولقد أتى به أبوه يطلب له البيعة، وهو لا يزال سكرانا، وأرسل معاوية يزيد إلى الحج وقيل بل أخذه معه فجلس يزيد بالمدينة على شراب فاستأذن عليه عبد الله بن العباس والحسين بن علي فأمر بشرابه فرفع، وقيل له: إن ابن عباس إن وجد ريح شرابك عرفه، فحجبه وأذن للحسين، فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب، فقال: ما هذا يا ابن معاوية؟ فقال: يا أبا عبد الله هذا طيب يصنع لنا بالشام ثم دعا بقدح فشربه ثم دعا بقدح آخر فقال: إسق أبا عبد الله يا غلام فقال الحسين: عليك شرابك أيها المرء. فقال يزيد:

دعوتك ثم لم تجب	ألا يا صاح للعجب
والصهباء والطرب	إلى القينات واللذات
عليها سادة العرب	وباطية مكللة
فؤادك ثم لم تتب	وفيهن التي تبت
فوثب الحسين عليه وقال: بل فؤادك يا ابن معاوية تبت ^{٣١٤} .	

فهذه يا عزيزي القارئ هي المصلحة التي توخاها معاوية للإسلام من خلال العهد لابنه وذاك هو الغلط الذي ارتكبه الحسين - حاشاه - في تاريخ ابن خلدون لما ثار ضد يزيد الذي بعثه أبوه سكرانا إلى الحسين لتخاطط عليه الأمور ويدعو حفيد الأنبياء وبحبوحة الطهر والتقوى إلى السكر... فيقول له :

دعوتك ثم لم تجب	ألا يا صاح للعجب
ولو كانت كلمة " لا " فقط توجب القتل لكانه واجبة على هذا الوضع	
الذي تكثر فيه الجرأة على الإسلام؟. فهل هذا يدع مجالا للشك في أمر يزيد،	
أو التصديق بما انتحله ابن خلدون من أن أباه لم يكن على علم بذلك.	
لقد بذل الوسع في تبرير تلك الأحداث، ولو باستضاعف الحقيقة الواضحة، وعمدته في كل لك القياس مع الفارق، والتوصيب المبتدل،	
وتسویغ التناقض.	

^{٣١٤} الأغاني (١٦/٥٦٣١) و ابن الأثير (٤/١٢٧)

ثم تعال لكي نرشف من ذلك الكشكوك الذي يبعث على الضحك والبكاء على النشوة والعرف على التسلية والاشمئزاز، لترى كيف يتسرّب الكفر ببرد الإيمان وكيف ب الرغم انفك الطالمون الذين عاشوا قبلنا كيف تحاسب على ظلمك ولا يحاسب من سبقوك لقد نسي ابن خلدون أن يسمى ذلك صراع طبقي بين طبقات التاريخ. يقول: ^{٣١٥}

"هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقبح فمن الذي يختص بالعدالة، والنبي (ص) يقول: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاث ثم يفشووا الكذب" ، فجعل الخيرة، وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه.

فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم، ولا تشوّش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك، وما اختلفوا إلا عن بينة، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق، وأعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة، ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم، ويجعله إمامه وهاديه ودليله، فإنهم بذلك، وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه، وأعلم أنه على كل شيء قادر وإليه الملجأ والمصير، والله تعالى أعلم".

إن ابن خلدون عندما صادف (حديث الخلافة) (الخلافة بعدي ثلاثين) حكم بعدم صحته لأن فيه تعرّض لمعاوية وهو هو يعطينا تحقيقاً ظالماً "العدالة مختصة بالقرن الأول" وهل قتل الحسين، وهو ظلم بواح يدخل في ذلك العدل؟ أو هل كان ذلك في سبيل جهاد أو إظهار حق كما ذكر. وهل جهاد من يزيد أو إظهار حق منه لما جاء سكراناً إلى الحسين (ع) يدعوه إلى البيعة والخمر معاً. وهل إن ذلك الاختلاف الخطير رحمة كما زعم، أو أن تلك الحروب والمعارك الدامية كانت رحمة لنا. مثلما جعل الله رحمته ومغفرته لآدم في إراقة دم المسيح، في العقيدة النصرانية.

هل الحق حق واحد ... أم له وجوه وبطون ... لشد ما شطح ابن خلدون!.

^{٣١٥} تاريخ ابن خلدون ص ٢٣٠ ج ١.

شبهات بن خلدون والرد عليها

في الفصل السابع والعشرين من المقدمة، خصص ابن خلدون حديثا طويلا عن مذاهب الشيعة في حكم الإمامة ضمنه تحامل شديد على مذاهبهم التي قسمها حسب ما جرت عليه أهواء أصحاب الملل والنحل والترجم إلى فرق متعددة كان ابن خلدون فيها مجرد مقلد متعصب لمذهبه تبني الطعون الناصبية على علالتها وقدف بها ذات اليمين وذات الشمال.

والحق أقول، إن ابن خلدون كان أكثر تعسفا وتعصبا من المظنون فيه وأكثر سطحية وعناد مما اشتهر به من نفاذ البصيرة وثاقب النظر.

يبدأ بتعريف لغوي للشيعة ويلخص نظرتهم في الإمامة في أنها ركن الدين وقاعدة الإسلام ثم يقول بعدها: " وأن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتفي مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلا لهم الفاسدة " ^{٣١٦} .

وهنا لا بد أن نستفسر ابن خلدون عن هذه النصوص التي ينقله الشيعة ويؤولونها على مقتفي مذهبهم، يقول:

وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفى: فالجلي مثل قوله:

” من كنت مولاه فعلي مولاه ” .

هذا هو الجلي من نصوصهم وعلى الرغم من أن ابن خلدون ادعى أنها من النصوص التي لا تصح أو تؤول على غير وجهها فإنه لم يتطرق إلى سندتها ولم يباشر في تأويتها على الوجه المطلوب. كما هو دأبه في الرد على ما يقوى عليه، إنه اكتفى بالادعاء وذلك مما لا يغفر على محقق كبير في مستوى ابن خلدون، فمقتضى قوله إن هذه النصوص المنقوله إما أنها لا يعرفها جهابذة السنة ونقلة الشريعة موضوعة أو مطعون فيها أو أنها مؤولة على نحو فاسد.

وهنا لا بد من التركيز على كلمة ” جهابذة السنة ونقلة الشريعة ” ذلك أنها إذا استنطقنا تراث ابن خلدون عمن هم من تلك المقامات لأجباب على الفور إنهم الطبرى واليعقوبى والمسعودى من دواة التاريخ وثقاته. وقافلة المحدثين وأصحاب الصحاح الستة من رواة السنة .

ولا يخفى على الباحث إلى أي حد من الاسراف هو هذا الادعاء. فحدث الولایة المعروفة بحدث الغدیر. هو من المشهورات عند نقلة الشريعة، وحسبك أن لم تخلوا منه كتب المشاهير من مؤرخي ورواية الأخبار بمن فيهم ناصبيها الكبار، كصاحب الصواعق المحرقة، وابن كثیر .

و قبل أن نذكر مختلف الطرق التي روی بها الحديث وتواتر عليها، لا بد من أن نحصي عدد رواته.

ذكر صاحب كتاب الغدیر - عبد الحسین الأمینی - إن عدد رواته من العلماء تسعة وثلاث مئة (٣٦٠) وإن عدد رواته من التابعين أربع وثمانين (٨٤) ومن الصحابة، مئة وعشر (١١٠) ^{٣١٧} .

وقد ذكره نقلة الأخبار بأسانيد وطرق مختلفة، فمن المؤرخين ذكره الطبرى في مؤلفه الخاص، وابن كثیر في التاريخ وابن الأثير في أسد الغابة وابن عساكر في الأوائل، كما رواه من أعلام المحدثين أحمد بن حنبل، النسائي، الحاکم، والحافظ بن حجر، والطبراني.

^{٣١٧} الغدیر (٦٠/١) و (١٥١/٧٢)

ومن المتعصبين الذين اعترفوا بتواتره وصحته، صاحب الصواعق المحرقة بن حجر الهيثمي والذهبي وابن كثير، إذ قال: شيخنا أبو عبد الله الذهبي، وهذا حديث صحيح.

وحسبك أن يكون ابن حرير الطبرى كبير الممدوحين والمعتمدين لدى ابن خلدون، قد أفرد لهذا الحديث كتابا خاصا سماه "الولاية" من خمسة وسبعين طریقا.

وهكذا بعض من تلك الطرق التي روی بها: ذكر الحاكم في مستدركه عن زيد بن أرقم من طریقين: قال لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقمن فقال: كأني دعيت فأجبت وإنني قد تركت فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ثم قال:

إن الله عز وجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيده علي فقال من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وذكر الحديث بطوله ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.

ورواه الإمام أحمد بن حنبل ^{٣١٨}.

عن البراء بن عازب من طریقين أيضا، قال: كنا مع رسول الله فنزلنا بغدير خم فنودي فينا الصلاة جامعة، وكسرح لرسول الله (ص) تحت شجرتين فصلى الظهر وأخذ بيده علي فقال: ألستم تعلمون أنني أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا بلـي، قال: ألستم تعلمون أنني أولى بكل مؤمن من نفسه، قالوا: بلـي قال: فأخذ بيـد علي فقال: من كنت مولاـه فعليـه مولاـه اللـهم والـ من والـاه وـعادـ من عـادـه قال فـلقـيـه عـمر بـعـد ذـلـك فـقـال لـه: هـنـيـثـا يـا اـبـن أـبـي طـالـبـ أـصـبـحـت وـأـمـسـيـت مـوـلـيـ كلـ مـؤـمـنـ وـمـؤـمـنـةـ.

وفي رواية أخرى جها الطبراني وصححها ابن حجر عن زيد بن أرقم قال:

^{٣١٨} مسلم أحمد ج ٤، ص ٢٨١.

خطب رسول الله (ص) بغدير خم تحت شجرات فقال:

”أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب وإني مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنت
فائقون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجاحدت ونصحت فجزاك الله خيراً فقال:
أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن
ناره حق وأن الموت حق وأن البعث حق بعد الموت وأن الساعة آتية لا ريب
فيها وأن الله يبعث من في القبور قالوا بل نشهد بذلك قال: اللهم اشهد ثم قال: فمن
كنت مولاً فهذا مولاً - يعني علياً - اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ”.^{٣١٩}.

وذكره النسائي عن عائشة بنت سعد قالت سمعت أبي يقول سمعت رسول
الله (ص) يوم الجحفة فأخذ يد علي وخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها
الناس إني وليكم قالوا صدقت يا رسول الله ثم رفع يد علي فقال هذاولي
ويؤدي عندي وأنا موالٍ من والاه ومعادي من عاداه.

هذه نماذج يسيرة جداً فيما لو قيست بخضم المرويات التي لا طائل من
ذكرها هنا، وقد بلغ التواتر به حداً أضحى كلاماً يجري على ألسن كبار الشعراء
وتتلقاء الآذان من دون رد ولا استغراب.

قال أبو تمام:

بفيحاء ما فيها حجاب ولا ستر	وويم الغدير استوضح الحق أهله
ليقر بهم عرف وينأهم نكر	أقام رسول الله يدعوهم بها
ولي ومولاكم فهل لكم خبر	يمد بضبعيه ويعلم أنه
يروح بهم غمر ويغدو بهم غمر	يروح ويغدو بالبيان لمعشر
وكان لهم في بزهم حقه جهر	فكان له جهر بإثبات حقه
٣٢٠ من البيض يوماً حظ صاحبه القبر	أثم جعلتم حظه حد مرتفع
وإن كان ابن خلدون يعتقد أن بعضها من تلك المرويات خاضعة لفساد تأويل	إإننا أسفيناً من ادعاء الطعن في صحة إسناد الحديث فماذا
الرافضة لها، فهب إننا أسفيناً من ادعاء الطعن في صحة إسناد الحديث فماذا	يكون الأمر يا ترى، فيما لو حملناه على فساد التأويل، إن التأويل الفاسد هو ذلك

^{٣١٩} الخصائص ص ٢٥ في باب الترغيب في موالاته والترهيب من معاداته.

^{٣٢٠} ديوان أبي تمام (١٤٣) و الغدير (٣٣٠/٢).

الذي يبتعد كثيراً بالنص عن معناه الواضح والظاهر من دون قرينة تشد ظهره، وحديث الولاية، مما تيسر فهمه، لوضوح منطوقه وامتناع مفهومه عن التعامل والتتكلف، ولم يسع إلى تأويل هذا الحديث إلا بعض من النواصب المتعصبين من العامة، وإن الرافضة على عكس ما ادعاه ابن خلدون، لم يؤولوه.

ولو أننا قبلنا الخوض في مثل هذه الترهات التي لا سند من العقل ينهض بدلليتها. لا ختنزناها في كابر النواصب بن حجر الهيثمي، الذي قبل الحديث وصححه، وراح وراء تأويله الفاسد.

وهاك ما راوه من تأويل لكي نعلم أي الحزبين أكثر تقلباً في فساد التأويل. يقول ابن حجر في الصواعق المحرقة: "لا نسلم إن معنى الولي ما ذكره، بل معناه الناصر والمحبوب، وهو حقيقة في كل منها، وتعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتد به، وتعيممه في مفاهيم كلها لا يسوغ" ^{٣٢١}.
ولا أظن أن ابن خلدون، وابن حجر، يجهلان معنى المشترك اللغطي.
إن ثمة معايير أتقنها أهل اللغة والحديث. في تأويل ذلك النوع من الألفاظ.

وأنه لمن السخف والعار أن يدعي أن الحقيقة موجودة في كل معانيه، في مقام حديث الغدير من دون الإشارة إلى القرينة كشرط في تخصيص معناه.
فابن حجر يريد أن يقول:

١ - لا نسلم بأن معنى الولي ما ذكروه، بل معناه الناصر والمحبوب.
٢ - تعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتد به وتعيممه في مفاهيم كلها لا يسوغ.

لو سألنا ابن خلدون عن أفضل من تعاطى مع حديث الغدير بالتأويل الحسن، لقال ابن حجر لما يدل عليه الحال من ادعاه ابن خلدون فدعنا هنا نعالج ما قاله ابن حجر.

في العبارة الأولى هناك مجازفة تنطوي على جهل وقلة علم، فقوله:

^{٣٢١} الصواعق المحرقة (٤٣).

لا نسلم بأن معنى الولي ما ذكروه، يخفي موقف التمذهب، لأن التسليم في هذه المقامات ليس من اختيار الأهواء النفسية والمذهبية، بقدر ما هو تقرير العلم، فاختياره الناصر والمحبوب هو أيضاً مما ينقل تقبله على العقل، لأنه لا دليل يقتضيه، وهو من قال: تعين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتد به، كما أن معنى الناصر والمحبوب هي أبعد المعاني عن مفهوم الولي من الإمامة نفسها، والقرائن على ذلك ظاهرة، يدل عليها الحال من خطبة الرسول (ص) وظروفها النفسية والتاريخية.

فتاريخ الخطبة تزامن مع نهاية وختم الرسالة، وعلى أثرها نزل الوحي معلناً بإكمال الدين. وجغرافيتها منطقة نائية، وطقس حار. كل هذا لا يدل على أن المقام، هو مقام حديث عن المحبة والنصرة.

هذا بغض النظر عن عدم وفاة أصحابه بالمحبة والنصرة. بل وإنه حتى على أساس هذا التأويل يبقى ابن خلدون محاصراً بحرج شديد. في أمر الأمويين الذين لم يحبوا ولم ينصروا علياً (ع).

وهكذا يكون الجلي من نصوص الشيعة جلياً حقيقة. ولا مهرب بعد ذلك من إقامة الحد على الادعاء الخلدوني. جزاء وفاقاً لما رامه من تهريج يمجده طبع الغير.

وفي مورد آخر يتعرض ابن خلدون لما تدعى الشيعة من وصية الرسول (ص) للإمام علي (ع) قال:

” والأمر الثاني هو شأن العهد من النبي (ص) وما تدعى الشيعة من وصية علي (رض) وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل ”.^{٣٢٢}

وقد تبين في ما ذكرنا آنفاً تواتر حديث الغدير وبؤس التأويل الذي حملوا عليه لفظه، إضافة إلى ذلك الحديث، هناك ما كان سقناه في الفصول السابقة من هذا الكتاب، والتي تعددت حتى فرضت تواترها على رواة الحديث من العامة. وحسبك من ذيوع خبر الوصية أن الشعراً تغنت به في مختلف المعارك التي شهدتها

^{٣٢٢} مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٤.

الإمام علي (ع) وإن ذلك كان من مختصاته.

حتى قال فيه حسان بن ثابت:

أبا حسن عنا ومن كأبي حسن
إليك ومن أولى به منك من ومن
وأعلم منهم بالكتاب والسنن ^{٣٢٣}
ألس أخاه في الهدى ووصيته

وحتى قال فيه أحد أعداءه في حرب الجمل وهو من ضبة:
الذى يعرف قدمًا بالوصي ^{٣٢٤}
نحن بنو ضبة أعداء علي ذاك
وقول الكمي ^{٣٢٥}:

بي به عرش أمة لانهادام
والوصي الذي أمال التجو
وقول السيد الحميري ^{٣٢٦}:

وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
والله من عليهم بمحمد
بالمنكرات فجر عوه العلقتها
ثم انبروا لوصيه ووليه
وقول المتنبي ^{٣٢٧}:

إذ كان نورا مستطيلا شاملا
وتركت مدحى للوصي تعمدا
وإذا استقل الشئ قام بذاته
وكذا ضياء الشمس تذهب باطلا
وكذلك اختص الإمام بهذا اللقب، وكان نشيدا على أسلتهم كما قدمنا.
فكيف مع كل هذا يدعى ابن خلدون إن ذلك لم يصح. وياليته قال ذلك وكفى.
بل زاد الطين بلة حين ادعى للهه أنه " ولا نقله أحد من أئمة النقل ".
وقد أثبتنا بقاطع البرهان، أن المؤرخين المعتمدين عند ابن خلدون، قد ذكرروا
روايات عن الوصية ومنهم اليعقوبي في تاريخه، بل إن مؤرخين كالطبرى

^{٣٢٣} اليعقوبي (١٢٨/٢) وشرح النهج (٣٥/٦)

^{٣٢٤} شرح النهج (١٤٤/١)

^{٣٢٥} الكامل (١٥١/٢)

^{٣٢٦} الأغاني (٤/٩)

^{٣٢٧} ديوان المتنبي

والمسعودي وهما العمدة عنده، أفردوا الحديث الوصية كتابين خاصين، ابن جرير الطبرى سماه "الولاية" كما ذكرنا، والمسعودي سماه "إثبات الوصية" هذا مع أن الصحاح الستة تطفح بما يخرص الألسن من الروايات المؤكدة لوصيتهم. لقد أورد ابن خلدون حديث الدواة، مدعياً إن ذلك دليل على عدم الوصية. وأضاف إلى ذلك بعضاً من سطحاته التي انتهت به إلى القدح في شخص الإمام علي (ع) بایراد رواية شاذة جداً، يدل على ضعفها الحال من سلوك الإمام علي وموافقه في قضية الخلافة، قال: والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع، وكذا قول عمر (رض) حين طعن وسئل في العهد فقال: إن أعهد لقد عهد من هو خير مني يعني أبي بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي (ص) لم يعهد، وكذلك قول علي للعباس (رض) عنهمما حين دعاه للدخول إلى النبي (ص) يسألانه عن شأنهما في العهد، فأبى علي من ذلك وقال: إنه إن منعنا منها فلا نطمئن فيها آخر الدهر؟ وهذا دليل على أن علياً علم أنه لم يوص ولا عهد إلى أحد^{٣٣٨}.

وقد سبق أن تعرضنا إلى تفاصيل الحديث الذي سماه ابن عباس بالرزية. وابن خلدون طوى كشحاً عن تسمية الحديث بما يشير إلى ملابساته وخطورته معناه.

وكان ابن خلدون هو أدرى من ابن عباس بالمغزى من حديث الدواة. لذا استسهل وهون لما استفظعه ابن عباس، ولم يتعرض أيضاً لقول الرسول (ص) وكيف رد على عمر، وكيف أن الرسول (ص) غضب لذلك وطلب منهم الخروج، والحال كان يجسّد قرينة على امتناع عمر عن الاستجابة لطلب الرسول (ص) وليس قرينة على أنه لم يدل على الوصية لعدم وقوعه، فعدم وقوع الوصية يوم الخميس هو قرينة على حقيقة الاغتصاب، لا على عدم الوصية، وقد سبق أن حللنا المسألة.

^{٣٣٨} مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤)

وبعدها لم يجد ابن خلدون في نفسه حرجاً مما أقدم عليه من اتهام لشخص الإمام علي (ع) في أنه امتنع عن الاستجابة للعباس حرصاً على طلب الخلافة وهو أمر يكفي رده بما سبق أن ذكرناه، ولا أدل على ذلك من موقف الإمام علي (ع) فلو كان الأمر كذلك، إذن لما جرى له من صراع مع الخلفاء ولما حارب من أجل استرداد ما رآه حقاً مغتصباً.

وهذا لعمري، هو عين التحريف، وقلب الحقائق على خيالهما. يزيد ابن خلدون كلامه، بهذه العبارة التي تلخص نظريته المتداعية حول الإمامة:

” وشبهة الإمامية في ذلك إنما في كون الإمامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك، وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق. ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة، ولكن يستخلف فيها كما استخلف أبو بكر في الصلاة، ولكن يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة ”^{٣٢٩}. ولعل الشبهة التي دفعت ابن خلدون إلى جمع ما شذ من أخبار في تصويب تيار الغلبة هو اعتبار الإمامة أمراً ثانوياً متروكاً للمصلحة وتحمية الغلبة، وهي الشبهة أيضاً التي أكبت ابن خلدون على وجده ليلعق طرق التدليس والتلبيس على صحون التصويب والأقىسة الرديئة!

لقد قاس الإمامة على الصلاة، واعتبر الأولى أقل شأنها من الثانية، متناسياً أن لا قيمة للصلوة إذا لم تكن على أساس من الولاية، مما يقيم صرح كل العبادات، وأي دين بقي لهم عندما زحزحوا الولاية الشرعية عن أهلها. واعتبر عدم شهرة الوصية مقابل شهرة الصلاة، كدليل على عدم وقوع الأولى، وشبهته في ذلك واضحة، ذلك أن الشهرة لا تجبر الضعيف، ورب حديث تواتر نقله على أسن الغوغاء وهو في أصله من مرفوعات الوضاعين، ورب حديث صحيح صريح، استضعفته يد السلطان، فصار في دهاليز الأحاداد، وهبنا قبلنا طريقة برهانه، فإن أحاديث الوصية كما ذكرنا هي مما اشتهر وتواتر، وإن

^{٣٢٩} مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤)

حديث الصلاة رغم إنه لا يفيد في هذا المقام هو مما شذ وضعف فأي شهرة
باتت لحديث الصلاة، وبأي الحديث أنتم مؤمنون!

ويشط النصب بابن خلدون فيقرر:

”ويدل ذلك أيضا على أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم“^{٣٣٠}.

ويقول:

”فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي (ص) غير مهمة، فلم يعهد فيها. ثم
تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشئ“^{٣٣١}.

أي إن الإمامة لم تكن ذات أهمية إلا مع تدهور الوازع الديني وذهاب
الوصي وغياب المعجزة، وحلول العصبية محل ذلك، وهذا لعمري تناقض كبير،
فها هو يعتبر أن الإمامة لم تكن تقوم على العصبية، ويعرف في ما سبق من
كلام بما جرى من جدال داخل السقيفة على أساس أن الفريقين كانوا يجادلان
بالاتساب إلى العشيرة، كانتساب أبي بكر لقريش ورد عمر على الأنصار بنفس المنطق.
وليتني عرفت أي طريق يسلك ابن خلدون لأقتفي آثاره، ومن أي معين
يعرف تبريره لكي أضبط قصده، إذ كيف تكون الإمامة غير مهمة في تلك
الفترة، وهي مما أشار أشد الخلافات بعد رسول الله (ص) وفيها يقول
الشهرستاني: ”أذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على
الإمامية في كل زمان“^{٣٣٢}.

ولو لم تكن مهمة لما قاتل عليها الصحابة وجادلوا فيها بعضهم بعضا، إن
ابن خلدون لم يكن - حقيقة - يفهم شيئا غير منطق الغلبة والقوة، فأصبح
الشرع عنده لا يدرك إلا من هذه الزاوية البشعة.

وهكذا يتوضّح لك - عزيزي القارئ - أن ابن خلدون لم يكن محققا ولا
موضوعيا فيما ذهب إليه في هذا الأمر. لقد رقع غير ما مرة حتى اتسعت الرقعة على

^{٣٣٠} مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤)

^{٣٣١} مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤)

^{٣٣٢} الملل والنحل : ٦.

رافقها، وزيف الأحداث بنوع من السخف يشير على القرف والغثيان.

وإنما فعل ذلك إذ فعله إلا دفاعا عن مذهبة، لا دفاعا عن الحقيقة المقدسة،

وهو الذي قال بعد سلسلة من التحريرات، "فلا يقنع عندي ريب في عدالة

أحد منهم، ولا قدر في شيء من ذلك، فهم من علمت، وأقوالهم وأفعالهم إنما

هي عن المستندات، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة، إلا قولًا للمعتزلة

فيمن قاتل عليا لم يلتفت إليه أحد من أهل الحق ولا عرج عليه".^{٣٣٣}

فالحق عنده هو ما استقر عليه مذهبة، وأهل الحق هم من انتسب لفريقه،

أهل الحق على أساس ادعائه هم وحدهم أهل السنة، وهذا بهتان عظيم.

وقد كان كلامنا عن ابن خلدون، لأنه من أشهر المؤرخين الذين حاولوا أن

يفلسفوا الإمامية عند أهل السنة، وحاولوا تأسيسها نظريا، انطلاقا من مجريات

واقع الخلافة وواقع تداعيتها بكثير في التحرير والتزوير.

كان ابن خلدون بلا شك، أشبه بميكافيلي في موقفه من الأمير.

^{٣٣٣} تاريخ ابن خلدون ص ٢٢٦ ج ١.

الباب الثالث

عقريات في الميزان

أوهام... مقدسة

لا أقصد من خلال هذا المبحث، النيل من أصحاب القداسة، حبا في التجربة على المقدس، ونزوعا إلى الثورة على الأوضاع، ورغبة في التغيير الفوضوي للمفاهيم والقناعات، إنها نتيجة موضوعية لنظر دقيق في التاريخ، بنوع من الاستقلال ونحو من التجرد.. وغاية نبيلة من وراء ذلك، وهو إنفاذ العقول من تقديس البطل الوهمي، وعبادية، وهؤلاء العباءة الذين نتوخى دراسة أخبارهم، ليسوا وهميين في أشخاصهم، فأبوبكر الذي هو من تيم والذي مات من أثر السم، وعمر بن عدي، الذي قتل في المسجد، وعثمان من بنى أمية المقتول يوم الدار، ليسوا وهميين من ناحية تشخيصية، فكل ذلك واقعي و حقيقي، إنما الأشخاص الوهميين عندنا، هو عندما تسود النظرة الأسطورية لهؤلاء الأشخاص، وتعاظم صورتهم بشكل تكثر فيه المبالغة، عظمة تفوق أحيانا، عظمة الأنبياء والمرسلين.

ولمن رام ذلك عذرها فقد حاولوا ذلك حتى يرمموا ما فسد، ويضمدوا جرح التاريخ ويلموا شعثه، ولكن ما لنا وتلك الأعذار، نحن طلاب حقيقة ولسنا طلاب تبرير.

وهكذا استنجد ربى على من غلط في حقنا، وأساء الظن في قصدنا، ورمى الحقيقة من وراء ظهره، ألا يكون علينا إن شاء الله شديدا.

وما دام أن بحثنا يصب في قالب الخلافة والتحريف، ارتأينا اختيار نموذج لتلك

الكتابات التي تمت فيها المبالغة الزائدة في تصوير الخلفاء، بناء على معطيات مهزوزة، فوجدنا كتابات العقاد نموذجاً لذلك، فهي تحبك أرقى العبارات الأدبية حول تلك الشخصيات، روينت استجابة لتلك الأعذار التي ذكرناها.

العقبريّة

أتسأل أحياناً عمن هو العقري؟ أهو العقاد - نفسه - عندما جعل من الأسطورة، حقيقة. بأدبه الرافي وشاعريته المرهفة. أم أشخاصه الذين تعرض لهم وسماهم عباقرة.

وليعذرني الأديب العربي القدير. على هذه الجرأة التي لا تحجب مقدرة الرجل وعظمة إبداعه. ولقد كان أجاد رحمة الله وصف علي (ع) في عقريته، والحسين (ع) في أبي الشهداء والزهراء في فاطمة والفاتميون. ولمن أوتي ملكة التميز وذائق القراءة الحرة. يمكن أن يكتشف مدى مغalaة العقاد في الشيختين، وكأن العياء بدا يصيب أدبينا في نهاية المطاف.

وليعذرني الأديب العربي الذي قدرنا عظمة إبداعه، واغترفنا من معين أدبه، أن لا يؤاخذنا ونحن ننسف الأسس التي أقام عليها مبني عقريته، وصروح أبطاله، فرحمه الله عليه لم يكن يعلم أن التصوير الفني الزائد لمثل هؤلاء الأشخاص قد يتحول إلى دين. فلنوضح هذه المرة، بالأدب في سبيل إعلاء رأية التحقيق فإن ثمرة ذلك أعمّ نفعاً وذات إيجابية على أمتنا.

فما هي العقريّة... ومن هو العقري؟

العقبريّة مفهوم معقد. لأنّه ينطبق على أشخاص معقدين. ليس معنى ذلك على نحو ما تعارف عليه أطباء النفس الإنسانية. وإنما العقدة هنا منظور إليها من

ناحية تظاهر معاني العبرية واشتباك دلالاتها.

العبري هو ذلك الذي شحد ملكاته كلها بموهبة خارقة، وجعلها بحيث تكون حالة من حالاته الدائمة، وحالة من حالاته الشمولية، فهو عبري، لأنه دائم السمو والإبداع والخلق، وأنه شامل في كل هذا، فهو سامي بكل ما تعني الكلمة سمو، في الروح والعقل والبدن، وبهذا الاعتبار كان عدد العاشرة معدودا على الأصابع، ونادرًا كندرة الكبريت الأحمر!.

والعبري أيضا ينظر إليها في محياطها الجغرافي وبيئتها الاجتماعية، وتطورها التاريخي فهي لها ما يميزها عن العبرية في بلاد الإغريق، أو في بلاد فارس، ذلك أن أجواء الصحراء العربية وما يميز ساكنتها من خشونة في الطياع، وانقسام في الاجتماع، وتنقل عبر الكثبان الرملية البعيدة والمرهقة بخيامها المتتصبة وإبلها المتسمية وأشعارها وأرجازها. ليست هي إغريقيا أو أثينا أور قورينا. بتماثيلها ومسارحها وحكمها. وينقلنا إلى تلك المفارقة ما جرى بين الطبيب اليوناني والإمام علي (ع).

فهذا الطبيب اليوناني، بالإضافة إلى شركه وجهله المسبق بحقائق هذه الشخصيات، لم يكن مستهزئا ولا حاقدا، إنه عالم من علماء الطب الحكمي. جاء متسبعا بنظرة الأغارقة للجمال كما تمثله ايقوناتهم وكما برع في نحوتهم. الساق العاصرة الممتلئة، والانسجام العضلي الدقيق كما تبدهه أنامل النحاة في بلاد الإغريق، وكان ذلك الطبيب يرى أن ما ينقص عظمة الإمام علي (ع) هو هذه الساق الدقيقة النحيلة وعدم الانسجام بين بطنه وساقه، كانت هذه النظرة تختلف عن نظرة عبري آخر، ابن الجزيرة العربية، متسبعا بقيم سماوية تبعث في سمو الروح وقوه الباطن وجمال الخلق الاجتماعي، وتتجدد بدليلا عن حسن المراسم والسمات ومضة النور التي تخرج الذات من ظلمتها وتكسبها جمالا أخذا، يخاطب النظر والروح معا، إنها مفارقة، تجعل من معاني العبرية أمرا معقدا للغاية، والعقد وهو يأخذ على نفسه العمل على إبراز جانب العبرية من الخلفاء، كان بلا شك يحاول استغلال جمال التصوير الأدبي لشخصيات وهمية

^{٣٤} الاحتجاج / الطبرسي (ص ٣٥).

لا تنطق على واقعها التاريخي وكأنه أمام أسطورة من أساطير اليونان، يحاول إعادة رسم صورتها الأدبية، فجعل من أبي بكر وعثمان عباقرة لا تدركهم الألباب ولا تحيط بهم العقول، ودأب مؤرخون وأدباء مشغوفون بالتصوير الفني للشخصية التاريخية، أن يجعلوا لهذه الجماعة مميزات وخصائص ترقى بهم إلى مصاف أولي الشأن ممن ينذر لهم نظير من بين جحافل العامة.

وكان العقاد في عقرياته ممن سافر بعيداً في حبك تلك الصور، ومنمن أتقن بفعل نبوغه وثقافته النوعية رسم صورة فنية وضبط مفاتيح لشخصياته. ومما لا شك فيه أن القارئ يمكنه الخروج بمجموعة أوصاف ومميزات تكرست في مؤلفات العقاد حول الشيختين وعثمان، وسوف نبينها في المخطط التالي:

أبو بكر:

صدقه (الصديق) - التقوى والورع - التفقة في الدين والعلم الغزير.

عمر:

التمسك الشديد بأحكام الدين.

العدل. شجاعته في دحر الباطل.

عثمان:

سخاءه وعطاه - تقواه وزهده - حياءه المتميز.

هذه باختصار مميزات عقريات العقاد. وهي مما كرسته المدرسة الأموية في سبيل تكثيف مميزاتهم لحجب قيمة الإمام علي (ع) وأهل البيت (ع) ولا شك، ونحن نعالج موضوعنا، إن مميزات عباقرة العقاد، تتجاوز في سموها وعظمتها تلك المميزات التي اعترفوا بها للرسول الأعظم (ص).

وسوف يكون منهجنا في كسر هذه الأصنام الوهمية، هو التركيز على الأساس الذي انبت عليه عقرياتهم المohoمة، لإعادتهم إلى أشكالهم الحقيقة.

فالقصد عندنا هو إحقاق وتطهير التاريخ من تزوير المؤرخين ومبالغة

الأدباء، والله مالك أمره.

الذاكرة.. أساس الشخصية!

تكمن عدالة الإسلام في رفع التكليف عما يتعلق بالذاكرة، إذا صمم المسلم على تجاوزها في حالة مخالفتها لصرح الأحكام الشرعية، وذلك مرجعه إلى واقعية التقدير الذي يكتنف الإسلام للإنسان، فهو ينظر إليه مجرداً من ماضيه الشركي مثلاً، وفي كلامنا عن الخلفاء نضطر إلى استحضار بعض من تاریخهم ليس من أجل تحميلهم إياه ومحاکمتهم من خلال ذاکرتهم الجاهلية. إنما لسببين ضروريین:

أولاً: من أجل معرفة مدى عزوفهم عنها، إذ أن الحفاظ على بعض من تلك القيم الجاهلية يجعل من الحق التعرض لهم والحكم عليهم من خلال ماضيهم، لأنه - إذ ذاك - يشكل رافداً حقيقياً لسلوكهم.

ثانياً: لأنهما كان الأمر، فإن التاريخ ضروري لضبط معايير الشخصية وإحراز العلم بمفاراتها الحقيقة ولأنه إذا لم يخل من تلوث، فإنه يتحول إلى راقد لا شعوري لسلوك الإنسان.

ولنبدأ قبل كل شئ بقضية أساسية، لها علاقة مهمة بالتوازن الشخصي وهي قضية الخمر في الجاهلية، فكما سبق أن أكدنا، فإن الخمر لم تكن من عادة سادة العرب، كشأن بنى هاشم مثلاً، بقدر ما هي عادة لأذل أحياءها.

ولنر كيف أن الخمر تمكنت من الشيختين. وكيف أنهم أبوا الانتهاء عنها حتى

أصبحت حرمتها واضحة للجميع. بل كما سنرى إنها ظلت متمكنة من بعضهم إلى آخر أيامه. كل ذلك لزعزع الأساس الذي قامت عليه عبقريةهم. أساس الورع وما يترب عليه من قيم وسجايا.

لقد ثبت أن أبا بكر كان مدمنا على الخمر والقمار في أيام الجاهلية، وهذا يخالف ادعاء بعض المؤرخين، من أنه كان سيدا وقورا في قومه قبل الإسلام، ومن أنه كان متورعا عن كثير من الصفات والأخلاق الجاهلية.

وهناك أحاديث كثيرة ثبت ذلك وعلى رأسها حديث أبي القموص الذي أخرجه الطبرى في تفسيره عن أبي بشار، قال: عن أبي بشار عن عبد الوهاب عن عوف عن أبي القموص زيد بن علي قال: ^{٣٣٥} أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْخَمْرِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَأَوْلَى مَا أَنْزَلَ قَالَ اللَّهُ يَسْأَلُنَّكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ^{﴿يَسْأَلُنَّكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾} قال: فشربها من المسلمين من شاء الله منهم على ذلك حتى شرب رجالا فدخلوا في الصلاة فجعلوا يهجران كلاما لا يدرى عوف ما هو أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا: ^{﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾}، فشربها منهم وجعلوا يتقوتها عند الصلاة حتى شربها فيما زعم أبو القموص إن رجالا ينوح على قتلى بدر:

وهل لك بعد رهط من سلام؟	تحيى بالسلامة أم عمرو
رأيت الموت نقب عن هشام	ذرنيني اصطبخ بكراب فإني
بألف من رجال أو سوام	وود بنو المغيرة لو فدوه
من الشيزى يكلل بالسنام	كأني بالطوى بدر
من الفتىان والحلل الكرام	كأني بالطوى طوي بدر

قال، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فجاء فرعا يجر رداءه من الفزع حتى انتهى إليه لما عاينه الرجل فرفع رسول الله (ص) شيئا كان بيده ليضربه قال: أَعُوذ بالله من غضب الله ورسوله والله لا أطعمها أبدا فأنزل الله تحريرها.

في هذه الرواية، كلام عن رجل مجهول، شرب الخمر فراح يرثي قتلى بدر من الكفار والمشركين.

وفي إخفاء اسم هذا الرجل تكمن دلالة كبيرة، هي أن ثمة محاولات عدّة لإخفاء فضائح الشيدين والكثير ممن حسبوهم من الصحابة، وتدل قرينة الحال على أن أبي بكر هو ذلك الرجل المجهول، على طريقة الطبرى الذى أخفى أكثر من مرة أسماء هم على غرار حديث الدار. وسوف نعرض بعض من تلك الروايات التي ذكر اسمه فيها ليكون حكمنا على علم ويقين.

لقد جاء في رواية البزار عن أنس بن مالك قال: كنت ساقى القوم تينا وزبىبا خلطناهما جمیعا و كان في القوم رجل يقال له: أبو بكر فلما شرب قال: وهل لك بعد قومك من سلام؟
أحبي أم بكر بالسلام
يحدثنا الرسول بأن سحتا^{٣٣٦} وكيف حياة أصل أو هشام
وهذا خلاف لما ادعاه البعض، من أنه حرم الخمر على نفسه في الجاهلية والإسلام.

لقد أردت من هذا كله، إيجاد مفتاح لفهم حقيقة شخصية أبي بكر قبل الولوج في زعزعة الصورة الأسطورية التي أهدتها إياه أقلام المحرفين. ذلك لما يمثله الادمان على الخمر في النقوس. فلقد كانت هذه من أقبح سلوكيات البشر على مر السنين وأخسها، وقد ذم الخمر حتى في أساطير الأولين، وكانت تمثل رمزا للانحطاط والخسنة والمهانة.

ثم ماذا عن تلك الأسس التي أقام صرحاها المؤرخون والأدباء في حق أبي بكر وعلى رأسهم صاحب عقريبة الصديق؟.
كان أهم مفتاح من مفاتيح العقريبة البكرية، هو الصدق.. ومن ذلك سماها العقاد - عقريبة الصديق - فلنلق نظرة سريعة عن واقع هذا المفتاح للوقوف على مصاديقه.

الصدق والصديق.. أية علاقة
في بداية كلامنا نطرح اعتقادنا حول تعسف هذه الأوصاف.. فاسم الصديق

^{٣٣٦} مجمع الروايد: ٥١

لم يتحول إلى كنية لأبي بكر إلا في العهود المتأخرة والاسم الذي كثر تداوله في زمن الرسول (ص) هو "أبو بكر" وابن أبي قحافة، ولم تكن تلك سوى من إبداع البكرية وأنصار مدرسة الرأي، لكي يجعلوها شعاراً معززاً للخلافة المعتضبة. وقد جعلوا صفتة تلك كنা�ية عن إسلامه المبكر وتصديقه للرسول (ص) وللعلقل أن يتأمل في ثانياً هذه الحركة الت Tessive، فليس أبو بكر هو أول وآخر من آمن وصدق بالرسول (ص) فكثير من أصحابه آمنوا به وصدقوا به وبعضهم سبقه بالصدق والإيمان.

والإمام علي (ع) كان - على صغر سنـه - أول من أعلن إسلامه بعد بعثة الرسول (ص) وهو أول من صدقه.. وهو المدعـو صديقاً، وقد ادعـها لنفسـه وأنكرـها على غيرـه.

وكانـه بذلك يروم فـضح سيـاسـة خـلقـ الشـعـارـاتـ وإـطـلاقـهاـ بلاـ مـبرـراتـ. يقولـ: "أـنـاـ الصـدـيقـ الـأـكـبـرـ، لاـ يـقـولـهاـ بـعـدـيـ إـلاـ كـاذـبـ آـمـنـتـ قـبـلـ أـنـ يـؤـمـنـ".

الناسـ سـبـعـ سـنـينـ ^{٣٣٧}.

ومن صدقـهـ، رأـيـناـ كـيـفـ نـازـعـ أـهـلـ الـبـيـتـ (عـ)ـ بـحـدـيـثـ مـزـعـومـ فـيـ شـأنـ إـرـثـهــ.ـ وـمـنـعـهـمـ حـتـاـ لـهـمـ مـنـ اللهـ بـهـ عـلـيـهـمـ.ـ وـسـوـفـ أـعـطـيـكـمـ هـنـاـ بـعـضـاـ مـنـ الـقـرـائـنــ.ـ الـتـيـ لـتـجـعـلـ لـشـعـارـ الصـدـقـ مـصـدـاقـيـةـ فـيـ سـلـوكـ وـمـوـاـقـفـ الـخـلـيـفـةــ.

١ - الصدق في المواطن

إن أولى التعـارـيفـ التـيـ جـعـلـتـ لـلـصـدـقـ فـيـ الـإـسـلـامـ،ـ هـوـ الصـدـقـ فـيـ الـمـوـاـنـعـ وـعـدـ الـفـرـارـ عـنـ الـزـحـفـ،ـ وـهـوـ مـاـ رـأـيـناـ عـنـ الـخـلـفـاءـ الـثـلـاثـةـ عـنـدـمـاـ فـرـواـ يـوـمـ أحـدـ،ـ وـخـذـلـواـ إـلـاسـلـامـ،ـ وـتـرـكـواـ الرـسـوـلـ (صـ)ـ مـنـفـرـداـ فـيـ مـوـاجـهـةـ الـمـوـقـفـ،ـ وـإـنـهـ لـعـمـريـ عـيـنـ الـخـذـلـانـ،ـ وـدـلـيـلـ عـدـمـ الصـدـقـ،ـ وـكـذـلـكـ يـوـمـ رـجـعـ فـارـاـ مـنـ خـيـرـ.ـ فـقـدـ كـانـ مـاـ الـوـاجـبـ عـلـيـ الصـدـيقـ أـنـ يـكـوـنـ مـثـلاـ بـارـعاـ فـيـ الصـدـقـ وـالـتـيـ مـنـ مـصـادـيقـهـاـ الصـدـقـ فـيـ الـمـوـاـنـعـ وـقـدـ كـانـ يـلـتـمـسـ الـرـاحـةـ فـيـ الـعـرـيـشـ،ـ مـتـرـسـاـ

^{٣٣٧} خـصـائـصـ الـإـمـامـ النـسـائـيـ (٢٩ـ).

بالرسول (ص)، ويتركه وحيدا في الميدان وينجو بالجلد عند استفحال الخطب.

ولا داعي لكي أقارن بين موقفه وموقف الإمام علي (ع) في هذا المجال لأن ذلك مما سارت به الركبان وتغنت به الشعرا.

ولو كان الإسلام متوقعا على شجاعة الصديق إذن لما بقيت له باقية وهو ما يضرب عرض الحائط بقولتهم، إن رسول الله (ص) قال: "لولا أبو بكر الصديق لذهب الإسلام" كما في "نور الأ بصار" للشنجي.

٢ - الشك في أمر الرسول (ص)

الإيمان بالرسول (ص) هو الاعتقاد بمرسوليته، والانقياد لأوامره على أساس إنها أحكام تكليفية.. والتصديق هو الاستجابة لأمر الرسول (ص) وعدم التردد في قبول قوله وعندنا في السيرة ما يدمي القلوب، ويقصم الظهور وهو ما يعرف بحادثة ذي الثديّة، فقد جاء عن أنس بن مالك قال: كان في عهد رسول الله (ص) رجل يعجبنا تعبده واجتهاده وقد ذكرنا ذلك لرسول الله (ص) باسمه فلم يعرفه فوصفناه بصفته فلم يعرفه فيما نحن نذكره إذ طلع الرجل قلنا هذا قال: إنكم لتخبروني عن رجل إن في وجهه لسفة من الشيطان فأقبل حتى وقفت عليهم ولم يسلم فقال له رسول الله (ص) أنسدك الله هل قلت حين وقفت على المجلس: ما في القوم أحد أفضل مني أو خير مني؟ قال: اللهم نعم، ثم دخل يصلي فقال رسول الله: من يقتل الرجل؟ فقال أبو بكر أنا، فدخل عليه فوجده يصلي فقال: سبحان الله أقتل رجلا يصلي، وقد نهى رسول الله عن قتل المصلين، فخرج، فقال رسول الله (ص) ما فعلت؟ قال: كرهت أن أقتله وهو يصلي وأنت قد نهيت عن قتل المصلين، قال: من يقتل الرجل؟ (حتى قال) لو قتل ما اختلف من أمتى رجلان كان أولهم وآخرهم ^{٣٣٨}.

فهل بعد هذا يصح أن يشتهر الخليفة الأول بالصدق وينفرد به، وهو لم يصدق رسول الله (ص) في شأن رجل صار فيما بعد رأس الفتنة يوم النهروان كما جاء في صحيح مسلم وغيره.

^{٣٣٨} تاريخ بن كثير - ٧ ص ٢٩٧ / الإصابة ١: ٤٩٤

التصوی والورع

يظهر من خلال كلام المؤرخين وأهل السير المحرفة، أن أبا بكر كان أتقى صحابة الرسول (ص) وأورعهم. وأعبدهم الله وأخشاهم له، وبالغوا في ذلك أيمًا مبالغة واحتلقو من الروايات المتداعية والأسانيد، ما يقطع أوصال المؤاذن.

وطبيعي، أن أهم صفة للورع والتصوی هي تقدیس ما قدسه الله، وتحریم ما حرمه والاحتیاط الكبير وكثرة التهجد والعبادة.

فأما من جهة العبادة، فإن أبا بكر لم يرد عنه أنه كان آية في ذلك.

وعندما راح عمر بن الخطاب لیسأل عن سلوك أبي بكر في بيته، إمعاناً منه في التأسي برفيقه الذي أتحفه بأعلى منصب، ليسوس فيه الناس بدرته.

فقالت له إحدى بناته: "ما رأينا له كثیر صلاة بالليل ولا قيام" ^{٣٣٩}.

ولهذا حاولوا أن يجدوا له بديلاً عن القيام والصلوة، وهو ما ذهب إليه الترمذی الحکیم في نوادر الأصول عن بكر بن عبد الله المزنی، أنه قال: لم يفضل أبو بكر (رض) الناس بکثرة صوم ولا صلاة إنما فضلهم بشئ كان في قلبه.

وإذا أردنا الإطناب في البحث عن هذا الشئ الذي يوجد في قلب أبي بكر ولم يوجد في القلوب الأخرى التي يفضلها لوجدنا ما يضحك الثکلی ذلك ما يرويه لنا المحب الطبری ^{٣٤٠} من أن عمر بن الخطاب أتى إلى زوجة أبي بكر بعد موته فسألها عن أعمال أبي بكر في بيته فقالت: إلا أنه كان في كل ليلة جمعة يتوضأ ويصلی ثم يجلس مستقبل القبلة رأسه على ركبته فإذا كان وقت السحر رفع رأسه وتنفس الصعداء فيشم في البيت رواح كبد مشوی فبكى عمر وقال: أتى لابن الخطاب بکبد مشوی.

وفي رواية العبیدی المالکی (السالفة الذکر) إنه بعد أن يقيم على تلك الحالة يرفع رأسه إلى السماء ويتنفس الصعداء ويقول: أخ فيطلع الدخان من فيه فيبکي عمر ويقول:

^{٣٣٩} عمدة التحقيق للعبیدی المالکی.

^{٣٤٠} الرياض النضرة ص ١٣٣.

كل شئ يقدر عليه عمر إلا الدخان.

فذلك باختصار هو الشئ الذي انفرد به أبو بكر عن غيره، هو سر ذلك الكبد المشوي والدخان الذي أعجز عمر بن الخطاب، وللعلق أن يتأمل. حتى يتبيّن لنا ما إذا كان الورع والتقوى شيء في أبي بكر، لنقف على حقيقة استخلاصها فقهاء الأمة وأجمعوا على قاعدتها، وهي قضية الاحتياط في الدماء والفروج، وبقدر ما يقل الاحتياط في هاتين المسألتين، فإن ذلك مؤشرا على تدني الوازع الديني وقلة التقوى والورع، وحسبنا من ابن أبي قحافة ما فعله بالفجاءة، حيث حرقه بعد أن جمعت يدها إلى قفاه وألقى في النار مقوطا. في حين يرفض على عمر تقديم خالد للمحاكمة الشرعية لقتله مالك بن نويرة والزنا بزوجته كما هو مشهور في كتب التاريخ الكبرى.

التفقه في الدين

ذكروا في شأن أبي بكر أقوالا للرسول (ص) ولغيره تدل على علمه الغزير وإمامه بالأحكام ومن ذلك قول صاحب الصواعق المحرقة: "إن أبا بكر من أكابر المجتهدين بل هو أعلم الصحابة على الإطلاق" ^{٣٤١}.

ولا داعي للرد على هذا الكلام الذي لا يجد مصداقته في سيرة أبي بكر إذ كيف يهضم ذلك مع أن أبا بكر اشتهر عنه جهله في أبسط أمور الشريعة والمتابع لسيرة الصحابة يدرك أن إطلاق هذا الحكم ليس إلا مجازفة عمياً ولا حاجة لمقارنته بعلي (ع) في هذا المقام، ولكن يجوز القول، أين كان أمثال ابن عباس وابن مسعود وأمثالهم.

ولكي ندرك فقر هذا الادعاء، يكفيانا أن نستعرض بعض الأمثلة والنماذج من علم أبي بكر، ونترك للقارئ حرية إصدار الحكم عليها: سئل أبو بكر عن الكلالة؟ فقال: إنني سأقول فيها برأيي فإن يك صوابا فمن الله وأن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، أراه ما خلا الولد

^{٣٤١} الصواعق المحرقة ص ١٩.

والوالد، فلا استخلف عمر قال: إني لاستحيي الله أن أرد شيئاً قاله أبو بكر ^{٣٤٢}.

والمقصود هنا من الكلالة، ما جاء في قوله تعالى:

﴿ يستفونك قل الله يفتיקم في الكلالة إن أمرؤ هلك ليس له ولد وله ﴾

أخت فلها نصف ما ترك ^{٣٤٣}.

عن قبيصة بن ذؤيب قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق، تسأله عن ميراثها فقال لها أبو بكر: ما لك في كتاب الله شيء، وما علمت لك في سنة رسول الله (ص) شيئاً فارجعي حتى أسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة، حضرت رسول الله (ص) أعطاها السادس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة الأنباري فقال مثل ما قال المغيرة فأنفذه لها أبو بكر ^{٣٤٤}.

عن صفية بنت أبي عبيد: "إن رجلاً سرق على عهد أبي بكر، مقطوعة يده ورجله، فأراد أبو بكر أن يقطع رجله ويدع يده يستطيع بها ويتطهر بها، وينتفع بها، فقال عمر: لا والذي نفسي بيده لقطعن يده الأخرى فأمر به أبو بكر ^{٣٤٥}.

أتا أبو بكر جدتان أم الأم وأم الأب فأعطى الميراث أم الأم دون أم الأب، فقال له عبد الرحمن بن سهيل أخوبني حارثة: يا خليفة رسول الله! لقد أعطيت التي لو أنها ماتت لم يرثها، فجعله أبو بكر بينهما - يعني السادس - ^{٣٤٦}.

هذه النماذج تظهر إلى أي مستوى بلغ الدجل بأولئك المحرفين الذين أضلوا الأمة بأشخاص وهميين لا رصيد لهم من أي ادعاء اختلقه لهم أنصارهم. وأود لو أختم كلامي عن أبي بكر، بما رواه عنه اتباعه، من أساطير تخالف منطق القرآن، وتناقض حجمه الحقيقي في واقعه.

* روى أنس بن مالك قال: "جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله! رأيت في المنام كأن النخلة التي في داري وقعت وزوجي في السفر فقال:

^{٣٤٢} الطبرى في التفسير (ج ٨ ص ٣٠). البىهقى في السنن (٢٢٣/٦)

^{٣٤٣} سورة النساء (آية ١٧٦)

^{٣٤٤} موطاً مالك: (ص ٣٣٥) و سنن أبي داود (١٧/٢) بداية المجتهد (٣٤٤/٢)

^{٣٤٥} سنن البىهقى (٢٧٣/٨ - ٢٧٤)

^{٣٤٦} الموطا (ص ٣٣٥) و بداية المجتهد (٣٤٤/٢)

يجب عليك الصبر فلن تجتمع به أبدا، فخرجت المرأة باكية فرأى أبا بكر فأخبرته بمنامها ولم تذكر له قول النبي (ص) فقال: اذهب إلى تجتمعين به في هذه الليلة. فدخلت إلى منزلها وهي متفركة في قول النبي (ص) .

وقول أبي بكر، فلما كان الليل وإذا بزوجها قد أتى فذهبت إلى النبي (ص) وأخبرته بزوجها، فنظر إليها طويلا فجاءه جبريل وقال: يا محمد: الذي قلته هو الحق، ولكن لما قال الصديق إنك تجتمعين به في هذه الليلة استحينا الله منه أن يجري على لسانه الكذب، لأنه صديق فأحياء كرامته له .^{٣٤٧}

ليس الغلو فيما ذكر من أن الله استحينا من أبي بكر، وكأن الحياة - أعود بالله - من شأنه تعالى.. علا عن ذلك علوا كبيرا. وإنما يكمن ذلك في نزعة خفية تجعل الأفضلية لأبي بكر على رسول الله (ص)، فأبو بكر له شخصية أقوى من النبي (ص) مما جعله تعالى، يستحيي من أبي بكر ولا يستحيي من النبي (ص). ويفضل تعزيز موقف أبي بكر ولا يبالي بالنبي (ص) وكأن أبي بكر أصدق من رسول الله (ص) وفي ذلك غلو لمن ألقى السمع وهو بصير.

- ذكر النسفي إن رجلا مات بالمدينة فأراد النبي (ص) أن يصلى عليه فنزل جبريل وقال:

يا محمد لا تصل على، فامتنع فجاء أبو بكر فقال: يا نبي الله صل عليه فما علمت منه إلا خيرا، فنزل جبريل وقال: يا محمد صل عليه، فإن شهادة أبي بكر مقدمة على شهادتي .^{٣٤٨}

ولا يلاحظ القارئ من هذا الحديث سوى أسلوبا آخر أكثر تعفنا من الأول، إذ أن جبرائيل وهو الذي وكله الله لتبلغ رسالات السماء، كيف أنه يأتي بما يخالف المضمون به، فيكون أقرب شهادة من جبرائيل، فأي عبث هذا وأي مروق!. أخرج ابن عساكر في تاريخه قال: روى أن أبي بكر لما حضرته الوفاة قال لمن حضره: إذا أنا مت وفرغتم من جهازي فاحملوني حتى تقفوا بباب البيت الذي فيه

^{٣٤٧} نزهة المجالس ٢ ص ١٨٤

^{٣٤٨} نزهة المجالس ٢ ص ١٨٤

قبر النبي (ص) فقفوا بالباب وقولا: السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن. فإن أذن لكم بأن فتح الباب وكان الباب مغلقا بقفل فادخلوني وادفنوني، وإن لم يفتح الباب فاخرجوني إلى القبر وادفنوني به، فلما وقفوا على الباب وقالوا ما ذكر سقط القفل وانفتح الباب وإذا بهاتف يهتف من القبر: ادخلوا الحبيب إلى الحبيب فإن الحبيب إلى الحبيب مشتاق ^{٣٤٩}.

باختصار: لم تكن هذه المغالاة سوى محاولة لإعادة صياغة أبي بكر بشكل يبرر من خلاله ما قام به بعد رسول الله (ص) من سطوة على الإمامة وعبث بالشريعة.

فكيف يكون حبيبا للنبي (ص) من أغضب واغتصب مال فاطمة بضياعه التي قال عنها: يغضبني ما أغضبها، إن هذه المفارقات لم تكن سوى من اختراع المؤرخ المأجور، وأنصار الخلافة المغتصبة.

^{٣٤٩} الرازى في التفسير ٥ ص ٣٧٨ / نزهة المجالس ٢ ص ١٩٨

ال الخليفة الثاني: عمر بن خطاب

كثيرة هي الصفات الخشنة التي تأثر بها قطاع كبير من أبناء الإسلام من شخصية عمر بن الخطاب حتى وإن كانت تخالف سماحة الإسلام وإنسانية الرسول (ص) ذلك بأن هذا القطاع الكبير من أبناء الإسلام، يعتقد أن شخصية عمر بن الخطاب، هي الأنموذج الأمثل للإسلام.

ومن الجدير أن نذكر أسباب ذلك فكتب العامة جعلت من هذا الأخير أسطورة الإسلام الخالدة، وجعلت منه بحث يترسخ في ذهن المسلمين وبحيث تشكل سيرته وجدانهم الديني وذلك هو أكبر جريمة تاريخية ارتكبت في حق الإسلام والمسلمين.

ولنعد إلى سؤالنا، هل عمر بن الخطاب كان يستحق كل ذلك التمجيل والزائد، وتلك الصورة الأسطورية الرهيبة لشخصه؟.

لنبداً من حيث بدأنا عند الحديث عن صاحبه، عن إحدى أهم الهويات التي برع فيها عمر بن الخطاب، وهي هواية السكر، والإدمان على الخمرة والنبيذ، وقد سبق أن ذكرنا قوله لابن خلدون في شأن من كان يتعاطاها من العرب، كما أنه معلوم لدى جميع المفسرين، أن عمر بن الخطاب كان آخر من ارتدع عنها قائلاً: انتهينا، انتهينا!.

ولكن لا بد من إعادة طرح السؤال: هل انتهى عمر بن الخطاب عن شرب الخمر؟.

تواجهنا في سيرة عمر بن الخطاب محطات أساسية تبين مدى تعلق الخليفة الثاني بالخمرة، وتمسكه بها سراً وتغطية ذلك بهالة من التخريجات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وفي ظني أن كثيراً من تلك الصور من الخشونة التي أحصاها التاريخ على عمر وعلى ذرته التي لا تبقى ولا تذر، كانت في لحظات السكر. في إحدى الروايات، أراد عمر بن الخطاب أن يحلل الخمر لأهل الشام. فقد روى محمود بن لبيد الأنباري: إن عمر بن الخطاب حين قدم الشام شكاً إليه أهل الشام وباء الأرض وثقلها، وقالوا: لا يصلحنا إلا هذا الشراب فقال عمر: اشربوا هذا العسل.

قالوا: لا يصلحنا العسل: فقال رجل من أهل الأرض: هل لك أن تجعل لك من هذا الشراب شيئاً لا يسكر؟ قال: نعم، فاطبوه حتى ذهب منه الثنان وبقي الثلث فأتوا به عمر فأدخل فيه عمر إصبعه ثم رفع يده فتبعها يتمطر، فقال:

”هذا الطلاء مثل طلاء الإبل فأمرهم عمر أن يشربواه، فقال له عبادة بن الصامت:

أحللتها والله، فقال عمر: كلا والله، اللهم! إني لا أحل لهم شيئاً حرمته عليهم، ولا أحرم عليهم شيئاً أحللت لهم ^{٣٥٠}. وقد عرف عنه أنه كان يشرب النبيذ الشديد، وكان يقول: ”إنا نشرب هذا الشراب الشديد لنقطع به لحوم الإبل في بطوننا إن تؤذينا فمن رابه من شرابه ^{٣٥١} شئ فليمزجه بالماء“.

والغريب أن العامة تروي عنه، أنه لم يكن يكثراً من أكل اللحم وربما بالغت في ذلك، فجعلته لا يأكلها إلا نادراً من كثرة زهده. فكيف هو هنا يدعى أن تكريمه لخمرته حدث بداعي الخوف من أذى لحوم الإبل في بطنه. ثم تعالى لترى هل هي مسكرة خمرته أم أنها ليست كذلك. يقول الشعبي:

^{٣٥٠} الموطا (١٨٠/٣).

^{٣٥١} سنن البيهقي ٨ ص ٢٩٩.

”شرب أعرابي من أداوة عمر فأغشى فحده عمر، ثم قال: وإنما: حده للسكر لا للشراب“.^{٣٥٢}

لقد استمر عمر في شربه للخمر حتى وفاته، ورخص لأهل الشام في ذلك حتى كان من الحق أن تعتبره عائشة خمرا حراما لا مجال للتخريج فيه.

لقد حج أبو مسلم الخولاني ودخل على عائشة زوج النبي (ص) فجعلت تسأله عن الشام وعن بردتها فجعل يخبرها فقالت كيف تصبرون على بردتها؟ فقال: يا أم المؤمنين أنهم يشربون شرابا لهم يقال له: الطلاء، فقالت: صدق الله وبلغ حبيبي سمعت حبيبي رسول الله (ص) يقول:

”إن أناسا من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها“.^{٣٥٣}

فكيف بالله عليك أن يكون فاروق الأمة ممن يبعث بأحكام الله ويصعد منبر رسول الله (ص) بعد أن يكرع ما شاء له شيطانه علما أن الرسول (ص) قال: ”ما أسكر كثيره فقليله حرام“.^{٣٥٤}

ولا داعي للإطباب في ذلك إذ أن غايتها من ذلك هو إيجاد مفتاح لشخصية عمر ولعقربيته التي نسجها عنه أدباءنا ومؤرخون، وكيف لا يكون عقريبا وهو الذي رخص في شرب الخمر وجعلها دواء له يساعد له على الهضم ويسهل بطنه حين قال:

”إنى رجل معجاذ البطن أو مسعار البطن وأشرب هذا النبيذ الشديد فيسهل بطني“.^{٣٥٥}

ومن خلال هذا يمكننا القول إن ما عرف به عمر من التزام ديني قوي رفعه إلى مستوى الفاروق. لن يكون إلا حبكة مفعولة، فالالتزام الديني لا يظهر من خلال سلوكه ولا يستقيم دين مع الادمان، لأن هذا الأخير مفتاح لكل الشرور.

^{٣٥٢} العقد الفريد ٣ ص ٤٦

^{٣٥٣} الإصابة ٣ ص ٥٤٦

^{٣٥٤} الترمذى في الصحيح ص ٣٤٢ / البيهقي في السنن ٨ ص ٣٩٦

^{٣٥٥} ابن أبي شيبة، كنز العمال ٣ ص ١٠٩

ولعل ما أحدثه ذرته من أذى وشorer هو من ذلك المفتاح.

إن الالتزام الديني يعني الطاعة والامتثال، وفي سيرة عمر ما ينافق كل ذلك من الأساس.

بدأ من رفضه صلح الحديبية، والامتناع عن قتل ذي الخوصرة رغم قرار الرسول (ص) بذلك، ومروراً بامتناعه السير مع أسامة، وأشياء أخرى.

وقد جعلوا للفاروق ميزة، انفرد بها، وكانت خاصية من خاصياته، وهي العدالة.

وياليتني أفهم إلى أي درجة من الأمية التاريخية وصل الحال بالمؤرخين والأدباء حتى يجعلوها من بدبيهيات التاريخ والسيرة.

ونظراً لمنهجنا في هذا الباب نتوخى عرض نماذج من تلك المرويات التي تناقض صفة العدالة عن عمر بن الخطاب. ذلك بأن موضوع إزاحة الستار عن الوجه الحقيقي للمقدس، يعرف حساسية صعبة، لذلك سوف نتمسّك بالنص، وبالروايات التي أوردها علماء العامة في شأنه.

* سبق أن ذكرنا حادثة جلد عمر للأعرابي الذي شرب من عسه فسكن، مع أنه لم يفعل شيئاً حراماً، ولو كان عمر عادلاً كما يقولون، إذن لآقام الحد على نفسه أو ليترك الأعرابي لحال سبيله، أو لا أقل ليتأمل الموضوع قبل إصدار الأحكام.

فالأعرابي يشرب من عس عمر بن الخطاب - الخليفة - وتلك قرينة كاملة على رفع الحد عنه لأن المظنون من عس - أمير المؤمنين - ألا يكون فيه ما يسكت. فتأمل.

* مر علي بمجنونة قد زنت وهي ترجم ف قال علي لعمر: يا أمير المؤمنين! أمرت بترجم فلانة؟ قال: نعم، قال: أما تذكر قول رسول الله (ص) رفع القلم

عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتمل، وعن المجنون حتى يفيق؟ قال: نعم: فأمر بها فخلى عنها .^{٣٥٦}

* روى مالك أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: أبي عمر بن الخطاب أن يورث أحدا من الأعاجم إلا أحدا ولد في العرب .^{٣٥٧}

روى ابن الجوزي، قال: إن عمراً كان قاعداً والدرة معه والناس حوله إذ أقبل الجارود فلما دنى منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟! قال ما لي ولك لقد سمعتها. قال: وسمعتها، فمه؟ قال خشيت أن تخالط القوم ويقال، هذا أمير. فأحببت أن أطأطئ منك .^{٣٥٨}

هذا كله، إضافة إلى ما فعله بحق فاطمة الزهراء، عند همه بحرق دارها، واعتراض فدك منها، ومكان الأمثلة على خرافة العدل العمري. أما شجاعة عمر التي سمع ذويها عبر الخافقين فحدث ولا حرج فهو كرفيقه صاحب العريش لم يكن له ذكر في المعارك الإسلامية ولم يسمع له في مواقف الرجولة ركزا.

ولعل أول وآخر معركة يقودها عمر، كانت ضد يهود خير، حيث يحدثننا الخبر، بأنه رجع يجبن أصحابه ويجبنونه لفراه ولقد امتنع عمر عن السير مع جيش أسامة لأسباب عده. ومنها خوفه من الروم. وقد رجع دون أن يمثّل أمر الرسول (ص) في شأن ذي الخويصرة بعد أن أرهبه الرجل وأخافه. بالإضافة إلى فراه يوم أحد. وسكته يوم الخندق أمام دعوى مبارزة عمر بن عبد ود خوفه من الذهاب إلى القادسية.

فعمر بن الخطاب بهذا الحجم الصغير. وبتلك المحدودية. جعلوا منه أسطورة التاريخ الإسلامي وأوردوا حوله من الأخبار ما جعل من عمر صنماً خرافياً يعبد من دون الله.

^{٣٥٦} السنن الكبرى ٨ ص ٢٦٤

^{٣٥٧} الموطأ ٢ ص ١٢

^{٣٥٨} شرح النهج ٣ ص ١١٢

لقد قالوا فيه الكثير وغالوا إلى حد الشطط ومن قولهم فيه:

عن بريدة: خرج رسول الله (ص) في بعض مغازييه، فلما انصرف جاءت
جارية سوداء فقالت: يا رسول الله! إني كنت نذرت إن ردد الله صالحًا
أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال رسول الله (ص): إن كنت نذرت
فاضربني وإلا فلا، فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي
وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر فألقت الدف تحت
استها ثم قعدت عليها، فقال رسول الله: إن الشيطان ليفرق منك يا عمر!^{٣٥٩}

* ذكر الرازي في تفسيره: وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة
على الأرض وقال: اسكنها بإذن الله، فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد
ذلك.^{٣٦٠}

^{٣٥٩} أَحْمَدُ فِي الْمَسْنَدِ ٥: ٣٥٣ / قَالَ التَّرمِيُّ هَذَا حَدِيثٌ حَسْنٌ صَحِحٌ غَرِيبٌ ٢٩٤ ص ٢٩٤.

^{٣٦٠} تفسير الرازي: ص ٤٧٨.

عثمان بن عفان

عندما يكون الحديث عن عثمان والفتنة التي أحدثها بسياسته العشارية، نلمح عند المؤرخين أسلوباً يكاد يكون موحداً، في قلب الحقائق بعد ثبوتها وتضييبها بعد جلاءها، وهكذا يكون عثمان رجلاً زاهداً، وتقيناً، تصوره ريشة المؤرخ الفنان على لوحة التحرير، كصحابي جليل استشهد وهو يقرأ القرآن وفي المقابل، تكون الأمة التي قتله كلها فاسقة، وكلها مارقة، حتى لو كان كبار الصحابة شاركوا في قتله. وحتى لو أن الأمة أجمعت على انحرافه عن السنة التي ضيعها القرآن الذي أحرقه، ولم يلتزم به، بل إن أعظمهم أوردوا صوراً ومشاهداً تفصيلية عن حادثة القتل لعثمان، يظهرون فيها الطبيعة الهمجية لمقتل عثمان، وقساوة الثوار.

وليس يعنيني هنا الاكتثار من ذكر ما قيل عن عثمان، وما يمكن أن يقال في مقابل ذلك غير أنني أحب التركيز هنا على إحدى المسائل الأساسية التي تميز بها عثمان، حسب ما جاء في السيرة، فكما أنهم خلقوا أحاديث عن حياء عثمان، ليغطوا بها بذال أسلوبه مع كل من الإمام علي... وعمار.. (رض) وابن مسعود (رض) وأبي ذر الغفاري (رض).

وأبدعوا ذلك المشهد الذي رؤي فيه عثمان مستشهاداً وبين يديه كتاب الله ليغطوا على جريمه في تتبع القراء، وحرق المصاحف، وعدم تنفيذ أحكامه. فإنهم اختلقو أكذوبة السخاء الذي صدر منه إبان العهد الأول للإسلام

وعطياتها الكثيرة، ودعمه للجماعة الإسلامية، ليغطوا عبده بالأموال الإسلامية، ونهبه أموال الرعية وإقطاعها ببني جلدته.

لقد كان صادقاً من قال: إن عثمان أخذ أضاف ما أعطاه لرسول الله (ص) ذلك أن عثمان لم يكن يتورع في نهبها، وقد أصبحت تدعى في عصره بأموال الله، حتى لا يبقى للمسلمين أدنى مبرر للتدخل في ما يجري داخل العشيرة الأموية، وقد كان أبو ذر (رض) على رأس أولئك المتتدخلين والمنتقدين للسياسة المالية لعثمان وبطانته الأموية، فناله ما ناله من الأذى من قبل عثمان بن عفان.

ولنبدأ رحلتنا من "فديك" التي اغتصبها عثمان من فاطمة الزهراء (ع) وهي مما أورثه عن الرسول (ص) ويا ليته اغتصبها وأودعها بيت المال حتى يقال إنه تأسى ب أصحابه، بل أقطعها مروان، يقول ابن عبد ربه: إنه أقطع فديك مروان وهي صدقة لرسول الله (ص) وافتتح إفريقيا وأخذ خمسه فوهبه لمروان ^{٣٦١}.

فأين زهد الخليفة الثالث، وورعه ولو كان قارئاً للقرآن كما جاء في أخبار المؤرخين لكان أبدر به أن يعرف مدى بغض النبي (ص) للشجرة الملعونة في القرآن. ولم يمنعه وررمه من اغتصاب حق فاطمة (ع) بضعة الرسول (ص) وخير نساء العالمين، ليقطعها واحداً من أبناء الطلقاء بن طريد الرسول (ص) وأحد أغصان تلك الشجرة الملعونة في القرآن، ذكر الطبرى: "إنه لما وجه عثمان عبد الله بن سعد إلى إفريقيا كان الذي صالحهم عليه بطريق إفريقيا (جرجير) الذي ألف دينار وخمسين ألف دينار وعشرين ألف دينار، فبعث ملك الروم رسولاً وأمره أن يأخذ منهم ثلاثة قنطار كما أخذ منهم عبد الله بن سعد وكان الذي صالحهم عليه عبد الله بن سعد ثلاثة قنطار ذهب، فأمر بها عثمان لآل الحكم. قلت: أو لمروان؟ قال: لا أدرى" ^{٣٦٢}.

ثم يرى أنه أعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص أخا مروان، ثلاثة ^{٣٦٣} ألف درهم.

^{٣٦١} العقد الفريد ٢: ٢٦١.

^{٣٦٢} تاريخ الطبرى ٥: ٥٠.

^{٣٦٣} البلاذري ٥: ٥٢.

وعن عبد الله بن سنان قال: خرج علينا ابن مسعود ونحن في المسجد وكان على بيت مال الكوفة وفي الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال: يا أهل الكوفة! فقدت من بيت ما لكم الليلة مائة ألف لم يأتني بها كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب لي بها براءة، قال فكتب الوليد بن عقبة إلى عثمان في ذلك فتزعم عن بيت المال ^{٣٦٤}.

كما أعطى أبا سفيان بن حرب مائة ألف من بيت المال ^{٣٦٥}.

هذا جزء من ذلك السيناريو الذي اتحفت به سياسة عثمان الرعية الإسلامية ناهيك عما اختزنه قصره، وحاشيته من المترفين له من دون عشيرته. فإذا عرفت ذلك - عزيزي القارئ - فلا يأخذك العجب من قول الإمام علي (ع) بعد ذلك في عثمان: قام نافجا حضينه بين نشه ومحمله، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبطة الربيع ^{٣٦٦}.

ذلك باختصار شديد.. هو أهم مشروع قدمه عثمان لأمة، فأين الزهد، وأين الورع، وأين عشرات المحامد التي حيكت حوله.

^{٣٦٤} العقد الفريد (٢٧٢/٢)

^{٣٦٥} شرح النهج (٦٧/١)

غاية الكلام في الثلاثة

الغاية من هذه الاطلالة الموجزة والسريعة في أحوال الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان، هو أن نعيد تشكيل المنظار الذي من خلاله نظرت العامة إليهم وهو ما عنينا به قبلًا، - الأصنام - وليس الصنم سوى تقديس الوهم، وأسطرت التاريخ، وتضييب الغاية من نزول الرسالة، وأذكر يوم كنت من المعجبين بعمر بن الخطاب، حيث أبهرنني ما اشتهر به من عدل واستقامة، حتى ظننت أنني أمام نموذج من الكمال لا يدانيه سوى الخيال، ووقيعت تحت تأثيره لمدة طويلة، ويا لها من خشونة تلك التي كنت أحسب أنها سلوك الإسلام، ويا لها من علاقة قاسية كانت تقوم بيض وبين المحيط من حولي، لقد اكتشفت عمر بن الخطاب شيئاً فشيئاً.

وانتهيت كافراً به وما أن كفرت بعمر، حتى تغيرت سلوكـي وأمست أكثر استجابة لهمـسة التعالـيم الإـسلامـية وتحررت مشاعـري من عمر، وكانت كبرـى الانتـصارـات التي جـاهـدت من أجل تـحـقيقـها، هي أن أـخـرـجـ من كـهـوـفـ عمرـ بنـ الخطـابـ إلى رـوـضـةـ الإمامـ عـلـيـ (عـ)ـ وإـلـىـ عـالـمـ الـبـيـتـ الـهـاشـمـيـ..ـ وهـكـذاـ لـنـ يـكـونـ لهذاـ الـأـمـةـ منـ شـأـنـ حتىـ تـعـيـدـ النـظـرـ فيـ روـيـتهاـ التـارـيـخـيـةـ،ـ وـتـحـرـرـ منـ عـقـدـةـ الصـنـمـيـةـ وـتـسـافـرـ فيـ رـحـابـ الرـسـالـةـ الإـسـلـامـيـةـ بـعـقـلـ جـدـيدـ..ـ وـذـهـنـيـةـ جـدـيدـةـ.

خاتمة

هناك سؤال لا بد من طرحي في هذا السياق الحساس.. هل ثمة أزمة تاريخية أو أزمة مؤرخين، في ثقافتنا الإسلامية؟.

لا شك في أن المتجلول عبر الفجاج المختلفة في هذا التاريخ.. سيدرك لا محالة، إن الأزمة، هي أزمة الاثنين معا! وذلك لسبب بسيط: هو أن المؤرخ الذي لا يزال حتى اليوم، ابن بيئته التاريخية وابن الخطاب التاريخي السائد. إما أنه يوجد ضمن واقع تاريخي مختلف، ويتحرك في خط التعميق والتكرис لذلك الواقع. أم أنه يوجد ضمن أجواء بيئه تاريخية هي في حد ذاتها امتداد لواقعنا التاريخي القديم، وفي كلتا الحالتين، يكون المؤرخ ضحية لواقعه أو خطابه التاريخي السائد.

وإذا ما أردنا توسيع دائرة النقاش حول هذا الموضوع، ليشمل بذلك كل أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لقلنا بأن المؤرخ اليوم يلعب دورا خطيرا، ويمارس مهمة صعبة، من حيث أن المؤرخ يملك إمكانية للتغيير الأفكار والرؤى في مجتمعه، تلك الأفكار والرؤى التي لا تزال تجد امتداداتها في كل واحة من واحات وجودنا الحضاري.

غير أن المشكلة ما تزال قائمة، فعزوف المؤرخ عن استيعاب مادته أو التآمر على طرح الحقيقة، والعمل على طمسها بأسلوب التحرير والتزوير، هو أقرب الطرق إليه لا بد إذن من أن نعي جميعاً هذا الواقع المتخلب في موقفه، ولندع

إلى نهضة حقيقة تبدأ من الأسس، إلى ثورة تراثية، ثمينة بإعادة تشكيل منظوماتنا الثقافية.

كمقدمة لإحداث نهضة سليمة في حاضرنا، ذلك أن علاقة شعوبنا الإسلامية بتراثها علاقة متينة، وحياتها كلها تتلون بذاك اللون التراثي، مهما ظهر من تنكر ومهما بدا من شرود، فخطوط العودة إلى التراث لما تقطع بعد، ومن هنا تكمن ضرورة إعادة النظر في تراثنا الذي يشكل ذاكرتنا الجماعية.

لقد كان وما يزال أغلب المؤرخين والناقدين للتراث، يسبحون في بحر التكرار، وينون بإبداعاتهم النقدية على عناصر وهمية، ومعطيات جاءت بها رغبة الخلفاء وطمع المؤرخين، وإذا ما انتبهنا إلى الماضي والتفتنا إلى مجريات أحداثه، سوف يتبيّن لنا الأمر على درجة كاملة من الوضوح، فالسياق التاريخي الذي ظهر فيه التدوين والتاريخ، هو نهاية العصر الأموي والعصر العباسى، وهو سياق، شهد نموا خطيراً ومنظماً لتيارات مختلفة الاتجاه وشهد - أيضاً - صراعاً سياسياً حاداً تفتّق عن صراعات ايديولوجية.. ولما كانت السلطة طرفاً في هذا الصراع.. كان من الطبيعي أن تستثمر إمكانياتها وموقعها كسلطة صاحبة القرار في سبيل تدمير الأطراف الأخرى، وتشكيل ايديولوجية الدولة. وكان الدين دائماً هو الضحية الأساس، لأن تشكيل ايديولوجية هذه لا يستقيم إلا بـ إجراء سلسلة من التحريرات ليكتمل التنااغم والانسجام بين الاثنين.

وعلى هذا الضوء.. يمكننا القول.. أن الأمة الإسلامية خضعت - على مستوى السلطة - إلى توجيه ديانات إسلامية، أو صور مختلفة ومتناقضة للإسلام .. وقد أدرك الإمام علي (ع) هذه الوضعية الخطيرة عندما قال: " ولبس الإسلام ليس الفرو مقلوباً ."

كان هذا الزوج (السلطة / الدين) ترجمة ظاهرة لواقع مبطن للزوج (سلطة / لا دين) إذ القضاء على الدين يومها لا يمكن أن يتم بهوى سلطان، وإنما كان يقتضي إجراءات تكتيكية.. تبدأ بسلب محتواه ثم الانتهاء بإزاحته ليعود الأمر إلى حالة السلطة المنفردة التي تقوم على الهوى.

ولا أحد يجهل ما كان عليه واقع جل مؤرخينا. إما منحازين ومنتدين، وإما

متزلفين.

أي إما أنهم يؤمنون بمدرسة من تلك المدارس الكثيرة ومتبنين لاتجاه معين .. أو مرتزقة يكتسبون معاشهم عبر التزلف والمدح .. والتحريف والتزوير وكانت التقية هي السبيل الوحيد للكثير من المؤرخين المنصفين .. لذلك أدرجوا الكثير من الأحداث في أسفارهم تناقض بعضها بعضاً، وهي مع ذلك قابلة للتأويل.

إن التأويل هو المنهج الوحيد للعثور على الحقيقة في هذه المنعرجات المختلفة، تأويل الأحداث والأشخاص، وتأويل المؤرخ نفسه، والنظر إليه ضمن سياقه الاجتماعي الخاص.

وتاريخنا إلى اليوم لا يزال بكراء، ولا تزال رياضه عذراء من أي محاولة جادة للتأويل لأن مؤرخينا الأعزاء وأحفادهم اليوم .. لم يفعلوا سوى إعادة إنتاج ذلك الماضي وهم بذلك يعيدون إنتاج أزمنته.

ويؤسفني جداً، أن تكون الحياة لا تزال تدب في بعض الأوصال الميتة، التي أحرقتها الأحداث.

وطوى التاريخ عنها كشحاً، لتعيدنا إلى الظلام بواسطة الجهل المركب إنها حرب حقيقة بين ظلمة التراث ونوره بين رجعيته وتقدميته ولست متحالماً إذا ما أشرت إلى ما تقوم به اليوم، عصابة - نجد - من محاولات جادة لتشويه سمعة الإسلام.. بتبنيها نشاطات ترمي من خلالها إلى تشويه مدرسة أهل البيت (ع) في سبيل الانتصار لبداويها التي لم يعد قادراً على استيعابها سوى مذهب الوهابية القاحل من روحية الإسلام ونضجه.. وقد صادفت - وأنا أختتم هذا الكتاب - كتاباً لمؤلف سعودي.. واقع في ثلاثة أجزاء.. وهو في الأصل رسالة لنيل دبلوم دكتوراه من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.. وهو تحت عنوان - أصول مذهب الشيعة الإمامية الثانية عشرية عرض ونقد - وقع اختيار المؤلف على هذا المبحث كما يريد أن يقول.. وبعد الاستشارة والاستخارة عقدت العزم على أن أدرس العقائد الأساسية للمذهب الثاني عشرية - (ص ٨ ج ١).

لقد صدمني - قبل كل شيء - ذلك المستوى الذي تطمح أن تظهر عليه جامعة

محمد بن سعود وهي تستقبل وتشرف على رسالة هي أقرب إلى وعظيات أهالي
نجد، وخشونتهم.

وإنني لأول مرة، أرى أطروحة تسب، وتشتم، وتلعن، ولكن لا عليك، إذا
كانت اللجنة المشرفة هي من تلك الطينة. إن الشهادة في عرف العقيدة النجدية
تعطي لمن يسب أكثر ويفرق أكثر، يقول كاتبها كما قال غيره من قبل - إذ
رسالته كلها اجتار وتجمّع، لما سبق تناوله جهلاً وتخريفاً - وقد تشيع بسبب
الجهود التي يبذلها شيوخ الائمة عشرية الكثیر من شباب المسلمين (ص ٩ ج ١).
ولست أدری إلى أي معنى يريد صاحب الرسالة الوصول؟ أيعني بهذا،
التنبيه إلى خطورة الموقف؟.

إن هؤلاء الذين تشيعوا لهم يفعلوا سوى أن دخلوا في فعالية جديدة داخل
تكوينهم الإسلامي، والتسيّع أعرق بكثير من خطاب الوهابية المستحدث
والذين تشيعوا أيضاً، لم يكونوا مغفلين.. ومجتمعاتهم تزخر بتلك الفعاليات
الأخرى.. إنهم أحرار وواعون ومنظقون مع أنفسهم.. ولعلهم أذكى وأورع
من غيرهم.

هؤلاء شكلوا برهاناً ساطعاً على بؤس مذاهبهم السابقة.. ولم يجدوا ملاذهم
إلا في رحاب البيت النبوي وليس ذلك مرده إلى اشتغال ودّهوب علمائهم
على الاستقطاب، فعصابة نجد كانت أسبق إلى هذا المسعى، وهي التي أهربت
آبارها النفطية على درب الصراع المذهبي.. وهي التي أقامت في كل قرية من
العالم خيمة وعقلاً.

يجب من الآن أن نعامل شعوبنا باحترام.. وأن لا نعاملها بأسلوب النخبة
الدينية وذئنية الأقنوم المقدس. إن شعوبنا أصبحت - بفضل الله - على درجة
من الوعي قادر أن يجعلها في مستوى استيعاب الفكرة ولا داعي لأن نكثّر من
شرح المعتقد.

إن ما تقوم به اللوحة الوهابية - مع تقديرها واحترامها للطموح - لن يعود
سوى محاولة يائسة لترقيع ذلك الجلباب الخرق كشأن العطار الذي رام إصلاح
ما أفسده الدهر.

لتعلم أن شعوبنا قد تجاوزتها نضجا وثقافة لذلك يفضل إعطاءها الخيار الكامل في اختيار سبلها بكل حرية وثقة في النفس.

ومن أجل ذلك لا بد أن نقدم فهرسة كاملة لما هو مفيد في الاطلاع على كتب مدرسة أهل البيت (ع).

وأن تكون أقرب إلى بليوغرافيا شاملة في العقائد والتاريخ وفق ذلك الاتجاه، لنعرف أبناء الأمة بمصادر الاطلاع الحر، ولها الخبرة في موقفها.

وعينا مني أيضاً بأن تعريف أعداء هذه المدرسة بأمهات الكتب العقائدية والتاريخية المهمة قد يمنحهم معلومات بليوغرافية هامة، تساعدهم على ضبط الكتاب ومنعه، ولكن هذا لا يخيف أبداً من منع الكتاب، لأن علاقة الإنسان بالكتاب، هي علاقة حيوية لا يقوى على منعها إلا متهافت!.

الفهرست

٧	مقدمة
١٧	مدخل
١٧	حركة النفاق في المجتمع الاسلامي
٢٦	التدابير النبوية في تركيز الامامة
٣٥	نتيجة المدخل
٤٣	النفاق و النهاية المفتعلة

الباب الأول

الخلفاء الراشدون حبكة مفتعلة !

٥٣	الفصل الأول : الاصطلاح و المفهوم
٦٩	أهل البيت و الاعلمية
٧٩	الخلفاء ما داموا مارسوا الخلافة
٨٣	السقيةة و المعارضة
٨٨	الخلفاء ما داموا صحابة
٩٥	الفصل الثاني : الخلفاء و الواقع التاريخي موقف الإمام علي (ع) مثلاً

الباب الثاني

أزمة تاريخ أم أزمة مورخين ؟

نحو خ ابن خلدون

١١٣	التاريخ لماذا ؟
١١٧	لماذا بن خلدون ؟
١٢٢	ابن خلدون و وفاة الرسول (ص) و بدء الخلافة !
١٢٤	في مسألة تجهيز جيش أسامة
١٣١	فتح باب أبي بكر ، و ذكر الخلة !

١٣٥	صلوة أبي بكر
١٤٣	خبر السقifica
١٤٨	سعد الخزرجي و أساطير الجن
١٥٢	خلافة عمر
١٥٩	عثمان و الفتنة
١٧٩	ابن خلدون و معاوية بن أبي سفيان !
١٨٤	كرباء .. نموذجاً آخر
١٩٤	شبهات بن خلدون و الرد عليها

الباب الثالث

عقبريات في الطيران

٢٠٧	أوهام مقدسة
٢٠٩	العقلية
٢١٢	الذاكرة أساس الشخصية
٢٢٢	الخليفة الثاني عمر بن الخطاب
٢٢٨	عثمان بن عفان
٢٣١	غاية الكلام في الثلاثة
٢٣٣	خاتمة